

انظرون سعادته

نشوء الأمم

الكتاب لله

الطبعة الثانية دمشق

1951

منقحة بقلم المؤلف

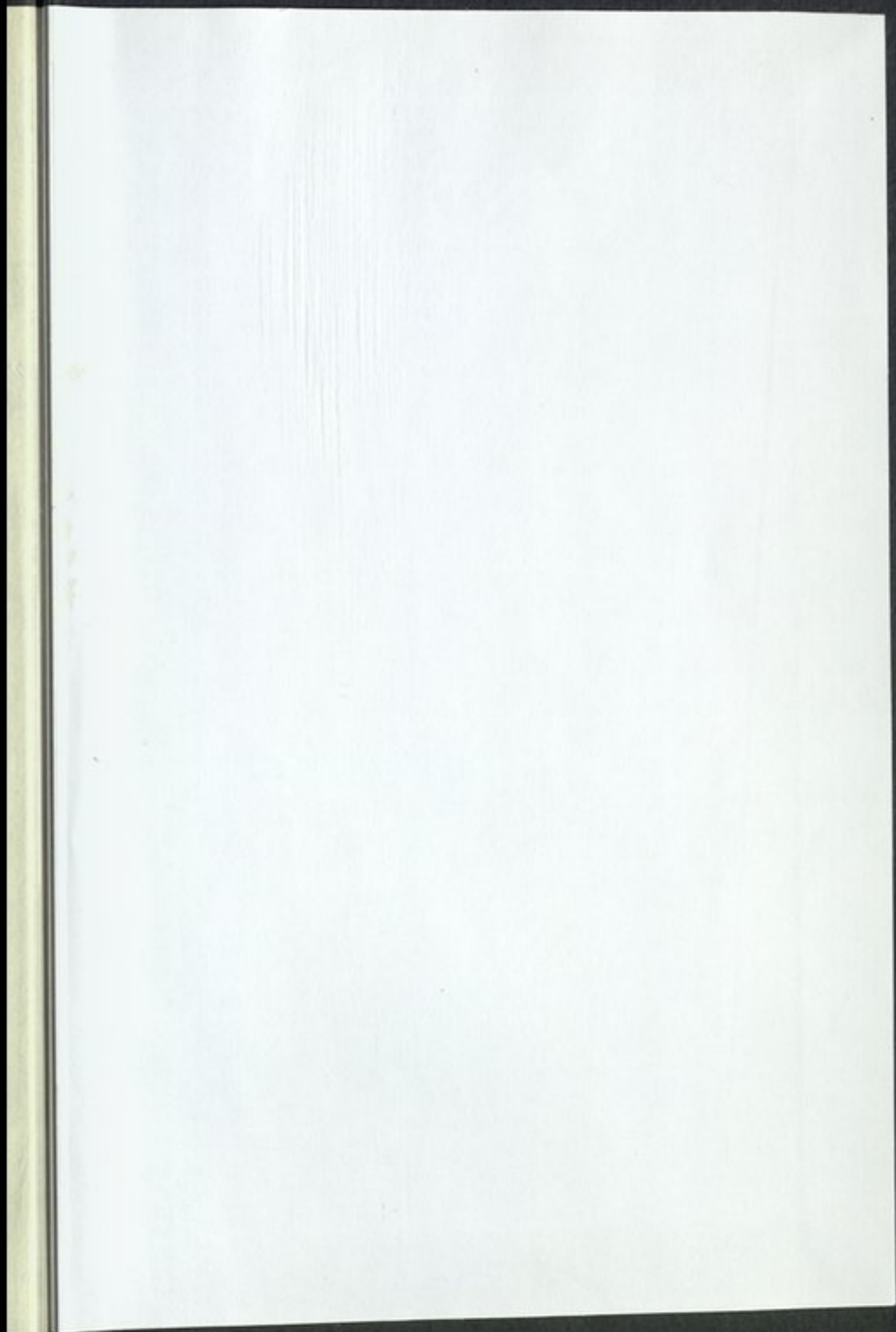
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

American University of Beirut
University Libraries



Donated by
Dr. Nadim Bitar

CLUB LIBRARY



انطون سعادہ

CA

320.1

S111nu2A

v.1

C.2

نشوء الأمم

الكتاب للشيخ

الطبعة الثانية دمشق

1951

منقحة بقلم المؤلف

جميع حقوق الطبع والنقل والترجمة
محفوظة للمؤلف

فی

كيفية نشوء الامم

وتعريف الامة

الى رجال النهضة القومية الجبارة
ونسائرها العاملين لحياة سورية ومجدها

اهدي هذا الكتاب

المؤلف

يمود الفضل في انجاز تأليف هذا الكتاب الى التسهيلات العملية
التي قدمها لي في السجن المعاون الصحي الادجودان كمال الزاهد بتقدير منه
والى العناية التي احاطني بها اصدقائي ورفقائي في الحزب السوري
القومي الاجتماعي اذ سهلوا لي الحصول على المستندات واللوازم للعمل

مستندات هذا الكتاب

ابن خلدون ، المقدمة (بيروت ، 1900) .

المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر (باريس ، 1861) .

MEYER, E .

Geschichte des Alterthums,
Stuttgart, 1884 — 1902

ماير

VIDAL DE LA BLACH, P. M J. .

Principles of Human Geography,
Fr. trans. by M. T. Bing,
(New York, 1926.)

ويدال دلا بلاش

HERTZ, F. O

Race & Civilization,
Eng. trans. by Levetus, A. S. and
Entz, w. (London & New York, 1928.)

هرتس

BOAS, F.

Anthropology & Modern Life,
New York, 1928.

بواس

HITTI, PH. KH.

The Syrians in America, (New York 1924)

حني

WILLIAMS, H. S. (ed.)

Historian , s History of the World,
25 vols. , (New York, 1904 —5)

وليمز

WELLS, H.G.

The outline of History, (New York, 1929.)

ولز

RIBEIRO, J.

Ristoria Universal, (Rio do Janeiro, 1925)

ريبيرو

BREASTED, J. H.

A History of Egypt from the Earliest
Times to the Persian Conquest,
(New York, 1905.)

برستد

OLMSTEAD, A.T.

History of Palestine & Svria to the
Macedonian Conquest, (New York & London, 1931)

اولمستد

CEATANI, L. Studi di Storia Orientale, (Milano, 1911.)	کیتانی
WEINERT, H. Ursprung der Menschheit, (Stuttgart, 1932.)	وینرت
WEINERT, H. Menschen der Vorzeit, (Stuttgart. 1930.)	وینرت
HADDON, A. C. The Races of Man and their Distribution, (New York, 1925.)	هڈن
TAYLOR, G. Environemnt & Race, (London, 1927)	تایلور
SCHMIDT, M. The Primitive Races of Mankind, (London, 1926.)	شمیت
LUSCHAN, F. VON « Anthropological View of Race, » Papers on Inter - racial Problems, (London, 1911.)	فن لوشان
GOLDSCHMIDT, R. " Some Aspects of Evolution " , Science, December, 1933.	گلدشمت
KAPPERS, A. Anthropology of the Near East, Contributions, (Amsterdam, 1931.)	کپرس
Arbeiten zur Biologischen Grundlegung der Soziologie, (Leipzig, 1931):-	
LEGEWIE, H. « Organismus und Umwelt. »	لیقوی
GEIGER, T. « Das Tier als Geselliges Subjekt. »	قیقر
WASMANN, E. « Die Demokratie in den Staaten der » Ameisen und der Termiten. »	وسمن
SCHWIEDLAND, E. « Triebanlage und Umwelt als Soziale Gestalter. »	شویڈلند
RAPAIES, R. « Versuch einer Gesellschaftslehre der Pflanzen. »	رپیه
ZIMMERMANN, W. « Pflanzensoziologie. »	تسمرمن
KRISCHE, P. « Beitrage zur Soziologie der pflanzen. »	کریشہ
SCHJELDERUP - EBBE, TH. « Die Despotie im sozialen Leben der Voegel. »	سیلدرب ائی

- HEBERER, G. هيرر
« Das Abstammungsproblem des Menschen
im Lichte Neuer Palaeontologischer
Forschung. »
- WOLFF, K.E. ولف
« Die Kraniologische polaritätstheorie
und ihre Soziologische Bedeutung. »
- Allgemeine Verfassungs und Verwaltungs
Geschichte, (Leipzig und Berlin, 1911:)
- VIERTKANDT, A. فيركنت
« Die Anfänge der Verfassung und der
Verwaltung und die Verf. u. Verw.
der Primitiven Völker. »
- WENGER, L. ونقر
« Die Verfassung und Verwaltung des
orientalischen Altertums. »
- HARTMANN, M. هارتمن
« Die Islamische Verfassung und Verwaltung. »
- FRANKE, O. فرانكه
« Die Verfassung und Verwaltung Chinas. »
- RATHGEN, K. راتغن
« Die Verfassung und Verwaltung Japans »
- WENGER, L. ونقر
« Die Verfassung und Verwaltung Euro-
päischen Altertums. »
- EBENGREUTH, A. R. L. VON. فن ابنقرويط
« Die Verfassung und Verwaltung der
Germanen und des Deutschen Reiches
bis zum Jahr 1806. »
- Allgemeine Rechtsgeschichte, (Leipzig u. Berlin, 1914:)
- KOHLER, J. كولر
« Die Anfänge des Rechts und das
Recht der Primitiven Völker. »
- KOHLER, J. كولر
« Das Recht der Orientalischen Völker. »
- WENGER, L. ونقر
« Das Recht der Griechen u. Roms. »
- McIVER, R. M. مكيور
The Modern State, (Oxford 1926.)
- McIVER, R. M. مكيور
Community, (London, 1924.)
- MULLER - LYER, F. C. ملر - لير
The History of Social Development, (New York, 1921.)
- JOHANNET, R. جوانه
Le Principe des Nationalités, (Paris, 1932.)

BARKER, E.
National Character and the Factors In Its Formation,
(London, 1927.)

باركر

JENKS, E.
The State and the Nation, (New York 1926.)

جنكس

ملاحظة: 1: في الاشارة الى هذه المستندات سنعتمد اسم المؤلف فقط وعدد
الصفحة او الصفحات

2: اذا كان المؤلف صاحب بحث مدرج في احد المؤلفات الكبيرة
فاننا نعتمد اسمه ونختصر اسم المؤلف الكبير مضافاً اليها عدد
الصفحة او الصفحات والجزء

3: اذا كان المؤلف صاحب كتابين اعتمدنا اسم المؤلف واسم
الكتاب مع عدد الصفحة او الصفحات
واننا قد اعتمدنا المختصرات التالية :

ABS — Arbeiten zur Biologischengrundlegung der Soziologie
AVV — Allgemeine Verfassungs- und Verwaltungsgeschichte
AR — Allgemeine Rechtsgeschichte
HH — Historians' History

فهرس المواضع

المقدمة

الفصل الاول — نشوء النوع البشرى

- 1 - التعليل الدينى . 2 - نقد التعليل الدينى ونقضه . 3 - التعليل العلمى
- 4 - نقد التعليل العلمى .

الفصل الثانى — السلل البشرى

- 7 - مدلول السللة . 2 معتقدات السللة . 3 - عقيدة السللة فى فرنسا وبلجيا .
- 4 - عقيدة السللة فى انجلترا . 5 - عقيدة السللة فى المانية . 6 - عقائد السللة
- عموما . 7 - عقائد ونظريات فى السللة . 8 - نظرية العقيدة الآرية . 9 -
- النظريات العلمى العصرية . 10 - نشوء السلل وعددها . 11 - السلل
- والعقليات . 12 - تغير السلل .

الفصل الثالث — الارض وبنفائها

- 1 - اهمية الارض للحياة . 2 - اهمية البيئة للانسان . 3 - البيئة والجماعة .
- 4 - البيئة وشخصية الجماعة . 5 - البيئة وتاريخ الجماعة .

الفصل الرابع — الاجتماع البشرى

- 1 - اجتماعية الانسان وقدمها . 2 - وجهة الاجتماع البيولوجية . 3 - توزيع
- البشر ونشوء الجماعات .

الفصل الخامس — المجتمع وتطوره

- 1 - المجتمع البدوى او المتوحش . 2 - المجتمع السابق العمران وتطوره .
- 3 - التطور الثقافى السابق التاريخ . 4 - الثقافة الاولى والثقافية العمرانية .
- 5 - تطور الثقافة العمرانية . 6 - الثورة الصناعىة .

الفصل السادس - نشوء الدولة وتطورها

- 1 - الثقافتان المادية والنفسية. 2 - نشوء الدولة. 3 - الدولة في عالم الحيوان.
- 4 - الجماعة والفرد. 5 - الطوطمية والتناسخ. 6 - الزواج الخارجي. 7 -
- الحقوق الامومية. 8 - الحقوق الابوية. 9 - الزواج الفردي والعقد. 10 -
- الزواج بالشراء. 11 - الاستعباد. 12 - النار. 13 - واقع الدولة. 14 - فوارق
- السلطة. 15 - الاتصال بعالم الارواح والتشريع والقضاء. 16 - الشكل الديمقراطي.
- 17 - الشكل الاوطوقراطي. 18 - الاقطاع. 19 - الشكل الارستقراطي. 20 -
- ادارة الدولة. 21 - الدولة الاستبدادية وعهد الامبراطوريات الاولى. 22 -
- الشرع. 23 - الدولة الاقطاعية في الغرب والشرق. 24 - الدولة الدينية. 25 -
- الدولة الديمقراطية القومية.

الفصل السابع - الاثم الكنعاني

- 1 - تحديد المتحد. 2 - تحديد الامة. 3 - الاثم الكنعاني.

المقدمة

ان الوجدان القومي هو اعظم ظاهرة اجتماعية في عصرنا، وهي الظاهرة التي يصطبغ بها هذا العصر على هذه الدرجة العالية من التمدن . ولقد كان ظهور شخصية الفرد حادثاً عظيماً في ارتقاء النفسية البشرية وتطور الاجتماع الانساني . اما ظهور شخصية الجماعة فاعظم حوادث التطور البشري شأناً وابعدها نتيجة وأكثرها دقة ولطافة واشدها تعقداً ، إذ ان هذه الشخصية مركب اجتماعي - اقتصادي - نفسي يتطلب من الفرد أن يضيف الى شعوره بشخصيته شعوره بشخصية جماعته ، ايمته ، وان يزيد على احساسه بحاجاته احساسه بحاجات مجتمعه وأن يجمع إلى فهمه نفسه فهمه نفسية متحدة الاجتماعي وان يربط مصالحه بمصالح قومه وان يشعر مع ابن مجتمعه ويهتم به ويود خيره ، كما يود الخير لنفسه .

كل جماعة ترتقي إلى مرتبة الوجدان القومي ، الشعور بشخصية الجماعة . لا بد لافرادها من فهم الواقع الاجتماعي وظروفه وطبيعة العلاقات الناتجة عنه . وهي هذه العلاقات التي تعين مقدار حيوية الجماعة ومؤهلاتها للبقاء والارتقاء ، فبقاؤها غامضة يوجد صعوبات كثيرة تؤدي الى اساءة الفهم وتقوية عوامل التصادم في المجتمع فيعرقل بعضه بعضاً ويضيع جزءاً غير يسير من فاعلية وحدنة الحيوية ويضعف فيه التنبه لمصالحه وما يحيط بها من اخطار من الخارج . وان درساً من هذا النوع يوضح الواقع الاجتماعي الانساني في اطواره وظروفه وطبيعته ضروري لكل مجتمع يريد ان يحيا . ففي الدرس نفهم صحيح لحقائق الحياة الاجتماعية ومجاريها . ولا تخلو امة من الدروس الاجتماعية العلمية إلا وتقع في فوضى العقائد وبلبلة الافكار .

ب

على انه ليس كل درس اجتماعي درسا مفيداً . فان من الدروس ما هو كئبي او مدرسي فيكون مجموعته مواد عامة او معلومات اولية لا تساعد على تقرير نظرة او معرفة طبيعة واقع اجتماعي معين . وليس عالماً اجتماعياً ولا خبيراً بالاجتماع من درس مواد علوم اجتماعية مدرسية منظمة تنظيماً خاصاً في جامعة معينة وادى عن دروسه امتحاناً نال به لقب مخرج او دكتور او غير ذلك .

ومنذ الف ابن خلدون مقدمة تاريخه المشهور ووضع اساس علم الاجتماع لم يخرج في اللغة العربية مؤلف ثانٍ في هذا العلم فظلت امم العالم العربي جامدة من الوجهة الاجتماعية ، يتخبط مفكروها في قضايا امهم تخبطاً يزيد الطين بلة . ولا نكران ان الكاتب الاجتماعي السوري نقولا حداد وضع مؤلفاً معتدلاً الضخامة اسماء « علم الاجتماع » . ولكن هذا الكتاب من النوع المدرسي ولا يأمن قارئه الشطط . وهو مع ذلك المحاولة الاولى من نوعها ، على ما اعلم ، لفتح طريق علم الاجتماع الحديث .

ولتقرر اللغة العربية في المؤلفات الاجتماعية نجدها فقيرة في المصطلحات الاجتماعية العلمية . فوضعت في هذا الكتاب مصطلحات جديدة أرجو أن أكون قد توفقت في اختيارها للدلالة على الصفة المعينة ، كقولي : « الواقع الاجتماعي » و « المتحد الاجتماعي » و « المناقب » و « المناقبة » (للمورال) .

ان « نشوء الامم » كتاب اجتماعي علمي بحثت تجنبته فيه التأويلات والاستنتاجات النظرية وسائر فروع الفلسفة ، ما وجدت الى ذلك سبيلاً . وقد أسندت حقائقه الى مصادرها الموثوقة . واجتهدت الاجتهاد الكلي في الوقوف على احداث الحقائق الفنية التي تنير داخلية المظاهر الاجتماعية وتمنع من اجراء الاحكام الاعتبارية عليها .

وقد فرغت من تأليف الكتاب الاول وانا في السجن ، بين اوائل شباط واوائل ايار 1936 وكنت قد كتبت الفصول الاولى الثلاثة قبل دخول السجن .

ج

و كنت أود ان اعود الى مراجعة هذا الكتاب في متسع من الوقت ليحيى
اكل في الشكل ويكون اكثر اسهابا في بعض المواضع ولكن تعاقب السجون
والظروف السياسية الصعبة التي وجدتني فيها بعد سجنى الاول جعلت العودة الى
هذا الموضوع العلمي امراً مستحيلاً . ولما كانت حاجة النهضة القومية الى هذا
الاساس العلمي ماسة رأيت أن أدفع المخطوطة الوحيدة الى المطبعة وهي في حالتها
الاصلية ، كما خرجت من السجن .

أما الكتاب الثاني من هذا المؤلف فقد درست معظم مواده ووضعت له
الملاحظات والمذكرات وهذه جميعها صودرت اثناء الاعتقالات الثانية في صيف
1936 وساسعى للحصول عليها من المحكمة ، لانها اوراق شخصية لا دخل لها
في القضية ، وانتهاز الفرصة لتأليف الكتاب الثاني .

ومها يكن من الامر فالكتاب الاول جامع مستوف الوجهة العامة من نشوء
الامم بجميع مظاهرها وعواملها الاساسية . ومع أن نشر هذا الكتاب الاول
لايسد الحاجة الى الكتاب الثاني فهو يسد الحاجة الى كتاب في نشوء الامم
بوجه عام .

يتناول الكتاب الاول تعريف الامة وكيفية نشوئها ومحلها في سياق التطور
الانساني وعلاقتها بمظاهر الاجتماع . ويشتمل الكتاب الثاني على نشوء الامة
السورية ومحلها في سياق التطور الانساني وعلاقتها بالامم الاخرى وبالانجاء العام .
عسى أن يني هذا المؤلف بالغرض الذي وضع لاجله فيوضح من حقائق
الاجتماع ما يحلو الغوامض في فهم الامم والقوميات .

انطون سعاد

25 ايلول 1937

الفصل الاول

نشوء النوع البشري

التعليل الربنى . كانت مسألة نشوء النوع البشري من المسائل التي شغلت عقل الانسان منذ ابتدأ الانسان يشعر بوجوده ويعقل نسبه الى مظاهر الكون ونسبة هذه المظاهر اليه . فاخذ يتكهن صدوره عن عالم غير هذه الدنيا يعود اليه بعد فناء جسده . ولم يكن هذا التكهن الراقى في التصور مما تنبه له الانسان كما يتنبه للموجودات الواقعية ، بل كان درجة بارزة في سلم ارتقاء الفكر سبقتها درجات من التخرصات الغريبة التي ليس هذا البحث مختصاً بها ، ولكن لابد من الاشارة الى هذه الدرجة لانها ذات صلة متينة بنشوء الدين وفكرة الله وحكاية الخلق المستقل التي اثرت فينا تأثيراً عظيماً .

في هذه الدرجة نشأت اعتبارات النفس والجسد ففي الهند اشتقت النفس من النفس وشاعت في اماكن كثيرة عقيدة لفظ النفس مع النفس ، حتى اذا بلغ التطور الدينى الى فكرة الله القادر على كل شىء الخالق السماوات والارض وما عليها كان ما يشبه البديهي أن يعلل الانسان نشوء نوعه بخلق مستقل «نجيل الله تراباً وتنفخ فيه من روحه نسمة حياة» .

ولم يكن العقل البشري عند تلك الدرجة من الدقة في التمييز بحيث يحاول الدخول في افتراض وتقرير خلق مركب ، معقد للانسان وسلالاته فلجأ الى جعل الخلق بسيطاً ومعقولاً بحيث ينطبق على الظاهر البسيط ، فخلق الله رجلاً واحداً هو «آدم» ثم خلق له امرأة واحدة من ضلعه هي «حواء» وسنة التوالد تكفلت بتعليل تكاثر البشر وانتشارهم في الارض .

ومنذ انتشرت تورااة اليهود مع كتاب المسيحية وشاعت المسيحية في العالم

رسخ في عقول المؤمنين «بالكتاب المقدس» الاعتقاد بتسلسل البشر من مخلوق واحد. ثم جاء القرآن مؤيداً حكاية الخلق الواردة في توراة اليهود وتأصل في أذهان المؤمنين به الاعتقاد بصحة هذه الحكاية .

هذا هو التعليل الديني لنشوء النوع البشري وقد فرض الدين على كل مؤمن الاعتقاد بصحته وعده حقيقة ثابتة أصلية وعليه بني علم السلالات القديم الذي جعلها متسلسلة من آدم ومتفرعة من سام وحام ويافت .

نقد التعليل الديني ونقصه . ظل هذا الاعتقاد مستولياً على عقول العالم المتمدن بالدين الى أن أخذت العقول الممتازة تلاحظ في ترتيب الكون ومظاهر الحياة ما يدل على وجود حقائق لا يوصلنا التعليل الديني الاولي إلى كشف القناع عنها . فكان من وراء ذلك نشوء المدرسة العلمية التي قام النزاع بينها وبين الدين فيما يتعلق بالحياة ومظاهر الكون وحقيقة الاشياء ، وكان ولا يزال نزاعاً شديداً .

اكتشفت المدرسة العلمية ان علاقة الانسان بالحيوان وعلاقة الحيوان بالنبات اشد كثيراً مما حدده الدين. اكتشفت هذه المدرسة أن اللغات لم تتوزع على البشر في برج بابل واسطوره وأن النجوم ليست مجرد «نجوم» وأن الشمس لا تدور حول الارض. ولو لم تتفق هذه الحقيقة مع مجد يشوع بن نون، وأخيراً اكتشفت مدرسة العلم التاريخ الذي سطرته الارض في طبقاتها المنضدة فظهرت الى النور حقائق غريبة لم تخطر على قلب بشر من قبل .

كانت حكاية الخلق الخيالية أقرب الى تصديق اهل الدرجة المشار اليها آنفاً لأنها اقتصرت على تسمية وجود الشيء خلقاً مباشراً تخلصاً من الدخول في أي بحث يتطلب أدلة راهنة يصح اعتبارها حقائق واقعية . ولكن الادراك البشري الذي كان آخذاً في الارتقاء بما يعرض للانسان من الاختبارات الموسعة افق النظر الفاتحة ابواب المقابلات والاستنتاج ، لم يعد يقنع بالتعلييلات الخيالية البحتة المعزوة إلى افتراض وجود شخصية وراء نظام الكون تحدث النظام وتحديث بلا نظام ، اليها ينسب كل ما يقف امامه عقل الطفل وعقل البالغ

المجرد من العلم حائراً . ففتح كتاب التاريخ الطبيعي وكتاب الجيولوجيا الذي نضدت الارض صفحاته بكل ترتيب ونظام ووجد من ضمن الحقائق القريبة التي يعلنها هذا الكتاب أن الارض اقدم كثيراً من عهد يسبق آدم بستة ايام فقط وان الانسان اقدم من آدم بعشرات الوف السنين .

وأنشأ الانسان علم الحيوان وعلم النبات ووجد بين اصناف الحيوان وبين هذه والنبات صلات أمتن جداً من أن تسمح بالقول ، بالخلق المستقل . و اضاف علم الحياة من مكتشفات اسرار الحياة الى معلومات العلوم المتقدمة ما أيقظ الفلسفة من سباتها . وتجاه الحقائق التي ابرزها العلم أخذت مسألة الخلق المستقل تنحط وتراجع حتى لم يعد يهتم بها إلا الطامعون بالخلود الاناني .

التعليل العلمي . إن الحقائق التي اكتشفها الانسان ومنها أنشأ المدارس العلمية العصرية ابتدأت بتسجيل الملاحظات التاريخية والملاحظات الطبيعية فتنبه تدريجاً لتقارب الانواع من حيوان ونبات قبل نشوء مدرسة التطور الحديثة ، حتى أن مؤرخاً وعالماً اجتماعياً كبيراً عاش في القرن الرابع عشر — الخامس عشر (ابن خلدون) استطاع أن يدون لنا بلغتنا ما لاحظته الفلاسفة قبله من أن للكائنات الحية اتصالاً قريباً معناه أن آخر افق بعضها مستعد لان يصير اول افق الذي بعده « واتسع عالم الحيوان وتعددت انواعه وانتهى في تدريج التكوين الى الانسان »¹ . ولم يكن هذا القول من الكلام الملقى على عواهنه ولا طائل تحته ، بل كان نتيجة ملاحظات دقيقة ، لم يتح لها ان تبلغ درجة الكمال بالاستقصاء والتحري حتى كان القرن الماضي الذي اخرج لنا الدروينية . لاحظ القدماء ان أول افق الانسان متصل بآخر افق الحيوان ، كاشباه الانسان الاوران - اوطان والغورلا والشبزي . ولعل الفينيقيين كانوا أول من اهتموا بفراصة الشبه بين القروود العليا والانسان ، اذ هم اول قوم رحلوا في سبيل الاكتشاف والعلم وكانت رحلة حنون (Hanno) الفينيقي القرطاضي إحدى الرحلتين العالميتين الجغرافيتين الاوليين اللتين حدثتا في العالم المتمدن وكتاها

فينيقيتان . فقد ارتحل حنون حوالي 520 ق . م ، بستين مر كبا كبيراً وكان القصد من رحلته إيجاد محطات قرطاضية على شواطئ مراکش أو امداد المحطات الموجودة بالقوة . ولكنه لم يقتصر على ذلك بل تقدم جنوباً الى نهر الذهب (Rio de Oro) وجزيرة كرنى او هرني ، ثم تابع وجاوز نهر السنغال . وقد سافر هذا الاسطول الفينيقي سبعة ايام وراء غمبيا . وفي احدى الجزر وجدت هذه البعثة رجالاً ونساء يكسو أجسامهم الشعر « سمام التراجمة غورلا » غملت بعض أناث هذه « الغورلا » معها ولكنها اضطرت في الطريق إلى قتلها وحملت جلودها إلى هيكل يونو¹

كان ذلك اول اتصال العالم المتمدن بأشباه الانسان، ثم مرت اجيال قبل نشوء مدرسة الاستقصاء التي أخذت على عاتقها درس علاقات الكائنات الحية بعضها ببعض . وفي هذه الاجيال العديدة كان التعليل الديني التعليل الوحيد لنشوء الانسان وسائر الكائنات . فلما نشأت هذه المدرسة ابتدأت بالملاحظة الظاهرية التي أدت إلى تقرير ما ذكره ابن خلدون في مقدمته ، ثم أخذت تتدرج في الارتقاء حتى اكتشفت العلاقات البيولوجية الوثيقة فيما بين الكائنات الحية وبين هذه والجماد . رأت المدرسة العلمية أن الانسان ليس إلا كائناً واحداً من الكائنات الحية، وانه خاضع للنظام الجاري عليها كلها . فحيث الحياة في كل مظاهرها غير ممكنة لا يستطيع الانسان ان يعيش . ولما كان الانسان مظهرأ من مظاهر الحياة العامة فلا يمكن البحث في كيفية نشوئه على حدة ولذلك لا بد من جعل السؤال « من أين جاء الانسان ؟ » ضمن نطاق سؤال أوسع هو : من أين جاءت الحياة ؟ .

وليس القصد من بحثنا هذا الدخول في سلسلة الابحاث الفلسفية العلمية التي ينطوي عليها هذا السؤال لذلك نكتفي منه بالحصول على النتيجة التي تمهنا في درسنا نشوء النوع البشري وهي أن الانسان جزء من الحياة نشأ بالتطور حتى بلغ شكله الحالي، ولذلك فعهد نشوئه يرجع إلى عهد نشوء الحياة نفسها² أثبتت العلوم الطبيعية على اختلافها أن الحياة أقدم كثيراً مما قال به التعليل

1 انظر ولز ص 163

ويبرت Ursprung ص 3 .

الديني ، وأن الانواع من حيوان ونبات متصلة اتصالاً وثيقاً ينفى مبدأ الخلق المستقل . وفوق كل ذلك أثبتت الكيمياء وحدة العناصر التي تؤلف ما هو عضوي وما هو غير عضوي ¹ فيكون ما ذهب اليه الفيلسوف السوري الكبير ابو العلاء المعري من ارتباط الحيوان بالجماد رأياً يتفق كل الاتفاق مع نتائج المدرسة العلمية :

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد ومهما يكن من شيء فجميع الأدلة تثبت أن اتصال الكائنات الحية بعضها ببعض كان تسلسلياً مما لم يبق مندوحة من التسليم بنظرية التطور . والتطور هو التعليل العلمي لنشوء الانسان نوعاً من انواع الحياة قائماً بنفسه . وقد اكتشف علم طبقات الارض والاحافير بقايا بشرية قدمة جداً وآثار شراذم بشرية في حالة وحشية . ووجد العلماء من هذه البقايا والآثار أن اشكال الانسان في تلك الازمنة المتطاولة في القدم كانت أحط من اشكال الانسان الحديث ، كالانسان الهيدلبرغي والانسان النيندرتالي . وانسان جاوي (Pithecanthropus Erectus) الذي اكتشف بقايا جمجمته ديوي (Dubois) ، هو من أغرب الاكتشافات المسهلة لنا تتبع خطوات الانسان في طريق ارتقاؤه من الحيوانات العليا .

نقد التعاليل العلمية . لانستطيع ، مما أبرزه لنا العلم ، أن نعين بالضبط الزمن الذي ابتدأت فيه الحياة . ولا يمكن اقامة الدليل ، بكل معنى الكلمة ، على كيفية حدوث التطور منذ بدء الحياة حتى نشوء الانسان ، إذ ليس بين البشر الكاتبين من كان شاهداً يسجل تفاصيل هذا الحدث الخطير ، فمن يطلب من العلم أن يروي حكاية تطور كل كائن حي كما حدث تماماً لا يحصل على جواب . ولكن التعليل العلمي يأتي بدلائل تعطي برهاناً معقولاً لوجودنا وكيفية حدوثه . ولكل فرد يطلع على هذه الدلائل أن يرى لنفسه هل هي كافية لاقتناعه ام لا .

استطاع العلم أن يقيم لنا أدلة تقنعنا بأن الانواع العديدة التي تملأ الدنيا إنما هي تنوعات حياة عامة وتركب عناصر أولية واحدة تمتد في سلسلة تطورات يغيب أولها وراء الطيات الجيولوجية . وكل ذلك ، طبعاً ، لا يسجله العلم تسجيل شاهد عيان ، بل يتوصل اليه بالمقارنة والمقابلة ودرس خواص الكائنات الحية والجماد ، كما يتوصل رجال القضاء إلى تتبع أثر المجرم ومعرفة من الادلة والشبهات المتجمعة لديهم ، حتى أنه مهما أصر المجرم على الانكار يظل القضاء يأتيه بادلة وشواهد حتى يفحمه فيعترف بجريمته ولبس عليها شاهد عيان .

وصحيح ان العلم لما يتوفق إلى تعيين كيفية حدوث كل نوع بصورة قطعية، وعلى الخصوص كيفية حدوث النوع البشري ، هل كان باشتقاق أب واحد او جماعة آباء او جماعات نوع واحد . وكذلك لما يتوفق إلى تعيين المكان الذي نشأ فيه النوع البشري بالضبط ، وان كان جمهور العلماء يرجحون نشوءه في اواسط آسيا . ولكن ذلك لا يعني ان العلم لم يتوصل إلى كشف القناع عن سر تنوع الكائنات، بل ان ما لديه من الحقائق والادلة البيولوجية والانتروبولوجية والكياوية والجيولوجية الخ . يجعل العقل يدرك بالمنطق والشواهد ترابط الكائنات في سلسلة تطور الحياة . بل ان التطور قد قام عليه الدليل والبرهان الجزئي فلبعض النباتات استعداد غريب للتطور والانسان نفسه قد تطور بعد نشوئه ، فبين الانسان العصري والانسان الهيدلبرغي او النيندرتالي شوط من التطور لا يستهان به .



أما ان الانسان نشأ بالتطور فما لا جدال فيه وأما كيفية حدوث التطور ، أ كان بتجمع تغيرات بطيئة تحت تأثير البيئة المتطورة أم بالتغير الفجائي استعداداً للدخول في بيئة جديدة فما لم يتفق عليه العلماء لحاجتهم الى استكمال اختباراتهم . وقد كانت النظرية الاولى القائلة بالتغير البطيء وفاقاً للانتخاب هي السائدة . ولكن نقرأ من العلماء الحديثين يعتقدون بسبق التطور لموافقة البيئة وبحدوثه دفعة واحدة¹

الفصل الثاني

السلول البشرية

مدلول السلالة . إذا وضعت تحت البحث قبيلة من القبائل أو شعباً من الشعوب وأخذت تعود القهقري بانسابه حتى تردها إلى أب واحد ، ثم ترد هذا الأب إلى عائلة متفرعة من أبناء نوح ، وتستمر في ذلك حتى تبلغ إلى آدم ، وقسمت بعد ذلك الاقوام البشرية على هذه القاعدة إلى فروع آدم وهمي وقلت ان معنى السلالة مشتق من هذا التقسيم فانك قد اختلط عليك علم السلائل وعلم الانساب ، فلا تميز بين الواحد والآخر .

بيد انه على مثل هذا جرى الاوائل في العصور المتقدمة الاولى فكان النسب عندهم أصل الاجناس وتعليل حدوثها ، لان ما استندوا اليه في معرفة ذلك كان حكاية الخلق الخيالية التي تنوعت رواياتها في متعدد الاديان . ومن غريب هذه الروايات ما نقله المسعودي ¹ مستنداً إلى « ما جاءت به الشريعة ورواه الخلف عن السلف والباقي عن الماضي » ، وهو أن السبب في اختلاف الوان البشر يعود إلى أن ملك الموت الذي أرسله الله أخيراً ليأتيه بطين من الارض يخلق منه آدم أناه بتربة سوداء وحمراء وبيضاء فلذلك اختلفت الوان ذريته . وعلى هذا لا يكون البشر إلا ذرية تربطها الانساب وبدهي أن مثل هذا القول لا يوصلنا إلى حقيقة مدلول السلالة أو ماهيتها .

إذا تركنا وجهة التخمين والتقدير التخييلية في الفوارق الظاهرة في جماعات النوع البشري وبحثنا عن مدلول كلمة « السلالة » العلمي وجدنا أن هذه اللفظة هي من مصطلحات العلم الطبيعي . والغرض منها تقسيم النوع الواحد

إلى فروع (أجناس) تتوارث صفاتها ومزاياها الخاصة ¹ ، أما النوع فيقصد منه تحديد الكائنات الحية التي ينتج تزاوجها نتاجاً ناجحاً يكون له ذات المقدرة بلا حدود ² . فالأجناس تقبل الاختلاط والتزاوج والانتاج ويمتنع ذلك في الأنواع إلا شذوذاً نادراً .

معتقدات السلالة . ليس بين جميع العقائد البشرية عقيدة غير الذين لعبت دوراً خطيراً في السيطرة على عواطف الأقسام كعقيدة السلالة فقد كانت السلالة مقرونة بالنسب ومرادفة للفوز والمجد والارستقراطية ولذلك كانت سبباً للفخر والمباهاة والعجرفة .

وكما أن العرب أولعوا بالافتخار بالانساب وهجو بعضهم بعضاً بالقدح في القبائل المختلفة التي ينتسب إليها المهاجرون ، كذلك كانت شعوب أخرى كثيرة تجري على مثل ذلك في أوائل عهودها . ففي القرون الوسطى كان الأشراف يعدون أنفسهم من دم أفضل من دم العامة المحقرة منهم . وكان المظنون أن الفلاحين هم من نسل حام الذي قيل أن نوحاً دعا عليه بالعبودية . وكانت طبقات الفرسان في أقاليم مختلفة تعتقد أنها متحدرة من أبطال طروادة الذين قيل أنهم قطنوا انقلترا وفرنسا والمانيا بعد سقوط تلك المدينة العظيمة . وفي فرنسا موطن الفرنك ، كان هؤلاء يردون بالتسلسل إلى فرنسيون ، أحد أبناء هكتور ³ . ويقال في الحقيقة أن نقولا فريره (Nicholas Freret) سجن في الباستيل سنة 1714 لأنه خطأ هذه النظرية !

وفي سنة 1749 حاول استاذ الماني في روسيا اسمه ملر أن يثبت أن الروسيين هم من سلالة فنية - تترية . فأمرت الامبراطورة اليصابات بالقبض عليه وسجنه في الحال وأن يجلد ناموس المجمع العلمي ، تردبا كوفسكي ، الذي قال أن ملر على صواب . وقد أجبر ملر على تكذيب نفسه ⁴ .

شغفت أقوام كثيرة بحب « السلالة » وعدها مصدر جميع الخلال والمناقب

1 هرتس ، ص 20 2 أيضا ، ص 20 3 أيضا ص 5 - انظر أيضا جوانيه ص 42

4 هرتس ص 18

الحميدة ، بشرط ان تكون نقيصة خالصة . وهكذا نشأ افراد وجماعات تتشبهت
بنقاوة سلالاتها وكل فرد او جماعة تدعي ان سلالتها أفضل السلالات واکرمها
عنصرآ . ولم يسلم مثل هذا الادعاء من الغلو البعيد فقیل ان جميع السلالات الاخرى
منحطة من الاصل ولا تستطيع كل قوى التمدن والتربية ان ترفعها الى مستوى
السلالة الفضلى ، وان الشيء الوحيد الذي يرفعها هو امتزاجها بهذه السلالة ،
ولكن هذا الامتزاج امر غير مرغوب فيه لانه يؤدي الى انحطاط هذه السلالة
الكریمة على نسبة ارتفاع السلالة ، او السلالات الاخرى . ومن أغرب معتقدات
السلالة ما أدى الى الادعاء أن البشر مفطورون على الشعور بالسلالة ولذلك يجب
رفض كل محاولة من شأنها اضعاف او ابطال النزاع الطبيعي¹

عقبة السلالة في فرنسا وبلجيا . اندغم حب السلالة ، في تلك الازمنة
القليلة العلم بالعصبية القومية الغامضة . وليس ذلك غريباً بالنظر الى تأخر ذلك
العصر ، ولكن الغريب أن هذا الاندغام استمر الى عصرنا الحاضر . ففي فرنسا
مثلا ، التي ظهرت فيها الى الوجود نظريات سلالية غريبة تعددت واختلفت بمقدار
تعددتها ، ظل الاعتقاد بالسلالة القومية وسيلة للاستغلال حتى في الكتب العلمية .
فان بين الذين عللوا اسباب الحرب بين فرنسا والمانيا عدداً من السياسيين والعلماء
البارزين قالوا بان النزاع إنما هو خصومة طبيعية بين السلالة الجلالية او
اللاتينية العالية والسلالة الجرمانية الوضيعة . وان بين الكتب المدرسية
الموضوعة بعد الحرب الكبرى كتاباً ألفه طالمان بنفسية الاحداث بلجيان ،
أحدهما مرکه (Mirquet) وهو رئيس مدرسة والآخر برغميني (Pergameni)
وهو استاذ جامعة تجد فيه : « يظهر ان الحرب قد برهنت على ان للامان جميعا
ميلا الى الشر ناشئاً عن غرائز سلالية شاذة ، كاستعمال القوة العضلية ، الخبث
الفطري ، القسوة وغريزة السرقة والسلب والقتل ، انكار الجميل مهما كان
شريفاً ، نسيان المعروف ، عصبية طائشة مسببة عن حسد الم الاخرى
وكرهم لها ، طمع متوارث غير طبيعي في الوصول الى التفوق العالمي ، خلو

تام من كرم الاخلاق ، العجز عن تقدير بطولة اضدادهم وانكارهم انفسهم . فانهم قد جاؤوا ببرهان قاطع على ان من خلال سلالتهم الرياء والعبودية والمكر ، وان من غرائزهم التي لا سبيل الى كبح جماحها القسوة والشر ، وانه ليس لهم غرائز انسانية ، لا فكرة عن الحق والعدل ولا فهم للشرف ولا شعور بالفكاهة ¹ وقد حاز هذا الكتاب سنة 1920 جائزة من المجمع العلمي البلجي الملوكي !

عقيدة السلالة في انجلترا . لم تتخذ عقيدة السلالة في انجلترا صفة العصبية الجنونية التي اتخذتها في بلدان اوربية اخرى . ومع ذلك فان الاعتقاد بتفوق « السلالة الانقلاوسكسونية » كان منتشرأ جداً فيها ، وقد اتخذ من هذا الاعتقاد حجة لتأييد امتياز العنصر الانقليزي الانقلاوسكسوني على العنصر الارلندي الكلتي . ومع ان الانقليز لا يتطرفون كثيراً في الاعتداد بالسلالة ، ولعل ذلك عائد الى خبرتهم الاستعمارية الطويلة ، فانهم لا يخلون من الاعتقاد بمزايا سلالتهم الممتازة . وهم شديداً التحفظ من الاختلاط والامتزاج مع اقوام من سلالات اخرى .

عقيدة السلالة في المانيا . أدت النهضة الالمانية القومية في اصيل القرن التاسع عشر الى تعاظم الفخر بالسلالة واخذت دوائر متنفذة عديدة تنظر الى الشعوب اللاتينية والكلتية والصقلية حولها بعين الازدراء . ولم تقف المسألة عند هذا الحد ، بل تعدته الى الاعتقاد بان اشراف المانيا فقط هم من السلالة الآرية النبيلة أما الشعب فكان من سلالة سابقة الآرية ، فكان مكتوباً للشعب الخضوع ومقدراً للاشراف السيادة . وسرى الاعتقاد بان هذه السلالة الكريمة العنصر هي السلالة المعدة لسيادة العالم ، وعلى هذا الاعتقاد بني كثير من نظريات الجامعة الجرمانية ² . ومن ادلة العناية بالاعتقاد بالسلالة حتى في الدوائر المسؤولة في الشؤون السياسية الخطيرة ما صرح به المستشار الالمانى الشهير بتمن هلو ، بمناسبة اجازة قانون الجيش الالمانى في 7 نيسان 1913 ، قائلاً ان هنالك خطر

اصطدام بين الصقالبة والجرمانيين ولذلك يضطر هؤلاء الى زيادة سلاحهم .
ولم يذهب هذا القول بدون نتائج خطيرة بين صقالبة النمسا والمجر .

عقائد السلالة عموماً . انتشرت عقائد السلالة عند جميع الامم الحية تقريباً ، فلم يسلم منها شعب من الشعوب إلا فيما ندر . ففي الولايات المتحدة اتخذت بعض العقائد والنظريات لتأييد مالكي العبيد . فقال هؤلاء ان السواد في العبيد إنما هو علامة قايين الذي لعنه الله ¹ . وشبيه بهذه النظرية ماتوهمه بعض النسابين العرب أن السوادان هم ولد حام بن نوح ، اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه ² . ومع أن عقيدة السلالة في الولايات المتحدة كانت أظهر ما يكون بين البيض والسود فإنها لم تقتصر على هذه الوجهة ، بل تناولت بغض الاسيويين عموماً والصينيين واليابانيين خصوصاً . ويظهر ان التحامل على السلالات يجد دائماً تربة جيدة في اميركا ³ . وهكذا نرى بعض الاميركان يعدون السوريين والاغريق سلالات منحطة ، ففي حملة انتخابية جرت في برمنهام ، الاباما ، ربيع سنة 1926 وزعت نشرة جاء فيها :

لكوروز

صوت ل ج . د . غص

« مرشح الرجل الابيض »

« لقد جردوا الزنجي ، الذي هو اميركاني الرعوية ، من حق التصويت في
الاولية البيضاء . فيجب ان يجرد الاغريقي والسوري ايضا من هذا الحق . اني
لا أريد صوتهما فاذا كان انتخابي لا يمكن أن يتم على يد الرجال البيض فلا
أريد الوظيفة » ⁴

واذا اخذت بلاداً جديدة كالبرازيل جمعت من الزنوج وكرام الشعوب

1 مرتس 12 2 ابن خلدون ص 83 3 مرتس 12 4 فليب ستي ، ص 84

الاوربية والاسيوية وحنالها وجدت لعقائد السلالة المبنية على الوهم جذوراً ذاهبة في القلوب¹

وأخذ العرب نصيباً كبيراً من تعليق أهمية عظمى على اوهام السلالة فافتخروا كثيراً « بطيب عنصرهم » وظنوا الاجانب ادنى منهم فسموهم « علوجا » وغير ذلك من الاسماء واثّر الدين عندهم كثيراً على اوهام السلالة ، كما اثر على اليهود من قبلهم ، ووصلوا انساب عدنان باسماعيل بن هاجر بن ابراهيم . أما اليهود فقد زعموا أنهم سلالة ابراهيم اتخذهم الله شعباً له مفضلاً على باقي الشعوب والله عندهم هو « إله اسرائيل » .

عقائد ونظريات في السلالة . اشتبكت عقائد السلالة المبنية بالاكثر على الوهم بالنظريات الابتدائية التي قصد منها إدراك كنه السلالة وفهم خصائصها . ومن هذه النظريات ما وجد تأييداً في مذهب أرسطو في العبودية ، إذ هو يبررها على الوجه التالي : أولاً : ان الطبيعة نفسها قد أعدت بعض الناس ليحكموا وآخرين ليخدموا إذ هي تهب للاول مقدرات عالية وللآخرين قوة الحيوانات . فان حق السيد في العبد كحق الانسان في الحيوان . ويمكن رد الحجة المناقبية ضد مثل هذا الموقف بالاتيان بالنقطة الثانية وهي : ثانياً : إن هذه العلاقة هي في مصلحة المسيطر عليهم ، إذ هم ، لفقدهم القوى العاقلة ، يحتاجون الى إرشاد سادتهم ، ثالثاً : ان الشعب المتغلب هو دائماً أرقى بجميع المزايا الجيدة²

وقد رأينا فيما مر من هذا الفصل كيفية انتشار عقائد السلالة في مختلف الشعوب . بقي أن نأتي هنا بلمحة صغيرة عن النظريات التي تقلبت على السلالة في اوربا ، خصوصاً في فرنسا التي اختلفت فيها النظريات وتضاربت بقدر تقلب ظروفها السياسية . ومن هذه النظريات ما قال به بودان (Bodin) معللاً أصل القرنك من أنهم قوم من الجلالقة ارتحلوا الى المانيا ثم عادوا ليحرروا اخوانهم

1 اخذ مثلاً قول جوان رييرو عن الفينيقيين بناء قرطاجنة « ان الشعب (شعب قرطاجنة) وهو من سلالة اسبوية ، سامية ، كان احط في المدينة من الرومانيين المثقفين في جوار الاغريق الذين اخنوا ضمهم الفنون والثقافة الخ » ص 113 2 هرتس ص 4

من نير رومة . فخطيت هذه النظرية بالرضى في عهد لويس الرابع عشر ، لأنها تجعل الفرنسيين امة خالصة النسب وتؤيد الرغبة في الحاق الرين بفرنسا وهو ما كان هذا الملك يطلبه مدعياً ان الرين جزء من مملكة الفرنك القديمة ¹ . ولكن ليبنتز الرياضي الالماني المشهور نقض هذه النظرية وبرهن على أن الفرنك من أصل جرمانى . فحلت محلها نظرية الكنط دي بولانفيير (Comte de Boulanvilleirs) القائلة ان في فرنسا سلاتين ، سلالة النبلاء المتحدرة من الجرمان الفاتحين وسلالة العامة المتحدرة من الكلتيين والرومان المخضعين ² . وهنا نرى أن نظرية أرسطو صارت نظرية سلالية فأهل المواهب العليا هم اهل المراكز العليا وهم سلالة قائمة بنفسها . ثم نشأت نظرية منلوزيه (Montlosier) القائلة ان في فرنسا « شعبين » متحدرين من السلالات الرئيسية الثلاث ، إلا ان الواحد من الاحرار والآخر من العبيد .

نظرية العقيدة الارية . من جميع هذه النظريات لم تنشأ نظرية واحدة لعبت الدور الذي قامت به نظرية الآرية التي قال بها الكنط غوبنو (Gobineau) وجمع فيها نظريتي مولانفيير ومنلوزيه . فبين سنة 1851 و 1855 أتم غوبنو وضع نظريته واستخرج فيها من النظرية الاقطاعية المشار اليها آنفا نظرية سلالية عامة تجعل الجرمانى او الارى العادي في عداد طبقة الارستقراطية « السلالية » وقيمة الشخص ومركزه يتوقفان على مقدار ما في عروقه من الدم الآرى ³ ومع أن غوبنو فرنسى فان نظريته لم تصادف النجاح التام في فرنسا ولعل السبب في ذلك يعود الى كرهه الفرنسيين لاعتبار مزايهم مستمدة من السلالة الجرمانية إذ في ذلك اقرار بتفوق الالمان المبغضين ولكنها انتشرت كثيراً في المانيا ووقعت من نفس القائلين بالجامعة الجرمانية موقعاً حسناً . ولم يطل الامر حتى أخذ اسم تشمبرلن الانكليزي يذيع ففاق غوبنو . وهو اكثر من أشاد بذكر التوتونيين اندفاعاً وفيه قال غليوم الثانى . « ان اول من أعلن مجد التوتونيين واشاد بذكره لالمانيا الذاهلة هو تشمبرلن في كتابه ، أسس القرن

التاسع عشر¹ ولكن ذلك كله كان عبثاً كما برهن عليه سقوط الشعب الألماني²

ولا بد لنا هنا من الإشارة إلى أن القوة التي اكتسبتها نظرية « السلالة الآرية » استمدتها هذه النظرية من الأدلة اللغوية الخداعة . فقد أدى اكتشاف قرابة اللغات الآرية إلى استنتاج أن دليل اشتقاق هذه اللغات من لغة أم في الأصل يدل أيضاً على تسلسل الاقوام التي تتكلم هذه اللغات من أصل سلافي واحد . واللغة كانت عند القائلين بالسلالة الآرية أهم البراهين التي استندوا إليها، كما كانت اللغات السامية من أهم البراهين التي استند إليها القائلون « بالسلالة السامية ». ولا يخفى وهن الاستناد إلى مثل هذا الدليل ، فتكلم عدد من الاقوام لغات مشتقة من أساليب لغوية متوحدة قد يفيد أن هذه الاقوام كانت في بعض الأزمنة الغابرة متقاربة في الاجتماع أو أن « أصولها » كانت تعيش معاً ، ولكنها لا تعني أبداً وجوب كون هذه الاقوام مشتقة من أصل واحد أو نشأة سلالة واحدة .

النظريات العلمية المعاصرة . إذا تركنا المعتقدات السلافية والنظريات المبنية عليها جانباً وعمدنا إلى الوجهة العلمية من الموضوع وجدنا السلالات البشرية خاضعة لعلمين رئيسيين يتناولانها بالدرس في دوائر اختصاصية ، هما الانتولوجية ، أو علم الاقوام أو السلالات البشرية³ والانتربولوجية أو علم

1 Chamberlain, Foundations of the Nineteenth Century

2 مرتس ص 10

3 اختلفت مذاهب العلماء في تحديد نطاق هذا العلم الحديث فذهب بعضهم إلى جعل الاقوام أو السلالات البشرية كلها ضمن دائرته ، وذهب آخرون إلى وجوب تخصيص هذا العلم بدراسة حياة الإنسان خارج حيز المادية الآسيوية الأوربية (انظر شمت ص 16 - 18) وقد قال شينثال (Steinthal) معرفاً لهذا العلم : « أن الانتولوجية هي قولك بالفلسفة والتاريخ كانت دراسة حياة السلالات التي لا تاريخ لها » (أيضاً ص 18) (راتزل) (Ratzel) فيقول أن مهمة الانتولوجية هي « دراسة حياة النوع الإنساني في جميع مظاهرها » (أيضاً نفس المكان) ويقول أدوار ماير « أن علم مقابلة الانتولوجية يبحث في أحوال وانظمة الجماعات التي نجري ضمن دائرتها شؤون الحياة بنظر ياتها وعاداتها وتقاليدها متبعا إياها إلى أقدم أشكالها » ج 1 قسم 1 ص

الانسان¹ . ومن هذين العلمين يهمننا في الدرجة الاولى ، تعيين تقسيم السلالات البشرية من الوجهة الطبيعية الفزيائية ، وهو من خصائص علم الانتربولوجية الحديث او الانتربولوجية الفزيائية (انظر هامش الصفحة السابقة) .

الفوارق السلالية . عرفنا في بداية هذا الفصل (انظر ص 25-26) المقصود من لفظة « سلالة » ولفظة « نوع » بالمعنى العلمي ، وبناء عليه نقول ان البشر جميعهم يؤلفون نوعاً واحداً بالمعنى الطبيعي الحيواني (الزولوجي) ولكنهم يتقسمون الى سلالات متعددة تتوارث كل واحدة منها صفاتها ومزايها الخاصة . وما ندخل هنا في أي بحث يتناول تعليل حدوث هذا التقسيم التنوعي لسببين : اولهما انه ليس غرض هذا الكتاب التحقيق في هذا الموضوع المستقل ، والثاني ان آراء العلماء وأدلتهم ليست متفقة بهذا الصدد فيكون الخوض فيه خطراً . ولكنه لا بد لنا في سياق هذا البحث ، من أن نعرض لبعض النظريات العلمية في ذلك ، من باب التوسع الذي لا يدخلنا في خطر اصدار احكام عامة جازمة .

ونبدأ هنا بالقول ان معرفة السلالة وتمييزها عن سلالة اخرى ينتجاذ عن فوارق واضحة ثابتة لا يمكن اغفالها ومن هذه الفوارق الاولى اللون ، ولعله اول الفوارق السلالية التي تنبه لها البشر فترى حكاية المسعودي المذكورة آنفاً (ص 25) توزع البشر الوانا . وحدثت في عصور متأخرة محاولة لجعل البشر ثلاثة اقسام : سلالات « النهار » وسلالات « الليل » وبينهما سلالات « الغسق » (Daemmerungs-Menschen) ،² وحتى الآن لا يزال الناس ومنهم فريق كبير من الكتاب يقولون : الجنس الابيض والجنس الاسود والجنس الاصفر .

¹ قد وردت هذه اللفظة لعدة معانٍ متنوعة متقاربة ، فيينا ماير (ايضاً نفس المكان) يعرف هذا العلم بأنه « علم الاشكال العامة للحياة الانسانية والتطور الانساني » نجد بعض الكتاب يقصره على الوجهة الفزيائية من درس النوع الانساني وهذا هو المعنى المفهوم من استعمال هذه اللفظة في اوروبا القارة وخصوصاً في المانيا بينا معناها في انجلترا او اميركا الشمالية يشمل المعنى الاول اي متاولاً ما هو من خصائص علم الانتلوجية ايضاً (انظر شمت ص 15)

² فن لوشان Papers ص 14

ومع أن لون البشرة هو من الفوارق الظاهرة بين الجماعات البشرية فهو ليس فارقاً سلبياً أصلياً، بل مكتسباً من تأثير البيئة الطبيعية¹ وقد تنبه لذلك أرسطو وعلى هذا عول ابن خلدون² وكان قد سبقه إلى ذلك ابن سينا. فليس اللون إلا صبغة والبياض نقص الصبغة³ وقد ظهر بالبحث والدرس أن البيض ليسوا سلالة واحدة لأنهم جماعات مختلفة الأشكال متباينة القامات وكذلك السود والصفر والحر الخ. وبناء عليه لا يعتمد الأنثروبولوجيون العصريون، في تقسيم النوع الانساني، على ظاهرة واحدة فقط، بل على عدة صفات فيزيائية أولها وأهمها مساحة الجمجمة وحجمها وقد اعتمد هدن⁴ في ذلك على فوارق الشعر ولون البشرة والقامة وشكل الرأس وأوصاف الوجه والأنف والعينين. وعلى ما يشبه ذلك جرى غريفت تايلر⁵ في تقسيمه ووصفه الجماعات البشرية إلا أنه يعتمد على الدليل الرأسي أولاً للتقسيم الرئيسي في حين أن هدن يأخذ الشعر مقياساً أولاً⁶ وجمهور علماء الأنثروبولوجيا، يعتمدون الدليل الرأسي فارقاً ثابتاً في السلالات.

نشوء السلائل وعمرها. عرفنا في الفصل الأول أن الجنس البشري نشأ بالتطور ولكن كيفية حدوث ذلك لا تزال غامضة. وحتى الآن لم يمكن تعيين المكان أو الامكنة التي نشأ فيها الانسان ولكن يرجح ميل فريق العلماء القائل بأن أواسط آسيا هي مهد البشرية⁷. وقد اختلف العلماء في تعيين عدد السلالات⁸ ولعل ذلك عائد إلى اعتماد بعض أدلة أكثر من البعض الآخر. والامانة لفرض

1 فن لوشان Papers ص 14 المقدمة ص 84 3 انظر « المجلة » (بيروت ج 8 ع 2)

الاشقرار والاغراب وفن لوشان في بحثه المذكور انفا وغريفت تايلر ص 34

4 خصوصاً ص 5 5 وفي ص 42 - 43 من كتابه نرى قائمة بإسماء بعض العلماء وطرائق تقسيمهم السلائل البشرية 6 هدن ص 15 وما يليها 7 على هذا البدا اعتمد غريفت تايلر (خصوصاً ص 5) في وضع نظريته القائلة بتقسيم السلائل البشرية إلى مناطق اقليمية ابعدها عن أواسط آسيا اشدها ناعراً أو اقلها تطوراً وهذا، طبعاً، يتعلق بالسلالات الاولى فقط.

8 هرتس ص 20 يعطي امثلة مما ذهب اليه بعض العلماء بهذا الصدد.

هذا الكتاب تقضي ألا نتوسع في هذا البحث أكثر مما يجب ، ولذلك يحسن بنا للتوفيق بين غرض الكتاب وهذا الموضوع ان نقسم السلالات البشرية إلى قسمين : اولي (Primitive) ومرتق وهذه الاخيرة هي شعوب آسيا واوربا اصلا . وهذه الشعوب مقسمة بحسب أدلتها الرأسية الى ثلاث سلالات رئيسية هي : السلالة الغربية (Westic) او سلالة البحر المتوسط ¹ ، والسلالة الشمالية (Nordic) والسلالة الشرقية (Ostic) او الالبية والاولى هي ذات الدليل الرأسي المستطيل 72 - 75 ، والثانية ذات الدليل المتوسط 75 - 79 ، والثالثة ذات الدليل المريض المفلطح فوق 85 ² وهذه السلالات جميعها من السلالات البيضاء القوقاسية ³

السلائل والعقليات . إن السلالات أمر فيزيائي واقع والادلة على وجوده متوفرة . ومما لا شك فيه أن هنالك فوارق بين السلالات في الارتقاء والتمدن والاستعداد لها عند السلائل الاولى ، فالثابت أن بعض السلالات التي ضربت في الاودية الخصبه كوادى النيل ووادى الفرات ووادي هوانهو او الاراضي الخصبه كسوريا انشأت ، بما كان لها من الاستعداد ، مدنيات رفيعة في حين أن سلالات اخرى نزلت اودية اميركا الخصبه ولكنها لم تستفد منها شيئا ولم تنشئ مدنية تستحق الذكر ⁴ . وقد يكون ذلك نظراً لعدم اكتمال تطورها . ويستثنى

- 1 هرتس ص 174 وما يليها . وتالمر (ص 1) يقول باشتراك « المفلطح » مع الالبين .
- 2 هذن (25 و 27 و 28) والدليل الراسي هو نسبة عرض الراس او الجمجمة الى الطول .
- 3 علت مما تقدم ان اللون ليس فارقا سلالياً اصلياً ولذلك لا يوجد فواصل حقيقية بين البيض وغيرهم الا الفواصل الاقليمية ففي السلالة الالبية مثلا (نسبة الى جبال الالب) ، اي سلالة المفلطحي القوقاس يدخل المفلطح كما رايت فوق .
- 4 ماير ، المقدمة ص 65 . ونعلم ان بعض قبائل هنود اميركا الشمالية ادركت وجوب الاعتناء بالزراعة فكانت تاتي بحب الارز وتزرعه في المستنقعات ولكنها لم تحاول قط تربية الدابة بالزرع فليس هنالك زراعة او فلاحه بالمعنى الذي نفهمه في مدنيتنا (انظر شمت ص 170) وقبائل الكبيرى على ضفة الشنغو الاعلى في اميركا الجنوبية تعتمد الى انلاف الغابات الكثيفة لاستعمال ارضها الخصبه وتكابد في ذلك مشقة عظيمة ولكنها تكفي من الحرادة بفتح خرق او شق في الارض ليدول الحبة وتستعمل لذلك عصا خاصة محددة في اسفلها (ايضاً ص 12)

من ذلك طبعاً بلاد المكسيك حيث اكتشفت بقايا مدنية من نوع راق .
 وإذا تركنا السلالات الابتدائية وعمدنا الى السلالات الواقعة ضمن نطاق
 المدنية الاسيوية - الاوربية وجدنا انها كلها قد برهنت عن توفر مزايا الارتقاء
 فيها . ومع ذلك فيمكننا أن نجد في كل منها ما سماه لازرس (Lazarus)
 وشتينطال النفسية السلاية¹ وهذا قسم من الدروس الانتلوجية - النفسية
 لا يقصد منه درس الظواهر النفسية في مختلف السلالات ، أي درس الفوارق
 العقلية من وجهة نظر السلالة ، بل درس النفسية السلاية كما هي تمييزاً لها عن
 النفسية الفردية . وبديهي أن لكل فرد نفسية او عقلية خاصة مستقلة ولكن ذلك
 لا يعني انها اساس للمقابلة والتفضيل السلايين وللسلالات عقليات مستقلة
 موجودة فعلاً ولكن يجب ألا يتخذ ذلك حجة للتمسك بعقائد تفاضل السلالات
 المتمدنة تفاضلاً اساسياً جوهرياً كما رأينا فيما تقدم من هذا الفصل (ص 26) .
 أجل ، يجب ألا يستنتج من المميزات النفسية او العقلية ان هنالك مواهب
 عقلية سلاية خاصة مكتسبة من الشكل السلاي ومقتصرة على السلالة ومتوارثة
 فيها ، لان الواقع قد برهن على غير ذلك . فحيث امتزجت السلالات قديماً ، كانت
 المدنية أرقى . وان أسيرطه كانت تمنع الاختلاط مع الاجانب محافظة على نقاوة
 دمها ولكنها كانت في المدنية دون اثينا ، التي كثر فيها الاختلاط الدموي ،
 بمراحل : وان ارسطو طاليس كان يعد المكدونيين المحافظين برابرة .
 والاسكندر نفسه كان يرى انه يمكن ان يحسب الهلينيون انصاف آلهة بالنسبة
 إلى رجاله المكدونيين²

وان الادلة على عدم صحة القول بتفوق احدى السلالات الراقية في المواهب
 العقلية على الاخرى لمتوفرة . فإذا أخذنا الوجهة الفردية ودرسنا تسلسل بعض
 النوابع وجدنا ان لا عبرة بنقاوة السلالة . فالشاعر الكبير اسكندر بوشكين
 المبدع في الادب الروسي القومي كان ذا عرق زنجي ، فقد كان ابطرس الاكبر
 قائد زنجي رفعت درجته ذكائه الى مرتبة مهندس المدفعية العام وصيرته ذا املاك

واسعة وتزوج سيدة روسية من الاشراف ، وحفيد هذا الزنجي هو بوشكين أعظم شعراء روسيا .¹ والكاتبان الفرنسيان الشهيران دوماس الاب والابن كانا ذا عرق زنجي .²

ان نظرية ضرورة نقاوة السلالة شرطاً للارتقاء العقلي وانشاء المدينيات واطراد التقدم قد اصبحت واهية جداً ، إذا لم نقل فاسدة بالمرة ، تجاه المعلومات العلمية الحديثة ، خصوصاً ما تعلق منها بالمدينيات الاولى ، فمدينة بابل التي يعدها العلماء او جمهورهم ، اولى المدينيات التي أثرت على سير التمدن العام نحو الارتقاء لم تكن عمل سلالة واحدة او قوم اصفياء ، كما كانت الظن القديم ، بل نتيجة احتكاك واختلاط الشمرين بالساميين .³

تغير السمات . علمنا أن الانسان نشأ بالتطور . فهو لم يظهر « انساناً تاماً » دفعة واحدة ، والمرجح ان ارتقاءه حدث من درجة الشبنزي الى درجة الانسان الحقيقي (Homo Sapiens) . والتطور او التنوع التطوري هو التعليل الأرجح لحدوث السلالات . وقد ذهب بعض العلماء الى ان بعض السلالات نشأ بامتزاج سلالتين . وبعضهم يعتقد بتحول التركيب البشري حسب مقتضيات البيئة الطبيعية والبعض الآخر يقول باستحالة تغير السلالة بعامل البيئة . والذي نرجحه ان السلالات البشرية هي عدة تطورات او سلسلة تطورات حدثت في ظروف وبيئات تطورية ، أي قبل استقرار البيئة الطبيعية على حالتها المعروفة الآن ، وقبل ان يكون الارتقاء قد مكن الانسان من التحوط ضد اختلاف البيئات . فإذا كان الامر كذلك ، وهو ما نرجحه ، فقد توافقت نظرية القائلين بنخسوع السلالة للبيئة والقائلين باستقلال السلالة عن البيئة . فالسلالات الحالية لا تتغير (تغيراً سلالياً) بانتقالها من الجبال الى السهول او بالعكس ، لان تأثير البيئة ليس قوياً في ظروف الاستقرار الحالي ولتوفر وسائل التحوط . ولكن اذا حدثت تغيرات جيولوجية وفلكية قوية فقد تضطر الاحياء والسلالات البشرية الى التطور او الانقراض .

واما تحول السلالات بالامتزاج فليس ثابتاً ولا دليل عليه الا في حالة امتزاج ذوي الرؤوس المفلطحة مع غيرهم فيسود التفلطح¹ . ويظهر من ابحاث بواس (Boas) في سكان ايطاليا ان امتزاج السلالات لا يظهر ميلا الى انتاج سلالة معتدلة جديدة . ففي ايطاليا يظهر شكلان للرأس بتنوعات معتدلة ولكن بمعدلات مختلفة ، اذ يظهر في الجنوب معدل دليل وضيع ، وفي الشمال يظهر معدل دليل رفيع . وبناء على ذلك يقول بواس :

« ان امكانيات تنوع هذين الشكلين تسبب مانراه في وسط ايطاليا من أقيسة وضبعة جداً تنتمي الى الشكل الشمالي ، حتى ان كل المنطقة تحتوي على مجال واسع للتباين ظاهر في امكانية تنوع من درجة عالية . فاذا كان يجب حدوث شكل عام قياسي من الامتزاج فيجب اذاً أن نتنظر مجالا اقل للتنوع » ويتفق هذا القول مع اختبارات فن لوشان في تركيا الدالة على ان في الامتزاج السلالي ميلا خاصا الى العودة الى اشكال الاصول ، لا الى تشكيل شكل متوسط²

1 انظر كيرس ، الكراس عدد 4 ص 13 (انظر مجموعات دروس المدرسة الطبية في الجامعة

الاميركانية Collected Studies ص 128)

2 نقل ذلك كيرس وقال انه يتفق مع ما وصل اليه في نسل خليط من الصغديم والاشكناريين

اليهود ايضا ص 10

الفصل الثالث

الارض وجغرافيتها

اهمية الارض للحياة . لو كان بحثنا في فلسفة العلم الطبيعي لكان من حق هذا الفصل ان يتقدم جميع فصول هذا الكتاب لان التعليل العلمي يقرر او يرجح، اسبقية الارض على الحياة . فانا لا يمكننا أن نتصور تصوراً أشبه باليقين حياة شبيهة بحياتنا وكائنات حية شبيهة بكائناتنا الحية إلا على سيار شبيه بسيارنا . والذي لا شك فيه ان وجود الارض (الكرة الارضية من ماء ويابسة) شرط اولي لوجود الحياة التي نعرفها والبر خاصة شرط أولي لوجود ذوات الجهاز التنفسي ، أي للحيوانات البرية ، وخصوصاً ذوات الائنات . ومما يكن من شيء فانا لا نعرف الحياة إلا على الارض ولا نعرفها تقدمت إلا بتقدم الارض في الصلاح للحياة .

إذا كانت الارض شرطاً أولياً للحياة فلاشك انها اذاً شرط أولي لوجود النوع الانساني وبقائه . فليس للانسان حاجة من حاجات الحياة يستطيع سدها إلا مما هو في الارض . خذ الغذاء والماء، وهما حاجة كل حي . فمصدرها الارض وما عليها . والحياة ليست متوقفة على الغذاء والماء فقط، بل هنالك ايضاً درجة الحرارة او البرودة ومعدل الاكسجين في الهواء . ومن هذه الوجهة نرى ان الارض ، مع كونها وحدة جوية ، مقسمة بحسب طبيعتها الى أقاليم تتنوع فيها مقومات الحياة وتفاوتت ، وفي بعضها تنفني بالمرّة كما في القطبين، فالبرد فيهما يبلغ درجة لا قبل للانسان بها ، وتتعذر فيهما الحياة بجميع اشكالها .

الطبيعة والانسان . قلنا ان الارض شرط اولي للحياة عموماً . ففيها او عليها تعيش جميع الكائنات الحية التي نعرفها . ولكننا لو وقفنا عند هذا الحد من تقرير علاقة الطبيعة بالحيوان والانسان لما كان من وراء ذلك فائدة جديدة في

تقدم مدار كنا العقلية في تفهم أسباب حياة الحيوان والانسان .

تختلف علاقة الطبيعة بالنبات والحيوان عنها بالانسان . فالعلاقة الاولى علاقة مفردة او وحيدة الطرف ، فالارض تعد حاجة النبات والحيوان الحيوية ولبس لاحدهما عمل مقصود لتكييف الارض واعداد مقومات الحياة . خذ الحيوان الذي هو اقرب إلى الانسان ، فهو لا يعرف إلا سد الحاجة مباشرة او جمع الغذاء كذلك فاذا وجد في بيئة ما يسد حاجته مباشرة بقي فيها والا انتقل الى غيرها . أما علاقة الطبيعة بالانسان فهي مزدوجة . ففي الدرجة الاولى نجد ان بيئة الانسان الطبيعية هي التي تمدّه بالمواد الخام اللازمة له لارضاء شعوره بالحاجة . وهي في الدرجة الثانية مشهد اعماله وسعيه لبلوغ اربه مداورة (غير مباشرة) . ومن هذه الوجهة نرى ان امتياز الانسان على الحيوان في سد حاجته مداورة — باعداد الادوات للصيد والقتال والبناء وغير ذلك — جعل علاقته بالارض امتن من علاقة سائر الكائنات الحية بها ، اذ هو يقدر على معالجتها مباشرة فحيث لا نبات صالح لغذائه يحفر في الأرض وينقب ويزرع . وحيث بعض الحبوب والنباتات واللحوم لا تصلح لتناولها مباشرة يعمد الانسان الى معالجتها بالطبخ والشئ . فالارض تكيف الانسان وهو بدوره يرد الفعل ويكيفها . والى هذه العلاقة المتينة يعود تفوق الانسان على بقية الحيوانات في تنازع البقاء . يكيف الانسان الارض ولكن الارض تقسها تعين مدى هذا التكيف واشكاله حسب بيئاتها الاقليمية . وفي الوقت الذي يسمى هو لتكيف الارض لتوافق حاجاته الحيوية يجد نفسه مضطراً لتكيف حاجاته حسب خصائص الارض النازل فيها .

البيئة لوانساره . قلنا ان الارض مقسمة بحسب تكونها الى اقاليم

وبيئات ولكل اقليم خصائص تختلف عن خصائص الاقليم الاخر ، ولكل بيئة خصائص تتميز عن خصائص البيئة الاخرى . وهذه الخصائص هي التي تعين وجهة تقدم الانسان في سد حاجاته مداورة — أي مدنيته . بل ان البيئة هامة

لتقدم الانسان بقدر ما هي الارض عموماً هامة لحياته. ولما كانت البيئة جزءاً من الارض فهي هامة لحياة الانسان ايضاً. فمن جميع المواد التي يتطلبها الانسان لحياته لا توجد مادة واحدة تمد الطبيعة بها امداداً مستمراً في كل مكان بشكل يسد حاجة الحياة مباشرة او مداورة. وهذا ينطبق حتى على الهواء. فالمرتفعات العالية جداً كجبال الاندس في اميركا وجبال اسيا الوسطى تبلغ من العلو طبقة من الهواء يقل فيها الاكسجين عن المقدار الضروري للحياة والعمل، فالتنفس فيها صعب ومتسلقها لا يلبث ان يسقط فريسة « دوار الجبل ». ولما كان الانسان يتميز عن الحيوان بسد حاجاته مداورة، اي بالعمل بالادوات لاعداد الحوائج، فالبيئة الطبيعية من الاهمية في المكان الاول، لانها هي التي تمدّه بالمواد الخام اللازمة لصنع ادواته واعداد معداته.

البيئة والمجاعة. ان تقسم الارض الى بيئات هو السبب المباشر لتوزيع النوع البشري جماعات. فالبيئة كانت ولا تزال تحدد الجماعة، لان لكل بيئة جغرافيتها وخصائصها، كما مر بك. فلو ان الارض كانت سهلاً منبسطة في درجة واحدة من الحرارة والرطوبة، خالياً من الحدود الجغرافية من صحاري وجبال وانهار وبحار، لكان من البديهي ان يؤدي انتشار النوع البشري فيها الى انشاء جماعة واحدة كبيرة. ولكن الحدود الجغرافية الطبيعية جعلت انتشار الانسان في الارض موافقاً للبيئات الجغرافية، التي لولاها لما استطعنا تفسير ظواهر المدن والمناطق المختلفة.

تحدد البيئة الجماعة من عدة وجوه، اولها: حدود الاقليم الجغرافية. ثانياً: طبيعة الاقليم من حيث نوع تربته ومعدل درجة حرارته ورطوبته. ثالثاً: شكل الاقليم (طبغرافيته) من حيث سهوله وجباله وانهاره. فالحدود الجغرافية تضمن وحدة الجماعة، لانها تجمعها ضمنها، وتكون العامل الاول في المحافظة عليها، لانها الحصون الطبيعية في وجه غزوات الجماعات

الآخري¹ .

ونحن نرى ذلك ، لا في المجتمعات الأولية فقط ، بل في الازمنة التاريخية أيضاً . فلولا جبال الالب الفاصلة بين بلاد الجلالة (فرنسا) وإيطاليا ، لما كان اصاب جيش هاني بعل (هاني بال) اعظم نابغة حربي في كل العصور وكل الامم ، ما اصابه من التشتت والضعف حين زحف على رومة . ولولا هذه الجبال نفسها لما وجد اخوه القائد الباسل حسدرو بعل نفسه في ذلك المأزق الحرج الذي انتهى بقتله وتقرير مصير قرطاضة . وطبيعة الاقليم تميز الجماعة بما تكسيها من لون وشكل وبما تمدها به من المواد الخام لسد حاجاتها الحيوية من غذاء وكساء وبناء وادوات . فهدنية الجماعة المستقلة مستمدة من بيئتها لان الاستنباط والتكيف يجب أن يكونا ملازمين لخصائص البيئة الطبيعية ، موافقين لها . فلا يمكن ، مثلاً ، أن تكون العجلة التي كان اختراعها خطوة كبيرة في ارتقاء التمدن ، قد استنبطت في الصحراء ، لان استنباطها يقتضي وجود اخشاب صلبة كالسنديان وغيره مما لا وجود له في الصحراء . وهي لا يمكن ان تنتشر بجميع اشكالها في الصحراء ، لانها لا توافق خصائص رمالها .

وان من الامور المقررة التي قد تبدو غريبة ولكن غرايتها لا تمنع من ان تكون واقعة ، ان المادة تعين الشكل . فلما لا شك فيه ان لكل مادة خصائص من شكل وحجم وصلابة تعطي صفات معينة للابنية والادوات المصنوعة منها . ونتيجة ذلك ان المواد التي تستمد منها التزالات البشرية من بيئاتها وتستعملها في اغراضها تحمل طابع بيئاتها ، فيكون لكل بيئة موادها المتشكلة باشكل خاصة توافق طبيعتها وتزيد في خصائص مظهر بريتها كما تزيد منازل اليابان الخشبية في خصائص مظهر بريتها ، وان الذوق الصيني والياباني في البناء ،

1 يصور كيل جوليان في كتابه « تاريخ بلاد الجلالة » هذه البلاد منطقة فسيحة . . ذات حقول محروثة في الوسط ، مصونة على اهدابها بحواجز متلاحقة اما من غابات او مستنقعات » (نقله دلا بلاش ، ص 62)

الذي يطبع مدينة هذين الشعبين بطابع خاص في اشكال منازلهم ، عائد بالاكثـر الى ان اختبارهم في البناء والتزيين كان في الخشب المستخرج من اشجارهم الكثيرة. وويدال دلا بلاش يعطينا صورة من توافق الابنية الخشبية المصنوعة من مواد الشجر الدائم الاخضرار والبيئة الطبيعية في اليابان¹. اما في الاقسام الجدية من شرق سورية (بلاد الكلدان وشوشان) ووسبستان وآسيا الوسطى فالقري والمدن ايضاً قد بنيت من الطين واللبن فقط².

وهكذا نرى الجماعات البشرية قد تأثرت كل جماعة منها بمواد بيئتها وجرت على اساليب توافق طبيعة هذه البيئة ، فتنوعت اساليب الجماعات ومجاري حياتها حسب تنوع بيئاتها . وهكذا نرى ان تاريخ علاقة الجماعة بالارض ، المستمد من «الجلالي» المغروسة باصناف الفاكهة والسهول المزروعة بانواع الحبوب هو غير التاريخ المستمد من الصحراء القاحلة والاراضي الجدية .

ولشكل الاقليم تأثير عظيم في تمييز الجماعات بخصائص مادية ومعنوية . فليس المناخ وطبيعة الجو فقط العامل الوحيد في تكييف الانسان ، فالتربة وشكل الاقليم ، اشكال الاديم فضلاً عن توابط اليابسة والماء — هكذا البيئة التي تؤثر على الانسان³ فالبيئة الجغرافية المؤلفة من سهل منبسطة فسيح تكسب جماعتها تجانساً قوياً يختلف في نوعه عن تجانس اهل البيئة المؤلفة من جبال . والتجانس في هاتين البيئتين يختلف اختلافاً قوياً عن التجانس الذي اسميه «التجانس التنوعي» الناتج عن بيئة جغرافية متنوعة الاديم من سهل وجبل وساحل .

1 دلابلاش ص 239 وفي كولميا البريطانية نجد مدينتها القديمة قائمة على الخشب . فنه المنازل

والادوات جميعاً . وفي النزول او القنادق المدلول عليها بانصاب خشية امامها لا يعرف الحرف ،

فالطعام يطهى في دواعين خشية على احجار محماة (ايضاً ص 207)

2 ايضاً ص 245

3 ايضاً ص 459

وقد اشرنا في الفصل السابق « ص 33 » الى تأثير البيئة الطبيعية على لون البشرة ونزید هنا ان تأثير البيئة الطبيعية في اشكال الهيئة غير السلاية تأثير قوي جداً فقد ذكر بواس¹ ان البيئة تؤثر ، في الغالب ، على اشخاص مختلفين تأثيراً يؤدي الى اتجاه واحد بناء على ان لكل عضو « حدود سلامة » يكتيف ضمنها تبعاً لمقتضيات البيئة ، فيتخذ الهيئة التي تتطلبها عوامل البيئة دون ان يفقد خصائص وظيفته . فإذا جئنا بشخصين متباينين الى بيئة واحدة فقد يتشابهان في الاجابة العضوية على المحرضات البيئية حتى انه قد يتراءى لنا حدوث تشابه اشكال تشريحية متميزة ناتج عن البيئة ، لا عن التركيب الداخلي .

نرى مما تقدم ان البيئة تعد الفوارق الشكلية ايضاً للجماعات البشرية وان الترابط بين الجماعة والبيئة في انواع الحياة وفوارق الاشكال ومميزات العمران والاتجاه التمدني متين جداً .

البيئة وشخصية الجماعة . وان من اهم مؤثرات البيئة او الارض في تمييز الجماعات انها اهم عامل في تكوين « شخصية الجماعة » . والسبب في ذلك هو الارتباط الوثيق المولد حق الوراثة واستمرار التشابه الشكلي الذي تكلمنا عنه آنفاً . فلتتكم الان على الوجه الاول من هذا السبب .

ان تأثير امتلاك ارض او عقار في شخصية الممتلك شديد جداً ، بل ان الارض او العقار جزء من شخصيته . اذ لولاه لكانت طريقة معاشه ومرتبته ونوع حياته على غير ما تكون عليه مع هذا الجزء . واذا استمر العقار في العائلة بحكم الوراثة صار جزءاً من شخصية العائلة ، به يثبت مركزها ويحفظ مقامها ، ومن هذا نستنتج ان الملك قد يكون اهم ما في الشخص المالك ، بل اهم منه ، لان الشخص زائل والملك هو الباقي على التوارث . فإذا كان رجل يملك ارضاً زراعية ، مثلاً ، تكفيه وعائلته ، كانت شخصيته ومرتبه الاجتماعية

موقوفين على ما يملك حتى اذا زال من يديه تغيرت شخصيته ورتبته . هكذا ، مثلاً ، حدث لامراء الروس حين جردتهم الثورة البلشفية من املاكهم فخرجوا الى العالم سائعي سيارات وخدماء بعد ان كانوا أمراء . وهكذا الجماعات شخصياتها مرتبطة بالارض التي تملكها ارتباطاً وثيقاً ، بل قوام شخصياتها البيئة — الوطن .

البيئة وتاريخ الجماعة . من الحقائق المقررة علمياً وقام عليها البرهان الاختباري انه يستحيل نشوء جماعة زراعية حضرية في الصحراء . وفي حين ان الوادي الخصيب يدفع الجماعة الى الفلاحة والزرع ، فهو ليس صالحاً ، عادة ، لاقامة البدو . واذا كنا نرى في هذه الحقيقة برهاناً على اهمية الارض الاساسية في تمييز الجماعات البشرية ، فاننا نرى من الوجهة الاخرى انه لا بد للارض من جماعة مؤهلة للاستفادة منها . فحيث كانت الارض خصبة والجماعة البشرية عديمة الخبرة في الارض لم ينشأ عمران ، كما هو الواقع في اودية امير كالخصبة التي ظلت عديمة العمران الى ان جاءت امير كاقوام جديدة راقية في خبرتها بطبيعة الارض واستعدادها للاستفادة منها ¹ . ومن هذا نستنتج ان الطبيعة والجغرافية هما الطبقة الداخلية في تاريخ حياة الانسان ، فمع انهما تميزان الجماعة تمييزاً واضحاً فانها ، فيما يختص بتاريخ الجماعة ، لا تقدمان الاضطرابات الا نادراً وفي حالات استثنائية ولكنها تقدمان الامكانيات ² . ان التاريخ غير مكتوب في طبيعة الارض ، مع ان الارض هي احد الافتراضات التي لا بد منها لنشوء التاريخ والعوامل الفاصلة في حياة البشر وتطورها هي العوامل النفسية والفردية ، التي ، مع انها تتأثر كثيراً بعامل البيئة ، اما ان تستفيد من القاعدة الطبيعية ، شأن الجماعات الراقية ، واما ان تهملها على حسب استعدادها وارادتها . واذا عدنا هنا الى ما اثبتناه في بداية هذا الفصل (ص 41) فالقاعدة التي يمكننا ان نستخرجها من هذا البحث هي : لا بشر حيث لا ارض ولا جماعة حيث لا بيئة ولا تاريخ حيث لا جماعة .

1 ماير ج . ا . ق . ا . ص 65

2 ايضاً ص 66

الفصل الرابع

الاجتماع البشرى

اجتماعية الانسان وقدمها . مها يكن من امر النظريات المتعلقة بنشوء الانسان وهل حدث ذلك ابتداء من حالة قرديّة كانت درجة من درجات ارتقائه ، أم أن القرديّة حالة منحنية تفرعت من حالة التطور نحو البشريّة¹ ، فما لا شك فيه ان الانسان يقع من الوجهة الاحصائية ، في جدول الحيوانات المتجمهرة او المتجمعة ، او هي الانواع الحيوانية التي يعيش افرادها جماعات (كالنحل والنمل والوعول والغزلان والذئاب والغنم وغيرها). فالاجتماع صفة ملازمة للانسان في جميع اجناسه، اذ اننا حينما وجدنا الانسان وفي اية درجة من الانحطاط او الارتقاء وجدناه ، وجدناه في حالة اجتماعية . وهكذا نرى ان المجتمع هو الحالة والمكان الطبيعيان للانسان الضروريان لحياته وارتقائها. ولما كنا لم نجد الانسان الا مجتمعاً ووجدنا بقايا اجتماعه في الطبقات الجيولوجية ايضاً ، فنحن نحملون على الذهاب الى ان الاجتماع الانساني قديم قدم الانسانية ، بل اننا نرجح انه اقدم منها وانه صفة موروثية فيها² . نرجح ذلك ، حتى في حال ثبوت قرابة الانسان

1 الحقيقة انه لا يمكن مطلقاً البحث في « انحطاط » فردي من درجة انسانية او مستعدة للانسانية . وجل ما يمكن اعتباره من هذا القبيل هو ازدياد القزود الصالحة لفظن المراحل توتغلا واختصاصا بهذه الحالة (انظر وينرت (Ursprung) ص 339)

2 انظر ايضاً ص 194

وإذا كان الانسان يقع ، من الوجهة الاحصائية ، في جدول الحيوانات المتجمهرة ، فلا يعني ذلك بوجه من الوجوه ان بينه وبين الحيوانات والحشرات المذكورة قرابة اجتماعية تمكن من استخراج افيصة عامة تطبق على كلا الحيوان والانسان ، كما ظن ويظن عدد من الكتاب الاجتماعيين وغيرهم . وان من اكبر الاخطاء التي وقع فيها هؤلاء الكتاب محاولتهم تطبيق احوال المجتمع الانساني على مظاهر تجمع الحيوانات والحشرات واتخاذ قواعد اجتماعية من هذا التجمع ومظاهره . وإذا كان في انواع حياة الحيوانات والحشرات المتجمهرة شيء ذو فائدة للانسان فليس ذاك في واقع التجمع بل في الحقائق الاخرى التي نتوصل اليها بالدرس في جميع الحيوانات والحشرات ، سواء اكانت من المتجمهرة ام من غيرها ففي الحياة سنن عامة تجري على الاجسام الحية كلها . على ان في المتجمهرة منها فائدة اخص ، وسنلم بذلك فيما يلي :

ومنه **الاجتماع البيولوجية** . اذا وجهنا نظرنا الى عالم الحشرات والحيوانات الدنيا ودرسناه من الوجهة البيولوجية بتدقيق ، وقفنا على حقائق كبيرة الامة والفائدة . ذلك ما نلاحظه من ان الحيوانات او الحشرات التي لا نعني كثيراً ببيوضها او خلايا توالد حياتها تضع من هذه الخلايا عدداً كبيراً . وان القاعدة هي ان تقل عدد البيوض بالنسبة الى ازدياد العناية بالانتاج² . وهذه الحقيقة تجعلنا نفهم الشيء الكثير من اسباب تصرف الحيوانات والحشرات التي هذا شأنها . والملاحظة الثانية تفيدنا في فهم انواع الحياة الاجتماعية

¹ يذهب ويترت في كتابه المذكور آتفا ، خصوصاً ص 103 — 197 . الى ان الغور يلا —

الشبنزي — الانسان فصيلة والى ان القرابة بين الانسان والشبنزي متينة جداً . بل هو بحرم ص 302 — 330 بفرع الشبنزي والانسان من نقطة اعلى من فرع الغور لا وما دونه في شجرة الحياة او من نقطة في الجذع لا يتصل بها الغور لا ايضاً ص 85

² انظر : ليقوي ABS ص 13

للحشرات والحيوانات الدنيا ان دور الذكر في حفظ النوع ينتهي عادة باللقاح الذي لا يزيد ، غالباً ، على مرة واحدة وبعد ذلك لا يكون للذكر ادنى اهمية في العناية بالتاج¹ . واذا كان الانسان يتفق وسائر الحيوان والكائنات الحية في مبدأ المحافظة على النوع وخدمة النسل فان ظروف تطبيق هذا المبدأ عند الانسان تختلف عنها عند الحيوان . وان الحشرات والهوام التي تتخذ عادة امثلة للاجتماع كالنمل والنحل تختلف عن الحيوانات العليا والانسان بفرائزها البيولوجية . فان افراد جماعات النحل والنمل فاقدة الحيوية الجنسية واجتماعها حول ملكاتها انما هو تجمهر مقيد بخاصية حفظ النوع فقط .

نرى ايضاً من متابعة درسنا عالم الحشرات والحيوانات الدنيا من الوجهة البيولوجية ان هنالك انواع من الزنا بير تجري في حياتها على اسلوب فردي مطلق . وحين ندقق في هذه الظاهرة التي تخالف ظواهر النحل يتضح لنا ان السبب هو في حيوية هذه الزنا بير الجنسية ، فان اكتمال جهازها الجنسي هو السبب الظاهر الوحيد الذي نستطيع بواسطته تعليل حياتها الفردية ، كما ان ضمور الجهاز التناسلي في النمل والنحل هو اقوى عامل في تجمهرها حول ملكاتها وبيوضها .

ولسنا نطيل الشرح في موضوع يبعدنا التوغل فيه عن متجه هدفنا في هذا الكتاب ونحن ما عرضنا لبعض نواحي الاجتماع الحيواني البيولوجية الا لنوضح بالدليل والامثلة ان الاجتماع في الكائنات الحية انواع ، لكل نوع منها خصائص لا تعداه الى نوع آخر وان تطبيق الاجتماع الانساني على مظاهر التجمهر في الحشرات والحيوانات الدنيا او بالعكس غلط فادح سببه جهل مرتكبيه العوامل البيولوجية المختلفة في انواع الاجتماع المختلفة .

وسواء اكان الاجتماع البشري موروثاً من اجتماع سابق الطور البشري ام حادثاً

بعد نشوء البشرية ، فما يهمننا منه انه امر واقع ملازم للبشرية وان خصائصه ملازمة لخصائص الانسان حتى انه يستحيل تطبيق مقاييس اجتماع الحيوان ونظمه عليه ويمتنع كل وجه لجعل الاجتماع الحيواني قياساً له .

تباين اجتماع الانسان والحيوان . رأينا في درسنا وجهة الاجتماع البيولوجية ان خاصية حفظ النوع هي اظهر خصائص اجتماع الحشرات والحيوانات الدنيا . ويمكننا ان نضيف اليها خاصية الغذاء التي تكاد تكون ، أو هي بالحقيقة ، عملاً مطاوعاً للخاصية الاولى وضرورتها ، اذ اننا نجد في انواع حياة بعض اجناس الزنابير وغيرها من الهوام ان الافعال الدماغية وما ينتج عنها من الاعمال كالسعي في طلب الغذاء والاعتناء بالنتاج تزيد وتنقص في الحيوان الجنسي (الملكة) وفقاً لنقص او زيادة اسباب العناية بالنتاج (اي نقص عدد العمال او زيادته وما الى ذلك من نقص الغذاء وتوفره)¹

نلاحظ ايضاً في الحشرات المنشئة الدول ظاهرة اخرى جديدة بالاعتبار هي كون « الملكة » في هذه الحشرات اقل نمواً في دماغها من العمال او ان هؤلاء اكثر نمواً في الدماغ من تلك² . وعليه يكون هذا التجمهر الدولي مؤلفاً من ملكة ، يندر اكثر : زائدة النمو في الجهاز التناسلي ومقصرة في نمو الدماغ ، وعمال (والاصح عاملات) مقصرين في نمو الجهاز التناسلي وممتازين بنمو الدماغ .

اما الانسان فمع اننا لا ننكر نصيب عوامل حفظ النوع في اجتماعه ، فان اجتماعه لا يصح ان يقابل بتجمهر الحشرات لعدم صحة اسباب هذا التجمهر عليه . فالحيوية الجنسية في كل انسان تتكفل ببقاء النوع كما تكفل وتكفل به حيوية الغورلا في معيشتهم الافرادية او الازدواجية فالانسان غير مضطر بطبيعة الحال الفيزيائية وغيرها الى التجمهر لاقامة النسل . وليس هو في عداد الحيوانات التي هي من الضعيف وانعدام وسائل الدفاع بحيث يكون التجمهر وكثرة النتاج اقوى اسباب بقائه ، فان خصائص الانسان الفيزيائية ، كانتصابه

1 ليفوي : بحثه المذكور ص 121

2 ايضاً ص 119

على قدميه الذي اطلق ليديه حرية الاستعمال ، تؤهله للانفراد او الازدواج في حفظ نوعه بما تجعل له من الامتياز والارجحية على خصومه. فليس الاجتماع البشري ، اذن ، من الضرورات البيولوجية لحفظ النوع وفاقا لطبيعة الحال ، كما هو شأن الحشرات المتجمهرة .

واذا تركنا الوجهة البيولوجية وعمدنا الى الفوارق الاجتماعية البحتة وجدنا في الاجتماع الانساني ظاهرتين مفقودتين في غيره ، هما استعداد الفرد لبروز شخصيته واكتساب الجماعة شخصيتها التي تكونها من مؤهلاتها الخاصة وخصائص بيئتها . وهاتان الظاهرتان الاساسيتان اللتان تميزان الاجتماع البشري تمييزاً شديداً بخصائصها لا وجود لهما في عالم الحشرات والحيوانات الدنيا ولا في عالم الحيوانات العليا ، فلا النمل والنحل والغنم والذئاب ولا ما هو فوقها كالقروذ لها شيء من خصائص هاتين الظاهرتين . بل هنالك الفارق الاساسي الاول الذي يجعل لاعمال الانسان وللاجتماع البشري صفة مستقلة تبطل كل مقابلة « اجتماعية » بين الانسان والحيوان هو ظهور الفكر الذي له كل الاهمية في الحياة والاجتماع الانسانيين . ولا يبطل هذا ما قلناه من ان درس تجمع الحيوانات وخصائصه يكون ذا فائدة كبيرة للانسان ومجتمعه ، ولكن هذه الفائدة لا تحصل الا بالدرس الدقيق الذي يكفل تعيين هذه الفائدة . واما اتخاذ ظواهر التجمع والتجمع اساسا لبناء احكام عامة تطلق على كلا التجمع الحيواني والاجتماع الانساني فكثيراً ما لا يكون من الفائدة في شيء بل قد يكون على العكس .

ان الفائدة المعينة الاساسية التي يمكن استخراجها من درسا حياة الحيوان الاجتماعية وغير الاجتماعية هي في علاقة هذا بالمحيط وفي ان افعاله ناتجة عن تفاعل ثلاثة اضلاع هي: الجسم — النفس (الدماغ) — المحيط (او سمها غير هذه الاسماء اذا شئت او استسهلت ذلك لنوع البحث او العلم الذي تريده) . فاذا كانت حياة الحيوانات المتجمهرة تجري ضمن هذا المثلث فحياة الانسان ايضاً تجري ضمنه . ومن تطبيق هذا الاساس الواحد على كلا الانسان

والحيوان نتوصل بالاختبار الى تعيين الفوارق الجوهرية بين الحياتين . وهي الفوارق في كيفية فهم المحيط من الوجهة النفسية . ففهم المحيط من هذه الوجهة ، فيما يختص بالظواهر النفسية كالوعي والاحساس والارادة والفكر . والتصور وما إليها ، ليس مما يمكن استكشافه في الحيوان . وهي هذه الظواهر التي لها كل الاهمية في حياة الانسان الاجتماعية — في فهم الانسان محيطه . وهكذا نرى ان موضوع استكشاف علم الاجتماع يختلف في الانسان عنه في الحيوان .

ولقد حملت مظاهر الحيوان الاجتماعية المشابهة لمعاني ظواهر اجتماعية انسانية ، كالاستبداد والتعاون والتفاهم والرقص واللاعب والتملك والتقليد وغيرها ، بعض الاجتماعيين والاجتماعيين القدماء على التكلم عن حياة الحيوان الاجتماعية بالاصطلاحات المستعملة للتعبير عن حياة الانسان الاجتماعية . والحقيقة انه لا مبرر لاعتبار مظاهر من عالم الحيوان معادلة لمظاهر عالم الانسان ، وايجاد علاقة بين تلك وهذه عن طريق بعض المشابهات الظاهرية العامة واتخاذ ذلك اساسا لا يوضحها او للتحدث عنها ، فيما يختص بالانسان ، كما عن شيء واضح من الوجهة البيولوجية . فاتخاذ الامثلة الاجتماعية للانسان من الحيوان يجب ان يكون على العكس ، اي من الانسان للحيوان ، فمظاهر كثيرة في عالم الحيوان الاجتماعي تشبه نوعا مظاهر من عالم الانسان الاجتماعي . ولكن كم هو عظيم مبلغ الرضى والاقتناع الذي يصاحب قولنا : « هذا تجده ايضا في الحيوان » . فما شأن حياتنا الاجتماعية وثقافتنا وما اليها اذا كانت حياتنا الاجتماعية ليست الا تطبيقا لامثلة مأخوذة من عالم الحيوان ؟

توزع البشر ونسوء الجماعات . نعرف من الحقائق العلمية التي نتوصل

اليها بالبحث المتواصل ان البشر وجدوا في جميع مناطق الارض الجغرافية الصالحة لمعيشتهم ما خلا اميركا واستراليا منذ الازمنة المتطاولة في القدم ، في طور الانسان الاول الوحشي .

فالبقايا البشرية التي اكتشفها علماء الهلك¹ في مختلف انحاء البسيطة ، كانسان الصين وانسان جاوى وغيرها ، تقيم الدليل على ذلك. ونستنتج منه ومما يقدمه لنا علماء الانسان والسلائل البشرية ان البشر « توزعوا » سلائل نشأت او تكونت وفاقا لاحوال خاصة سواء اكان حدوث هذا التوزع وفاقا لما يذهب اليه بعض العلماء ، ومن جملتهم غريفت تايلر ، من انه كان من اواسط آسيا على قاعدة تطور سلائل لاحقة لانتبت ان تدفع السلائل السابقة نحو الاطراف ، ام وفاقا لنظريات اخرى كالنظرية القائلة بتكون السلائل بتأثير الانعزال في بيئة معينة على ممر الحقب ، او كالاخرى القائلة بان الانسانية الاولى كانت مؤلفة من سلائل متميزة اكتسبت صفاتها الفيزيائية الثابتة في الازمنة القديمة جداً وأصبحت لا تقبل التغير منها طراً عليها من الانتقال والاختلاط . وبهذا يقول جمهور من العلماء الانثروبولوجيين والجغرافيين كدي لابلاش² وكيرس³ وغيرها . وهذه النظريات تجعل التوزع مذهباً علمياً تتوفر له الحجج ، خصوصاً متى درسنا جغرافية السلائل (Ethnographie (Y) وادر كنا منها مدى انتشار السلائل البشرية على وجه البسيطة .

في ذلك الطور الاولي الوحشي كانت القرابة الدموية الوسيلة الاولى لتطبيق المبدأ الاقتصادي للاجتماع - مبدأ التعاون على تحصيل القوت. فقد كان الانسان في ذلك العهد صياداً يقتات من صيده ويرحل في أثر الحيوانات التي يستسهل صيدها ويستحسن طعم لحمها. فضرب في الافاق جماعات - عشائر وقبائل - تربط كل جماعة

1 استعملت هذه الكلمة في مصر في بعض المجلات والكتب لتدل على علم الجيولوجيا (طبقات

الارض) وقد رأى المؤلف . بعد انعام النظر . انها اكثر انطباقاً على علم الباليولوجيا

Palaeontologie (Y)

2 كتابه ص 448

3 في ابحاثه المذكورة

منها رابطة الدم التي ، ما دامت العامل الاولي الهام في تحقيق الرابطة الاجتماعية الاقتصادية : لا تسمح باتساع الجماعة وتعاضمها : لانه مع الاتساع والتعاضم تراخي الروابط الدموية وتفقد حيويتها . لذلك كانت العشائر اخص من القبائل والقبائل منتهى ما تحتمله الرابطة الدموية .

ضربت الجماعات البشرية في الآفاق ، الامر الذي ادى الى انتشار السلائل قبائل قبائل بعدت فيما بينها الشقة وتراخت ما بينها او اصر الاجتماع لانعدام الغاية الاقتصادية منه ولعدم فائدة القرابة الدموية في حاجة من حاجات الحياة من جراء استحالة التضافر والتعاون باختلاف البيئات وبعد المسافات . وتوالى الارتحالات الكبيرة والصغيرة واستمرت وتعددت وجهاتها واختلفت . وحيث دفعت قبائل سلالية الى مكان قصي اعزلت فيه ، حافظت على نقاوة دمها ورجح ان تبقى من الارتقاء عند الحد الذي بلغته قبيل اعزها ، مدة طويلة من الزمن على الاقل .

وكان من وراء هذه الارتحالات ان جماعات سلالية تبعت جماعات اخرى او قابلتها ونزلت قربها وصادمتها واحتكت بها . وغلب في الجماعات المنحطة او الاولى او البربرية انها حافظت على نقاوة دمها ، لانها ، لانحطاطها ، لم تكن تفقه رابطة اجتماعية غيرها . الا ان هذه الجماعات كانت ، لنموها وبداءة مدنياتها تعجز عن معالجة هذا النمو بطريقة تحافظ على وحدة الجماعة وتضطر الى الانقسام عشائر وقبائل . فحيث اعزلت الجماعات السلالية وانتحت ناحية من ارض فصلت العوامل الجيولوجية بينها وبين غيرها ، كما يرجح ان يكون الواقع فيما يختص باستراليا واميركا ، استطاعت الجماعات السلالية ان تتطور اجتماعيا على هذا النمط دون ان تتعرض تعرضاً خطراً للاصطدام او الاحتكاك بعضها ببعض بحيث يكثر المزيج الدموي وتفقد الجماعة وحدتها السلالية الدموية . اما حيث سهلت العوامل الجيولوجية والجغرافية توالي الارتحالات والنزول في بقاع الارض الحصبة وتقارب الجماعات ، كما هو الحال في آسيا

واوربة ، فان الجماعات السلالية لم تلبث ان تلاصقت واحتكت بعضها ببعض وتمازجت بعامل الثبات في الارض والعكف عليها الذي هو اصل العمران وسبب المدنية ، بل هو الحال في افريقيا وارخبيل « بولنيسيا » بل وفي اميركا ايضاً . ففي افريقية نشرت قبائل البنطو لغتها فوق ثلثي طول افريقيا (40 ° عرضاً) ، في مدة قصيرة من الزمن ¹ . قبائل المالينيين البولنيسيين انتشرت فوق كل المساحة العظيمة المؤلفة من 210 ° طولاً و 80 ° عرضاً ² .

واذا بحثنا في عوامل الامتزاج وجدنا بينها عاملين بارزين هما الزواج الخارجي والحرب . والزواج الخارجي هو عادة تحريم تزواج الجنسين في القبيلة الواحدة وجعله بين رجال قبيلة ونساء قبيلة اخرى . بل هو اكثر من عادة ، انه من شروط شرف الاخلاق ³ . فاذا دفعت عوامل المهاجرة قبائل من سلالتين او ثلاث في جهة واحدة حتى تلاصقت وتفاعلت ، اما بالحرب واما بتبادل المنتوجات والزواج الخارجي ، حصل الاختلاط الدموي وابتدأ نشوء الجماعة المطلقة مع الاقامة بالارض .



نستنتج مما تقدم من هذا الفصل انه اذا كان سياق نشوء البشر والسلائل البشرية قد جعل تكون الجماعة البشرية الاقتصادية يقوم على اساس الرابطة الدموية لانها الرابطة الاولى ، فان عوامل الحياة الانسانية ، التي قضت بانتشار البشر ، سعياً وراء الرزق او طلباً للنجاة من وجه الاعداء او اضطراراً لا ارادة فيه ، لم تلبث ان جعلت الجماعة البشرية تتكون بعامل الاقتصاد والاجتماع على اساس الاختلاط الدموي الذي يدمج الجماعات الصغرى بعضها ببعض

1 . هرتس ، ص 7

2 . ايضا ص 78

3 . ايضا ص 79

ويولد منها جماعة اكبر شرط ان تتوفر مقومات نشوء الجماعة الكبيرة كالاستقرار وصلاح البيئة واستتباب تهيؤها للتفاعل والتدماج . اما حيث لا تتوفر هذه المقومات فالحالة الابتدائية تسود ويظل الاجتماع قائماً على اساس الرابطة الدموية التي تقتصر على انواع من الحياة محدودة ولا امل لها بالارتقاء في مثل هذا النظام . وعلى هذا قبائل افريقية وآسية واميركا وجزائر المحيط الهادي .

وبناء على ما تقدم نرى ان الاجتماع البشري يقسم الى نوعين رئيسيين : الاجتماع الابتدائي ورابطته الاقتصادية الاجتماعية هي رابطة الدم ، والاجتماع الراقى ورابطته الاقتصادية الاجتماعية مستمدة من حاجات الجماعة الحيوية للارتقاء والتقدم بصرف النظر عن الدم ونوع السلالة . وفي الاجتماع الاول تقع الشعوب والقبائل التي هي في بدائة او بربرية وفي الاجتماع الثاني تقع الشعوب التي اخذت باسباب الحضارة وانشأت الثقافة .



الفصل الخامس

المجتمع وتطوره

المجتمع البدوي او المتوحش . رأينا في ختام الفصل السابق ان الاجتماع البشري يقسم الى شكلين رئيسيين: الاجتماع الابتدائي (Primitive) والاجتماع الراقى¹ والشكل الاول هو من خصائص السلالات الاولى والشعوب المنحطة المتبدية من السلالات الراقية . والشكل الثاني هو من خصائص السلالات التي انشأت المدينيات او اخذت بها . ومن هذه القسمة التصنيفية التي تقودنا اليها الملاحظة الدراسية، نرى ان انواع البشري يظهر ، من الوجهة الاجتماعية ، بمظهرين متباينين نوعا و متميزين دائماً هما مظهر المجتمع المتوحش او البدوي ومظهر المجتمع العمراني او المتمدن .

والتوحش او البداوة احدى حالتين ، اما حالة وقف التطور والجمود، وهي حالة السلالات الاولى المتوحشة . واما حالة التطور نحو الانحطاط ان بعامل انحطاط

1 سيجي الكلام على مراتب التطور البشري في سياق هذا الفصل . وقد رأينا ان نقتصر هنا على هذه القسمة لانها اوفى بمرضا ، الذي هو الاجتماع العمراني الراقى فانخرجنا ما دونه وجعلناه قسما واحدا ، في حين ان التدقيق في امره يوجب قسمته بدوره الى قسمين متوحش وبربري فيكون الاجتماع ، ثلاث مراتب : التوحش فالبربرية فالتمدن .

البيئة كما هو الراجح في بلاد العرب¹ وان بعامل الرجوع الى حالة معينة كالصيد ورعاية الماشية او نحو ذلك². ومهما يكن من الامر فان الاستقرار على حالة التوحش والبداءة يخرج المجتمع المتوحش او البدوي من دائرة التطور بالمعنى الصحيح ويكاد يخرج من نطاق هذا الفصل. ولكن رغبتنا في جعل البحث اتم واوفى بالفرض يجعلنا نتناول حقائق هذا المجتمع قبل ان ننقل الى المجتمع العمراني المتطور الذي سيستغرق كل عنايتنا في سياق هذا الفصل والفصول التالية.

اذا كان المجتمع المتوحش او البدوي لا يتطور تطوراً بالمعنى الصحيح فلا شك في انه حالة من حالات التطور البشري الاجتماعي لها خصائصها التي يحسن بنا ان تفهمها.

خصائص المجتمع البدوي. لا بد لنا، قبل الخوض في موضوع هذا الفصل، من تقرير حقيقة ضرورية لفهم تركيب المجتمع والاحوال الاجتماعية على اطلاقها وفي اكثر اشكالها تعقداً، هي حقيقة الضرورة الاقتصادية للاجتماع البشري. فالرابطة الاقتصادية هي الرابطة الاجتماعية الاولى في حياة الانسان او الاساس المادي الذي يقيم الانسان عليه عمرانه فلا نستطيع ان

1 سنعود الى الكلام على هذه النظرية باسهاب في بحث اصل الساميين ومهمهم في الكتاب الثاني من هذا المؤلف ونكتفي هنا بالاشارة الى النظرية التي يؤيدها كيناني - كتابه المذكور ج. ١. -
القائلة بان بلاد العرب كانت في العصر الجليلي، او في العصر الجليلي الاخير اصلح الاقاليم المحيطة بها لاقامة الانسان. ثم تطورت طبيعة الارض بعد العصر الجليلي الاخير واخذت تربتها في الاغال ببطء متناهى على العمران الذي كان فيها - ايضاً ج. ١. ص 276 واضطر اقواما الى الهجرة منها واقواما اخرى الى تعود حياة البداءة.

2 لا يعتقد ملر - لير - ص 85-88. ان التطور كان دائماً من حالة الصيد الى الرعي الى الزراعة والمضارة. بل يعتقد بمحوادث رجعة من هذا القبيل.

تتصور مجتمعا يقوم على غير اساس التعاون الاقتصادي لسد الحاجة مداورة تعويضاً عن نقص وجود المادة المحتاج اليها وقد اشرنا الى هذه الحقيقة في بداية الفصل الثالث . وزيد هنا ان كيفية تركيب الانسان تجعل حياته توقف على سد حاجاته مداورة ، اي بالعمل والواسطة ، فهو دائماً مضطر لارضاء دافع الارتقاء والتعويض عما فقده من سرعة الجولان وقوة الوثب وتكون المخالب باعداد اداة الدفاع والصيد والمعزق . وهذا يتطلب منه التعاون في الصناعة وفي السعي لمطاردة الفريسة والايقاع بها وفي الزراعة . ولابن خلدون بحث قيم في التعاون في مقدمته المشهورة . فالاقتصاد هو نقطة الابتداء في بحث حالات الاجتماع حتى اننا نرى الحالة الاقتصادية تؤثر على الحالة البيولوجية احيانا¹ . والتطور الاجتماعي هو دائماً على نسبة التطور الاقتصادي .

يمكننا الان ان نتقدم بارتياح الى النظر في خصائص او مزايا المجتمع البدوي والمتوحش . واول ما نلاحظه في هذا المجتمع ان مستواه الاقتصادي لا يزال على درجة ابتدائية بحث فهو لا يعلو عن درجة سد حاجة الحياة مباشرة الا قليلاً . ومن مظاهر هذه الدرجة فقدان الصناعة او وقوفها عند حد صنع بعض الادوات الضرورية ، خصوصاً الخشبية منها ، كاللواتاد والركائز والعصي وجدل بعض الاعشاب والنباتات لسقوف وحيطان الاكواخ

1 راجع الفصل الرابع ص 47 . ولنا نقصد بالضرورة الاقتصادية ان الاقتصاد هو اساس او مرجع جميع المظاهر الاجتماعية ، فلا نزع ان الاقتصاد هو الدافع الى الحب والزواج والعناية بالبنين او انه الباعث على محبة الموسيقى ولكننا نزع ان لا يكاد يعقد الزواج حتى يدخل العامل الاقتصادي اساساً لحياته وبقائه وان محبة الموسيقى ، من حيث هي ، تظهر اجتماعي ، تبقى عقبة او اولية بدون اساس الاقتصادي ولا يمكن الفصل عملياً بين الحياة ومقوماتها .

(الجماعات الاولى)¹ ونسج الوبر والشعر للخيم وبعض اللباس (الجماعات المنحطة المتبدية) . واسباب عيش الجماعات التي على هذه الدرجة تقتصر على الضروري ويندر ان تتعدى الى الحاجي فضلاً عن الكالي² . فكثير من الجماعات الاولى تطلب سد الحاجة مباشرة او بمداورة قليلة . وحاجاتها تقف عند حد الحصول على البلغة ونقع الغلة ومدراً واق من العوارض الجوية وغدر الحيوانات المفترسة . وعلى ما يقارب هذا الجماعات المنحطة المتبدية . ومثل هذه الجماعات هو غالباً في الصيد وجمع القوت النباتي النابت من تلقاء نفسه (عمل النساء) وزرع بعض الحبوب على كيفية اولية رديئة . وفي شرقنا الادنى نرى العرب يسدون حاجاتهم المعاشية مباشرة او بما يشبه المباشرة كتناولهم لبن النوق والتقاطهم التمر . وتربية الجمال اهم شؤونهم الاقتصادية وترتقي حياتهم الى رعاية الماشية وتربية الخيل . ويوتهم شعر ووبر وكذلك لباسهم . ويجمعون الى ذلك زراعة اولية يتولاها اهل المدر منهم .

واحوال هذا المجتمع ، او الجماعات ، الاجتماعية هي بحكم الضرورة متتابعة لاحوالهم الاقتصادية ومطاوعة لها . فنظامهم الاجتماعي يقوم على الرابطة الدموية المنتهية بالقبيلة . والفرد في هذا النظام ككل فرد آخر بدون فرق او ميزة ، اي ان قيمته هي في الغالب عددية عامة لا نوعية خاصة ، لان فقد العمران ونقص المطالب الحاجية والكالية يبطلان المواهب الشخصية وينفيان المزايا الفردية . وكذلك نرى ان نظامهم يخلو من الحقوق الشخصية والمسلك الفردي واذا وجد شيء من ذلك فهو في صورة اولية غامضة . ومن درسنا احوال العرب الذين هم في جوارنا نرى ان الفرد لا يكون عندهم سوى وحدة

1 راجع ص 35 الحاشية عدد 4

2 قسم ابن خلدون في مقدمته — ص 120—122 — مراتب اسباب المعاش الى ثلاث :

ضروري فحاجي فكمالي .

عددية في القبيلة سواء في ذلك اهل الوبر واهل المدر ، والانتساب الى احدى القبائل هو ضرورة¹ ومن هذه الحقيقة ندرك اهمية النار الذي يعني حق القبيلة لا حق الفرد كما سيجي . ويرى فقدان الملك الشخصي عندهم في ان الفرد لا يمكنه الاعتماد على نفسه في الدفاع عن الممتلك وفي انه اذا فقد احد مقتنياته توجب على بقية افراد القبيلة ان يعطوا كل واحد من ماله ما يعوض على الرجل خسارته² .

ونوعا هذه الجماعات الاولى والبربري يشتركان في العادات الاجتماعية والاذواق بحكم مستويهم الاقتصادي المتقاربين . فتري الضيافة التي تفرضها عليهم احوال معاشهم صفة عامة عندهم على السواء وكذلك تعاملهم فيما بينهم ، وخصوصا معاملتهم المرأة³ . وما يروى ، مثلا ، عن كرم العرب وفروسياتهم والشعور بالشرف عندهم وضيافتهم ، يروى مثله عن اهل بلاد النار (ترادلفويكو) وهنود اميركا والفيجين والطنقوسيين⁴ فهذه الصفات المشتركة تظهر بقوة في الشعوب التي لما تحررها الثقافة الزراعية وساعدتها احوال معاشها الضيقة على حصر قواها النفسية في بعض المظاهر المحدودة . ونرى اذواق هذه الجماعات مشتركة حتى في الطعم . فهم ، لجوعهم ، يزدردون الطعام

¹ كيناني ج ١ . ص 323

² ايضا ص 97 . انظر ايضا بشأن النملك تاريخ ادوار مايرج ١ . النصف الثاني فقرة 333

³ حمل الانفال وتحميل اللواب وجمع الغذاء الباني هو عمل المرأة عند البدو والجماعات الاولى راجع ايضا ملر - لير ص 72 - وقد ذكر كيناني ج ١ . ص 335 ان النساء هن اللواني يقمن عند السحر بتقويض الخيام ويجمع المواعين والادوات وحزمها وتحميل الجمال . نجر ذلك من الاعمال الشاقة ينما الرجال مجتمعون حول الموافد يصطلون من شدة البرد .

⁴ راجع هرتس . انظر ايضا فيركنط ٨٧٧ ص 2

بطريقة لا تسمح بالتلفد به على حد الجماعات الراقية ، حتى ان بعض العلماء يذهب الى جعل درجة لذة الطعم في عداد الفوارق بين الاقوام الاولى والشعوب الراقية . وجميع هذه الجماعات او المجاميع لا تعرف توزيع العمل الذي هو من خصائص المجاميع المتقدمة ¹ . ومما ارتقت اجتماعية هذه الجماعات فهي لا تبلغ الى هذه الدرجة العالية المثلة ، في المجتمعات المتقدمة ، بالجمعيات وسائر المؤسسات التي تمثل بدورها الاعمال الذاتية والافكار الحرة الصادرة عن الافراد الذين يؤلفون المجموع المتمدن ، وتمثل فوق ذلك ، النفسية الفاعلة في المجموع ونوع روحيته الاجتماعية . وبالايجاز نقول ان اغراض الجماعات الاولى المتوحشة والجماعات البربرية المنحطة او المتأخرة محدودة جداً بالنسبة الى اسباب سد الحاجة المعاشية مباشرة او مداورة الى مدى محدود . وفي حين ان افعال مؤلني هذه الجماعات الاجتماعية محدودة نرى انها لا تتناول مطلقاً الافعال السياسية او ، على الاقل ، الافعال السياسية النظامية . وهذا ، من الوجهة العامة وبالاختصار ، هو المستوى الاجتماعي الذي وقفت عنده الجماعات الاولى والجماعات المنحطة او المتبدية او المتأخرة من السلالات الراقية العمرانية . وسنرى لمحة اخرى من هذا المجتمع في الفصل التالي .

المجتمع السابق العمران وتطوره . لا مشاحة في ان المجتمع العمراني ، او

مجتمع السلالات العمرانية الاسيورية (الاسيوية الاروبية) ، لم ينشأ منذ البدء مع اول نشوء هذه السلالات الراقية ، بل نشأ مع تطور جماعات هذه السلالات وحين بلوغها الدرجة العمرانية التي هي درجة الزراعة والاقامة في الارض . ويحسن بنا هنا ان نمهد لدرس تطور المجتمع العمراني خاصة باستعراض التطور البشري الاجتماعي العام منذ البدء الذي امكن العلوم الاجتماعية ، والتي تدرس حياة الانسان ومنشأه ، وخصائصه ، استقصاؤه .

1 ان تعاون الرجل والمرأة على الحياة واتخاذ كل منهما ناحية لا يمكن اعتباره « توزيع عمل »

الا بصورة اولية بحث .

النظر الثقافي السابق التاريخ . ولا بد لنا ، لجعل هذا الاستعراض تاماً او غير مبتور ، من الابداء مع نشوء الانسان . اذ ما المجتمع الانساني العصري المتمدن الا نتيجة او حاصل الثقافات المتوالية على الانسان التي ولدها التفاعل المستمر بين الانسان وبيئته .

ولقد مر معنا في الفصل الثالث ¹ ان الانسان هو الوحيد من بين جميع الكائنات الحية الذي امكنه ايجاد علاقة تفاعلية مع الطبيعة ، وخصوصاً مع بيئته . وما ذلك الا باجابته على مطالب البيئة بنمو الجهاز الذي اعطاه ان يعقل الطبيعة : الدماغ ان عقل بعض الاشياء المحيطة مما قد توصل اليه بعض القروود العليا . فالشبنزي ، مثلاً ، يعرف كيف يستخدم اغصان الشجر لبناء بيوت له لبست اسمج مما تبنيه القبائل المتوحشة ² ولكن عقل الطبيعة او العقل المطلق الذي سمي به الانسان الحقيقي « Homo Sapiens » هو الشرط الذي لا بد من تحقيقه ليصبح التفاعل ممكناً وهو الشرط الذي تحقق في الانسان العاقل وبتحقيقه اخذت الصلات التفاعلية تتوثق بين الانسان والطبيعة عن طريق البيئة اولاً .

ومما لا شك فيه عند العلماء انه قد سبق عصر Homo Sapiens عصر Homo Primigenius المطلق على Homo Neandertalensis وسبق هذا Homo Heidelbergensis وقبل هذا كان Anthropus وهذه الاسماء تعني لعلماء الانسان اشكالا مخصوصة تدل على اطوار ليس من شأن موضوعنا الدخول فيها ولذلك فضلنا ان نسمي عصر Homo Sapiens عصر التفاعل وما قبله عصر الاحتكاك

ويظهر ان الاحتكاك ابتداءً من الدرجة التي نجد الشبنزي عليها اليوم ، اي من درجة عقل بعض الاشياء المحيطة واستخدامها . وقد لا تكون هذه الاشياء الاغصان المتخذة لبناء العرازيل ، كما يفعل الشبنزي ، اذ يرجح ان النوع القردي المجهز بالاستعداد للتطور نحو الانسانية لم يكن يقطن الغابات التي لا تساعد

1 ص 40

2 ملر- لير ص 54

على تولد الخصائص الانسانية كتحرير الذراعين والمشي على القدمين . ويظهر ان الاحتكاك ارتقى الى تناول النار واستعمالها لاغراض متعددة ¹ . وان فجر الانسانية مقرون بفجر الثقافة الانسانية وهو ما يسمى عند علماء الانسان بالزمن الايوليثي ، اي زمن الاثافي التي لما يمكن الجزم في هل اشكالها وكسورها من صنع الانسان ام من الطبيعة ² . فاستعمال النار هو الخطوة الفاصلة التي عينت للانسان السابق اتجاهه .

واهمية النار العظيمة لحياة الانسان وارتقائه هي في كونها عاملا اقتصاديا كبير النتيجة حتى في ذلك العهد السحيق . فلا بد انها خدمت الانسان السابق في صد السباع المفترسة عنه وفي الانارة له ليلا وفي تدفئته وشي لحم فرائسه فجذبه الى حرارتها وضوئها واوجدت لذة في تجمع قطعانه حولها ، وهي لذة مصحوبة بالاطمئنان . واللذة والاطمئنان وتوفير الجهد والنصب هي الضرورات التي يؤدي حصولها الى تولد الاحساسات النفسية الفردية والاجتماعية حينما كان ذلك ممكنا في الكائنات العليا . ولعل هذا الاطمئنان قرب النار هو السبب في تحويل علاقة الذكر والانثى من عمل بيولوجي بحث يقتصر على فصل اللقاح الى حالة اجتماعية لها خصائصها النفسية .

ولاشك في ان النار قوت الرابطة الاجتماعية في الانسان السابق ومهدت له كثيراً اظهار استعداداته للارتقاء . فساعدت كثيراً على نشوء النطق الذي يعده اترس قيقر ³ ابا العقل . ومما يكن من امر تقديرنا نشوء النطق فلا

1 لانواق مدرسة ، منها ملرلير - انظر كتابه ص 56 - تقول ان النار دخلت في حياة الانسان بعد ان كان سار اشواطاً في الثقافة . فنحن نرى ان النار ضرورة سابقة للنطق ونجد تأييد ذلك في ادلة علم الانسان

2 وينرت Menschen ص 18-19

3 ذكره ملر لير ص 50 . ويصعب ان يكون مذهب بقبر صوابا . ولكن النطق كان ملازماً لارتقاء العقل

بد لنا من التسليم بان النطق وحده كفل تحويل الاكتشافات والاختبارات التطورية الاولى الى معارف اجتماعية وراثية (اجتماعياً) . اعدت النار الانسان السابق لدخول العصر الحجري¹ الذي هو بدء الانسان الذي ولى الحيوان ظهره وبدء الثقافة الانسانية . ومنذ تلك العصور المتطاولة في القدم لم تفارق النار الانسان ولا قطع الانسان صلته بها .

كان الانسان السابق صياداً قبل كل شيء . وكان اهم طعامه لحم طرائده ويحتمل انه كان يقتات ايضاً ببعض الاعشاب والثمار . وهذا كان الانسان الهيدلبرغي المنبثق من الحيوانية العجاء . ولا بد ان الانسان الآخذ في التقدم بفضل النار واستعداده الخاص أخذ يتنبه لاشياء المحيطة به التي اكثر من تلمسها واخذها بيده — الى الاحجار التي قد يكون استعمالها عن غير عمد . وبفضل تطور دماغه أخذ يشعر بعلاقة اشياء باشياء في حاجاته وقد يكون قاده ذلك ، كما هو الارجح ، الى حمل مشعل بيده وحمل حجر او هراوة باليد الاخرى . ولكنه كان الى الحجر احوج ، لانه كان يستعين به على شق

1 يحسن بنا ، من اجل حفظ النسق العلمي في تتبع الثقافة الانسانية ، ان نحفظ العصر الثقافي التي رتبها علم الانسان وعلم طبقات الارض . والذي عليه اهل هذا العلم ان تاريخ الارتقاء البشري غير المكتوب يقسم الى قسمين عامين هما : العصر الحجري والعصر المعدني . وكل من هذين العصرين ينطوي على اجزائه الخاصة ، فرى ان العصر الحجري يشتمل على ثلاثة اجزاء هي : العصر الحجري القديم او السابق (البليوليثي) والعصر الحجري المتوسط او اللاحق (المزليثي) الذي كثيراً ما يعرف بانه حقبة ختامية للعصر الحجري القديم ويسمونه « الايبليوليثي » (Epipaleolithicum) والعصر الحجري الجديد او المتأخر (النيويليثي) . ثم يدخل العصر المعدني مبتدئاً بالحقبة النحاسية او باسقاط هذه والابتداء بالحقبة الحديدية (البرنز) التي حل محلها أخيراً الحقبة الحديدية التي لا تزال فيها . والعصر الحجري القديم هو اطول هذه العصور وهو المعقول بالنسبة الى حالة الانسان واحوال زمانه ، الزمان الجليدي . ويقسم احياناً هذا العصر بدوره الى ثلاثة اقسام : قديم ومتوسط وحديث ، يستغرق الاول ما بين اوائل الايوليثي واواخر التيلي (Chélles) ويشمل الثاني الاشولي (St. Acheul) والمستيري (Le Moustier) ويحيط الثالث بالاورنياكي (Aurignac) والصلتراني (Solutré) والمجدلاني (La Madeleine) وهذه العصور التصنيفية منسوبة الى الاماكن التي اكتشفت فيها عظام اصحاب البقايا الثقافية المكتشفة معهم او لوقتهم وهي اماكن فرنسية (راجع وينرت ، كتابه المذكور اخيراً ص 17-18 خصوصاً)

الحيوان وسلخه وتقطيعه بعد قتله . فاضطره ذلك الى العناية بالحجر فاتخذ منه ادواته . ومن صناعته هذه الادوات نستطيع ان نتبع ثقافة الانسان منذ ابتدائها . والحقيقة التي نستخرجها من درسنا ادوات الانسان السابق الحجرية هي ان هذه الادوات استغرقت كل عناية الانسان ومجهوده العقليين . وهو بديهي من ذكرنا ما مر معنا ¹ من ان حياة كل كائن حي تجري ضمن المثلث: الجسم - النفس - المحيط ، وان حفظ الحياة الفردية ، مضافا الى حفظ النوع ، وان حفظ الاجتماع مضافا الى حياتي الفرد والنوع ، تقتضي جميعها تأمين حصول الغذاء الموجود في الطبيعة بتأمين وسائل الحصول عليه . ولا يمكننا ان تصور حياة فردية او اجتماعية بدون غذاء . ولذلك قلنا ان رابطة الانسان الاجتماعية الاولى هي الرابطة الاقتصادية .

وظل الانسان السابق يرتقي في هذا الزمان الاحتكاكي ترافقه النار ويظهر مهارته الفطرية في تقطيع الاحجار وتحسين اشكالها وشحن حافاتها لتفي بغرضه ، ولم يكن له حينذاك من عمل « انساني » غير هذا العمل . وظلت صناعة الاحجار ثقافته الوحيدة طول الحقب المبتدئة من الحقبة الشلية الدنيا الى الشلية العليا الى الاشولية ، التي خلف فيها الانسان النيندرتالي الانسان الهيدلبرغي ، الى المسترية الدنيا الى المسترية العليا التي هي نهاية الانسان النيندرتالي ، او على الأرجح الشكل النيندرتالي *Homo Neandertalensis primigenius* . وهذه الحقب تعادل نحو 250000 سنة من الزمان الجليدي ² . وعند هذا الحد ينتهي القسم الاول من العصر الحجري السابق وبنهايتها تم مدة الاحتكاك ليس لنا من ادلة اجتماعية انسان هذا العصر الاحتكاكي ونفسيته سوى

1 ص 50

2 هذا واقفا لنظرية نقول بائداء الانسان وثقافته مع نهاية عصر « قنز » الجليدي اوبده عصر « مندل » اما حسب نظرية اخرى نقول بالابداء مع عصر « رس » فتكون المدة نحو 150000 سنة - انظر وبنرت حيث كتابه المذكور اخيرا ص 13 و 23 - والاسماء المذكورة هي اسماء انهر سويسراية تسمى بها العصر الجليدية الثلاثة

آثار مواقده وبقاياه العظمية وأدواته الحجرية وكلها تدل على حالة الخروج من الحيوانية وبدء الإدراك وانحصار الأعمال الانسانية في الاشتغال بادوات الفتك . ولا شك في ان نفسيته كانت لا تزال في بداءة وعيها . اما اجتماعيته فلم تكن نوعية مطلقة ، اذ ان تنقيبات قريانفتش - كرامبرقر 1899 - 1905 (Gorjanovic - Kramberger)¹ في كرايينا من اعمال كرواطية دلت على ان الانسان النيندر تالي كان يأكل نوعه . وحالة معيشته كانت على درجة سد الحاجة مباشرة .

يدخل القسم الحديث من العصر الحجري السابق فنجد الانسان قد حقق ارتقاء جديداً في شكله وثقافته اكسبه اسم الانسان العاقل *Homo Sapiens* . وبدخول هذا القسم يتبدى عصر التفاعل . فالانسان يظهر منذ بداءة هذا العصر انه ابتداءً يدرك طبائع المواد المحيطة به . فهو قد حسن ادواته الحجرية تحسيناً كبيراً واخترع ادوات جديدة من العظم ونوع الجميع لمختلف الاغراض . وقد فسح له هذا الارتقاء الاقتصادي المجال لبروز الحاجات النفسية مع الادراك فاخذ الانسان ينقش في الطبيعة ويحفر في كهوفه ، على الحيطان ، وعلى الادوات العاجية والعظمية رسوماً جميلة تدل على سلامة ذوق ، وقام بقسط كبير من صناعة النصب . ومع ذلك فاننا لا نجد تغيراً خطيراً في وسائل سد الحاجة . فالانسان لا يزال صياداً وان كان قد حسن عدة الصيد باختراع القوس والسنان للرماية . وقد يكون اضافة الى صيد حيوان البر صيد حيوان البحر . ولا نرى اي تطور خطير في ثقافة اوائل العصر الحجري اللاحق ، ولكننا نلاحظ ان هنالك بداءة جديدة لاشكال الانسان العاقل تجعلنا نسميه « الانسان العاقل الحديث » *Homo Sapiens recens* تمييزاً له عن انسان العصر الحجري السابق : الانسان العاقل المتحجر *Homo sapiens fossilis* ونرى ان الصناعة الصغرى ارتقت . ويعرف هذا الطور عند العلماء بالطور الازيلي ، نسبة الى *Mas d'azil* . ولكن لا يكاد هذا الطور ينتهي ويتبدى الطور الثاني الكميني ،

حتى نلاحظ ظاهرة جديدة خطيرة هي ظاهرة تدجين الحيوان باقتناء الكلب ونلاحظ ايضاً ان الادوات الحجرية تتخذ وجهة اغراض جديدة ، فنجد بعضها خشناً قاسياً — ولعله لغرض العزق او الحفر في الارض — ونجد بينها القأس الحجرية واذا بنا في مدخل العصر الحجري المتأخر المتصل بعصرنا الحالي في بعض السلالات الابتدائية .

في مجرى هذين العصرين الحجريين اللاحق والمتأخر تم نطق الانسان وارتنقى الى مرتبة لغة وارتنقت احوال معاشه بتدجين الحيوان والتنبه لطبائع المادة ولكنها ظلت على مستوى سد الحاجة مباشرة ، الاخذ مما تقدمه الارض من حيوان ونبات بري ، وفوقها قليلا اذ نرى ابتداء النسيج وصناعة الخزف .
والرابطة الاجتماعية هي الرابطة الدموية ، رابطة القبيلة .

وهذان العصران ، بالنسبة الى العصر الحجري السابق ، قصيران . ونعلم ان زمانها كان يختلف باختلاف البقاع والاقاليم ، كاختلاف مراتب العصر الحجري السابق ، على الأرجح . ومما لا شك فيه انه بينما كانت اوربة في ابان العصر الحجري المتأخر كان بعض مناطقها الشمالية (سكندرية) لا يزال في بدء هذا العصر ، اذا بالعصر المعدني ينبثق في سورية - (بلاد الكلدان - بابل واراض كنعان) - وفي مصر .

حتى العصر المعدني كانت الثقافة البشرية عامة تناولت النوع الانساني بكامله . فجميع البشر كانوا صيادين وصانعي ادوات حجرية وجامعي القوت النباتي مما تقدمه الارض الكريمة . ولكن لما حصل الاتجاه الزراعي في العصر الحجري المتأخر القصير الامد ظهر عامل جديد في ترقية حياة البشر لم تشترك فيه جميع سلالاته او شعوبه . ومع الزراعة والاشتغال بالمعادن يرتقي عصر التفاعل الى ما نسميه التفاعل العمراني او الثقافة العمرانية .

الثقافة الاوربية والثقافة العمرانية . تقتصر الثقافة الاولى على 1 . اقامة

النسل و 2 . السعي وراء الرزق بالمعنى الحرفي . امران ينتج عنها نظام اجتماعي

اولي محدود ، كما رأينا في خصائص المجتمع البدوي ، بل دون ما ذكرناه هناك . اما الثقافة العمرانية فتقوم على 1- اقامة النسل . 2- تحصيل الرزق واستدراارموارده . 3- التنظيم الاجتماعي الاقتصادي . ثلاثة امور تتوج بالحياة العقلية المشتملة على المنطق والاخلاق وسلامة الذوق . وهي هذه الحياة ، التي ابتدأها بعض الشعوب السامية ووضع السوريون اساسها الراسخ ، ما يعطي المجتمع المتمدن قيمته ومزاياه والمدنية الحديثة ابرز صفاتها واثنى كنوزها . ومع ان الزراعة هي اساس الثقافة العمرانية فالزراعة ليست نوعا واحداً ، بل انواعا . والثقافة العمرانية المؤسسة عليها هي مراتب :

1 ثقافة المعزق (Hoe) = زراعة المعزق

1. ثقافة المحراث = زراعة المحراث
2. ب . ثقافة البستان = زراعة البستان

3 ثقافة الانتاج التجاري = زراعة المحاصيل وانشاء الصناعات واعداد الحاجيات والكماليات .

والمرتبتان الاوليان هما افراديتان وعائليتان ترميان في الدرجة الاولى ، او هما قمتان الى كفاية الفرد او العائلة ولكنها تستدعيان اهتمام الفرد او العائلة الدائم . وزراعة المرتبة الاولى اولية تقتصر على قلب سطح الارض بمعزق بشكل عصا محددة وتغيير مكان الزرع كل مرة . وهي لا تعطي الا الضروري . ولا تسمح في ارقى درجاتها والانصراف اليها او التعويل عليها بعمران وكثافة سكان مدنية . وقد تبلغ الكثافة حداً يسترعي الاهتمام ولكنها تكون كثافة متقطعة متفرقة لها مراكز تفصل بينها قطع واسعة من الارض المقفرة . ففي السودان تقتصر الزراعة على التربة التي هي من الرخاوة بحيث يكفي قلبها بعصا الزراعة لطمر الحبة . فتتضي القرية الواحدة ثلاثة اضعاف المساحة التي تزرعها في المرة الواحدة لان افقار التربة المتروكة بدون سماد يدعو الى طلب التعويض بالمساحة¹ .

والمرتبة الثانية هي التي بلغتها الشعوب السامية منذ اقدم عصورها المعروفة وهي المرتبة التي تحاول سورية الان الخروج منها الى المرتبة الثالثة ، وهي اساس هذه المرتبة الاخيرة . واهم الاطوار التي مر بها القسم ١ . من هذه الثقافة هي: ١ (الحراثة بالحرق وهي الزراعية الكلاية الناتجة عن المجهود الاول لانقاذ التربة من الحرجات البكر . ولا يستعمل في هذه الزراعة سماد سوى رماد الاشجار المحروقة او سماد البقر التي ترعى في المكان عينه . واكثر تقدما من هذا الطور طريقة

ب (نظام الحقل حيث تقسم الارض الصالحة للزراعة غالبا الى ثلاثة حقول ، حقل يبقى بوراً ويؤزرع الثاني حبوا صيفية والثالث حبوا شتوية . وشبيه بهذا

ج (زراعة المرج اذ تختلف الى الارض بضع سنوات من العشب وبضع سنوات من زراعة الحب ٢ ، وارقى من هذه جميعها :

د (زراعة الدورة التامة ، وهي تتطلب تصنيف النبات الى ما يزيد في ثروة التربة وقوتها كالتبغ وغيره . والى ما يفقرها ويستنفذ قوتها كالحبوب والنباتات الزيتية فتتوالى زراعة هذين الصنفين في دورة تامة على الارض وهذه الدورة الزراعية التامة تتطلب العناية بها زيادة في العمل والري والتسميد والتحسين الزراعي للارض .

والقسم ب . من هذه المرتبة ، ثقافة البستان (او هي ثقافة المر) ، يشتمل على ارقى انواع الزراعة والعناية بالتربة على الاطلاق . وفي مقدور هذه الزراعة ان تقوم بأود مجتمع كثيف السكان ، كما هي الحال في الصين ٣ . وج . ا . سمعان ٤ يبرز لنا صورة من هذه الثقافة . والصورة من قرية ونع - مو -

1 نقلا عن ملرير ص 77

2 هذه الطريقة هي الاكثر شيوعا في اراضينا الزراعية

3 في مقاطعة الانهر الاربعة (شخوان او ششوان) يبلغ معدل السكان في سهل شنتو 300-350

لكيلومتر المربع - دلابلاش ص 94 -

4 G. E. Simon, La Cité Chinoise ذكره ملرير ص 78

في الصينية . عدد سكانها 10,000 يعيشون على 3,000 فدان (أكر) . ويسكن في كل منزل من منازلها عائلة اتحادية لا تقتصر على الآباء وأبنائهم بل تتناول الجدود والآباء والأبناء والأحفاد مجتمعين والملك أو البستان مشترك بينهم . فالعائلة الاتحادية من هذا النوع المؤلفة من نحو اثني عشر شخصاً تجدد في قطعة من بستان لا تزيد على خمسة فدادين (أكر) من الثمار الوافية بمطالب العيش مقومات كافية . وهذا الانتاج الكبير عائد الى حسن الري والتسميد والعمل .

إذا امعنا النظر في كل مرتبة من المراتب المتقدمة وجدنا ان الاولى منها ابتدائية جداً في العمران فهي لا تدخل في نطاق الثقافة العمرانية الا من حيث انها طور تمهيدي لها والصحيح ان اهل هذه الثقافة يدخلون في المجتمع البدوي الذي وصفناه آنفاً . فإذا كان لهم حياة عقلية فهي محدودة جداً . وهم خارج نطاق شعوب آسية وأوربة المتقدمة . فبين الشعوب التي لها الملم وقسط من هذه الزراعة بعض هنود اميركا الشمالية كاللوهكان والاركوى والبنكا والمندان وغيرهم ، وبعض هنود اميركا الجنوبية ايضاً كالبكاري والقواراني في البرازيل . وهم يمارسون الى جانبها الصيد . وسكان جزائر المحيط الهادي وجزائر المحيط الهندي يمارسون هذه الزراعة مع صيد السمك وزراعتهم افرقيا الذين لا يدخلون في عداد الصيادين والرعاة تقوم حياتهم على هذه الزراعة فقط كقبائل زمبازي ومكلاكه ونيام - نيام وغيرها¹ . والسبب في بقاء هذه المرتبة خارج نطاق العمران نسبة العمل الى مقدار الحاصل الغذائي . فالاقتصاد لا يعني حقيقة سوى سد الحاجة او تأمين سدها باقل مجهود واسرع واكبر نتيجة ممكنين . وهذا النوع من الزراعة لا يوفر مجهوداً يستحق الذكر لخاصته قليل واهله مضطرون الى الاهتمام دائماً بالضروري من اسباب العيش .

لا نرى للعقل منفذاً الى الحياة الفكرية والعلمية الا مع المرتبة الثانية ففي هذه المرتبة نجد الزراعة المعروفة في نطاق المدنية الاسيورية . وهي الزراعة الحضرية بمعناها الصحيح . ومع ان نطاقها بالاكثر فردي او عائلي ، بحيث يقصد منها تموين العائلة وبيع ما يفيض عن المؤونة لشراء الحاجيات بضمنه ، فهي تعلو كثيراً عن الزراعة المعزقية بأنها افضل لغرض الخزن . والخزن والهري فارق اسامي للزراعة بمعناها العمراني عن الزراعة الاولى . « الزراعة كانت اسلوب العيش الوحيد الذي مكن الناس منذ البدء ، من ان يحيا معاً في مكان معين وان يحشدوا فيه مقومات الحياة . » هكذا يقول دلابلاش¹ ويزيد « ليس زارعاً الذي يحرق العشب وينثر مكانه بضع حفنات من البذور ، ثم يرحل عن المكان ، بل الذي يحصد الغلال ويخزنها هو الزارع » . ومع ان المرجح ان القسم « ب » من المرتبة الثانية ناشيء عن الزراعة الاولى . فيجب حساب هذا النوع في هذه المرتبة . وهو نوع راق رفع سد الحاجة الى درجة ضئيلة بالغذاء او الحاجيات البيئية .

فان خيرات الارض تستدر للعائلة الى آخر مواردها فالتسميد في هذه الزراعة يبلغ شأواً بعيداً والري في حالة بالغة من الكفاءة والارض تعطي بخصب . ولكن هذا النوع كالذي قبله ، يقتضي انصباب افراد العائلة على العناية بالارض والصناعة البيئية . وهذه الزراعة بيتية قبل كل شيء . وبعد كل شيء . ولا يمكن ان تتقدم اكثر من هذا المدى وهذان النوعان زراعة المحراث وزراعة البستان ، قد حررا العقل الى درجة ما وواجبا ارتقاء في توزيع العمل ولكنها لم يفسحا للعقل وللتنظيم العملي كل المجال الذي يسمح لهما بالتقدم . تأتي اخيراً المرتبة الثالثة ، التي اطلقنا عليها اسم ثقافة الانتاج التجاري ، وهي الثقافة القائمة على زراعة المحاصيل الكبيرة وانشاء الصناعات الكبرى .

وهذه هي مرتبة التمدن الحديث التي اخرجتها من المرتبة الثانية التجارة التي ولدت الاساس النقدي والرسمالي وحولت عملية المبادلة الاولى ، الى تجارة انترنسيونية واكسبت الحاجة الى الآلة المحققة الاغراض معنى اقتصاديا عالياً وجعلت الآلة من أهم عوامل ترقية هذه الثقافة . تهت الزراعة كثيراً في هذه المرتبة فازدادت العناية بالاسمدة حتى انتهت الى الاسمدة الكيموية وامتد الرسمال وحب التجارة والكسب الى اراض جديدة . ولو كانت بعيدة . لاستخراج المحاصيل والمواد الاولى لتلبية الطلب الحاجي واخيرا الكالي . وكان من وراء اتساع نطاق هذه الزراعة وتحسينها ان حاصلها كثر الى درجة صار عندها قسم كبير من اهل هذه الثقافة محرراً من الحاجة الى زرع وحصد قوته بنفسه واصبح في امكانه الاهتمام بالشؤون الثقافية الاخرى والانصراف اليها فنشأ عن ذلك التخصص الراقي الذي هو ابرز ميزة في حياة المجتمع المتمدن الاجتماعية وارقى مرتبة في مراتب الاقتصاد الاجتماعي وافعل اسلوب للحصول على اكبر نتيجة من مبدأ التعاون .

تطور الثقافة العمرانية . الحقيقة ان الاطوار الزراعية التي وصفناها آنفاً

لا تعني شيئاً ثقافياً الا متى نظرنا الى العمل المبذول فيها ومقداره وكيفية تنظيمه وما يتبع ذلك من الاحوال الاجتماعية . اي انه لا يمكننا ان ندرس الثقافة ومرتبتها ونتبع تطورها الا في سياق التفاعل ، اي في تتبع اعمال الانسان على مسرح الطبيعة . والمقياس الذي نقيس به قيمة اية مرتبة ثقافية هو نسبة ما بين حصول اسباب العيش والعمل المبذول في هذا السبيل ، لان كل تطور في الحياة الاجتماعية وانظمة الاجتماع لا يمكن ان يحدث الا ضمن نطاق هذه العلاقة . فالنظام الاجتماعي هو دائماً حاصل تفاعل الانسان والطبيعة والبيئة بطريقة معينة او منبعث منه وموافق له . ونحن نتبع تطور الثقافة العمرانية بتتبع تنظيم الانسان مجتمعه بناء على هذا التفاعل . فكما ان التطور الانساني، نشوءه وارتقاءه ، كان وفقاً لمقتضيات تطورات الطبيعة والبيئة ، اي انه تطور

محتم بالاختيار الطبيعي لا مفضل بالاختيار العقلي، كذلك التطور الاجتماعي، نشوءاً وارتقاء هو وفاق لتطور التفاعل بين الانسان والبيئة بدافع الحاجة المادية. فاذا كان العقل نتيجة تطورات الدماغ الفيزيائية فالعقلية الاجتماعية نتيجة تطورات التفاعل المادي لتأمين الحياة الاجتماعية:

يستنتج مما تقدم انه اذا كانت الرابطة الاقتصادية اساس الرابطة الاجتماعية البشرية فالعمل ونظامه التعاوني مصدر نظام الاجتماع واساس بناء المجتمع. واذا لى التعاون على نوعين: بسيط ومركب. فالبسيط هو التعاون على ما فيه مجهود من نوع واحد كرفع الاثقال وتحريكها والسعي في طلب طريدة (في حالة الانسان الصياد) وما شاكل. والمركب هو ما كان في المشاريع البنائية وفي تنوع حاجات المجتمع واغراضه العمرانية. والعمل يجري على احدهما واحيانا يجمع بينهما.

ذكرنا في بداية هذا الفصل اهم المزايا التي تفرق المجتمع الذي هو دون مرتبة التمدن عن المجتمع المتمدن ومنه نرى ان النظام الاجتماعي ابدأ من مرتبة الشيوعية في نظام العشيرة الدموي حيث الارض التي تحتلها العشيرة وترتبطها مشاع للعشيرة كلها بدون تمييز وحيث العائلة جزء من العشيرة بالمعنى الاقتصادي، اي ان العائلة ليست كياناً قائماً باوده فهي تعيش معتمدة على مورد العشيرة العام. شيوعية العمل والغذاء والارض المثلثة في وحدة العشيرة وقسمة العمل بين الجنسين الممثل في وحدة العائلة، هذا هو كل النظام الاجتماعي السابق الذي يكاد يكون الان بائداً. ثم ارتقى من هذه المرتبة نظام آخر اضافي الى ما تقدم هو نظام المبادلة في المنتوجات بين العشائر المتجاورة. وهو ما يسمونه الاقتسام الخارجي للعمل. ولهذه المبادلة طرق خبر منها السوربون الكنعانيون (الفينيقيون) بناء قرطاضه، الطريقة المعروفة بالمبادلة الصامتة. فكانوا في اقدمهم التجاري في افريقية الغربية « يفرغون البضاعة على الشاطئ ويرتبونها ثم يعودون الى امراكبهم ويصعدون دخاناً كثيفاً فيراه قاطنو ذلك المكان ويأتون الى الشاطئ ويضعون ذهباً بدلاً للبضاعة

ثم يسحبون الى بعد عن البضاعة . فينزل القرطاضيون الى البر ثانية ويفحصون كمية الذهب حتى اذا وجدوها كافية للتعويض عن البضاعة حملوها واقلعوا والا فانهم يعودون الى مراكبهم وينتظرون فيعود او تلك القوم الى وضع كمية اخرى من الذهب . وهكذا الى ان يرضى اصحاب البضاعة . ولم يكن احد الفريقين يلحق بالآخر اجحافا فلا القينيقيون يمسون الذهب قبل ان يصبح مكافئا لقيمة البضاعة ولا اهل تلك الارض يمسون البضاعة قبل ان يكون الفريق الاول اخذ الذهب ¹ . وهذا التبادل بين جماعتين ، تبادل كل واحدة بما عندها ، هو اشبه شيء بتوزيع العمل فيما بين الجماعات . وافضل امثلة هذا النوع من الرباط الاجتماعي الاولى وارقاها هو في قبائل افريقية حيث تشابه كل قبيلة «القيلد» او النقابة وتحمل اسم صناعتها كقبيلة الحدادين وقبيلة صيادي السمك الخ ² . فقد تطورت المبادلة هنا الى تجارة منظمة بين القبائل .

ويوجد غير هذه الطريقة طريقة التجول خارج القبيلة ولما كان هذا العمل خطرا على المتجول استحدث لازالة الخطر نظام الضيافة . فينزل البائع ضيفا على رجل وبعد اقامته يعرض على مضيفه قبل رحيله بعض ما يحمل ويسأل ما يريد مقابله . او هو يعرض بضاعته في حى مضيفه ويقبل المبادلة . ونوع آخر هو انشاء اسواق في اماكن محايدة . وكان لهنود اميركا الشمالية سوق كبيرة على المسيسيبي « في هذا المكان كانوا يجتمعون من كل ناحية وتنفذ فيهم هدنة تامة بين القبائل المتعادية ³ » (الشهر الحرام) .

ومع اننا نرى في هذا الطور الثقافي الاولى ان بنية الاجتماع هي في العشيرة وشيوعية العقار والانتاج فيها وان العائلة ليست الا وحدة جزئية متلاشية في

1 نقله عن هيردوتس ملر - لير ص 159

2 ملر - لير ص 167

3 ايضا ص 162 نقله عن شرادر . انظر ايضا يوسف كولر A R ص 31

العشيرة فلا بد لنا من الاقرار بان العائلة نظام اقتصادي قبل كل شيء¹ قائم على قاعدة توزيع العمل الذي ابدأ في الاصل بين الجنسين . فكان على الرجل، في عهد الانسان الصياد ومرتبته الحالية ، ان يقوم بالاعمال التي تتطلب الخفة والسرعة والمضاء وهو من متعلقات احضار الغذاء الحيواني، وكان على المرأة ان تقوم بكل نصيب الاعمال التي تقتضي الجهد والصبر والمعالجة ، كجمع القوت النباتي البري وبناء الاكواخ للصيف وللشتاء وحفظ النار موقدة وحمل الاثقال ، فضلاً عن الاطفال ، اثناء الرحلة . وهي تدبغ الجلود وتصنع منها الاردية والاحذية وما شاكل . ولولا هذا النظام التعاوني الاقتصادي لكان نشوء العائلة، الموحدة تأخر كثيراً ، على الاقل ، اذ اننا نرى في امثلة شيوعية العمل مضافة الى شيوعية الغذاء عند بعض هنود اميركا وملايا، في اشداطوار وحدة العشيرة الاجتماعية ، ان الرجل وامرأته لا يعيشان معاً ، بل يبقى كل منهما في عشيرته² وسنعود الى الكلام على هذه النقطة في الفصل التالي .

ينتج لنا من هذا الاستقرار اساسان للكيان الاجتماعي الاول هما : نظام الوحدة الاجتماعية المنصرفة الى الاهتمام بالغذاء الذي هو قوام الحياة ، بصرف النظر عن اقسام العمل وهو حق الجماعة . ونظام الوحدة العائلية المنصرفة الى الاهتمام باقتسام العمل وهو بدء تنظيم التعاون . وحالة المرأة ، على هذا المستوى الثقافي ، تدعو الى تأملنا ولسنا نجد تمييزاً واختصاصاً في الاعمال بين الرجال في هذا الطور . وفي ارقى حالاته قد نجد اتجاهات نحو احترام الكهانة والسحر .

متى تقدمنا نحو درجة الرعاية والزراعة الدنيا لاحظنا ارتقاء في نظام اقتسام العمل بين الجنسين على القاعدة المتقدمة عيها . فمن الصيد نشأت تربية المواشي التي هي اولى درجات الحصول على الغذاء اللحيمي مداورة . ومن جني الثمار والنباتات البرية نشأت الزراعة الاولى التي كانت اول تطور نحو

1 ملر لير ص 157

2 ايضاً 202

الاستحصال على الغذاء النباتي مداورة . ولما كان الصيد من خصائص الرجل فقد تولدت العناية بالحيوانات القابلة للدجن من خصائصه فاستقل بالرعاية واحوالها بينما ظل نصيب المرأة من العمل جمع الغذاء النباتي البري والقيام بالاعمال الاخرى المشار اليها كالعناية بالمضرب وضرب اطناب الخيمة وتقويضها وشد الاحمال وتحميلها او حملها :

ردت عليه اقصيه ولبده ضرب الوليدة بالمسحاة في التأد
خلت سبيل اتي كان يحبسه ورفعته الى السجفين فالنضد ¹

اما الزراعة فقد كانت من نتائج عمل المرأة وعنايتها بالنبات وهي (الزراعة) عند الجماعات الزراعية الدنيا شغل المرأة الخاص بها ، فالرجال بين اكثر هنود اميركا المنتمين الى هذه الدرجة الثقافية لا يساهمون فيها ، بل لا يزالون منصرفين الى شأنهم من الصيد وصيد السمك ² . وحيث الزراعة مصحوبة برعاية الماشية نجد المبدأ نفسه ، النساء يقمن بشؤون الفلح الزراعي بينما الرجال يرعون الماشية التي هي من خصائصهم وحدهم . وفيما سوى هذا التطور نحو الاحتراف لا نجد تغييراً جوهرياً في النظام الاجتماعي الذي يحدد جميع العلاقات بالعرف والعادة ولا نرى اقامة ثابتة وبداءة عمران .

ترك هذه الدرجة ونصعد في سلم الارتقاء الى الزراعة الاولى المتقدمة المعول عليها في المعاش . فنجد ان الاقامة التي تتطلبها الزراعة اوجدت فكرة التملك العقاري ، فكرة الارتباط بين الانسان وحقله — بين الانسان وبيته . ومن ثم اوجدت استقلال العائلة والكيان الاقتصادي لها . فخلت كفاية العائلة نفسها محل كفاية العشيرة نفسها وسمحت هذه الحالة للعائلة بالتطور

1 النابغة الذبياني

2 لمر - لير ايضا ص 209

نحو حالة البيت الكبير الى طبقة الاشراف واصبحت حاجات اهل هذه الدرجة ارقى مما قبلها . فادى ذلك الى الاخذ بتمييز العمل ونشوء طبقة الصناعات من اسرى الحرب المستعبدين عند اصحاب البيوتات الكبيرة ومن الذين لم يحصلوا على نصيب وافر من الارض الصالحة للزراعة او الذين عجزوا لسبب من الاسباب عن الاعمال الزراعية الكافية للقيام باودهم مستقلين ومعتدين على انفسهم .

وهكذا نرى التمييز الاجتماعي يقود التمييز الاقتصادي فيكون الاشراف الملاكون طبقة دونها طبقة العامة من ارقاء او داخلين في نظام المنزل القائم بنفسه . ودون هذه ، من الوجهة الاجتماعية ، طبقة العبيد . وتمييز العمل هو في هاتين الطبقتين الاخيرتين عدا عن التمييز السابق بين الجنسين في نوع العمل . ففي منزل النبيل وممتلكه نرى العبيد والصناعات الاحرار مختصين كل واحد منهم ، واحياناً اكثر من واحد ، بعمل خاص كصنع الشباك لصيد السمك وصنع الزوارق والتجارة والعمل في العزق وقطع الحطب والطبخ والخدمة المنزلية وغير ذلك من الاعمال التي يتطلبها سد حاجة المنزل المركب القائم بنفسه . وكل عائلة تقوم الان باودها وتطلب رزقها الخاص ويتعاون افرادها بتوزيع الاعمال فيما بينهم من بناء وعزق وصنع موائع او ادوات منزلية وما شاكل . فقد زالت شيوعية الغذاء والملك والعمل بزوال المساواة في الرابطة العشيرية الاولى التي لم يكن لها غرض سوى حفظ حياة الجماعة (النوع) ، ونشأ مع تمييز العمل التبادل الداخلي ضمن القرية وبين الافراد .

نرى في هذه المرتبة ان العشيرة نفسها آخذة في التلاشي في القرية التي هي بداءة العمران . ولكن الرابطة الدموية لاتزال قوية فهي قد ثبتت في العائلة نفسها التي هي رابطة دموية وفي نظام القبيلة الذي تتحد فيه القرى . وتصبح العلاقات البشرية في هذا الطور بحيث يبرز الشيخ او الامير على رأس القبيلة او مجموعة القرى المتقاربة . ومن هذه النقطة تبتدي الحياة السياسية .

ومن مظاهر هذه المرتبة في افريقية نظام التجارة المستمرة فيما بين القبائل المتجاورة المتخصصة ، كما ذكرنا (ص 74) ويكمل هذا المجتمع حاجياته بالمبادلة مع الخارج .

لا نجد لهذه المرتبة ، مع تقدمها ، حياة نفسية (عقلية) . فالناس غارقون في شؤون معاشهم وصناعاتهم والوقت الباقي يصرفونه في حفلاتهم الدينية وفي الكسل والتراخي والثروة الغريبة . ولهم هو بالحرب والسبي وخصوصاً سبي النساء . وعند هذا الحد ترك المجتمع الذي يخرج عن العمران والثقافة العمرانية .

في هذه المرتبة التي لا يزال عليها اهل بولنيسية وافريقية كان الاوروبيون وعلى رأسهم الاغريق ثم الرومان ، حين نشأت في سورية الثورة الثقافية العظمى التي كانت الخطوة الجازمة للمدينة فلننظر الان كيف حدثت الثورة السورية التي وضعت للثقافة الانسانية ابتداءً جديداً .

كل ما مر معنا في هذا الطور الثقافي من شيوعية العمل وسد الحاجة مباشرة الى الرعاية وبداءة الزراعة والاقامة ينطبق على الشؤون الثقافية للعصرين الحجريين السابق والمتأخر او على الاقل اللاحق والمتأخر ، اي ثقافة الانسان قبل ان ذر قرن عصر المعادن . ومنه يمكننا ان نقول ان العصر الحجري لا يزال متعلقاً بأذيال البشرية حتى اليوم . وإذا كانت بقايا اطواره الاولى آخذة في الزوال والتلاشي امام فتوحات التمدن الحديث فان آخر افقه المتصل باول افق العصر المعدني لا يزال باقياً . ومن الاطوار الاولى التي تكاد تكون الان معدومة ، ومن الطور الاخير البادي في الزراعة الاولى التي هي زراعة المعزق يقدم لنا علم الاقوام البشرية (الاثولوجية) براهينه على ثقافة الانسان السابقة التاريخ .

ابتدأ العصر المعدني في سورية وفي مصر وجمهور العلماء يرجحون ان مركزه كانا كلدية على مجرى الفرات ودجلة ، ووادي النيل . والكنعانيون

ايضا يعدون بين اقدم الشعوب التي عرفت المعادن والتعدين في شبه جزيرة
سبنا وفلسطين¹ وكانت لهم في الدفاع عن معادنتهم حروب مع المصريين الذين
طمعوا فيها . وفي هذا العصر ابتدأت الحضارة ترتقي بترقية احوال الفلاح
والتسميد والاعتناء بالاشجار المثمرة وتنويع الزرع .

في هذا العصر وفي هذه البقاع السورية دخل المحراث في العمل لسد الحاجة
بواسطة الزراعة فكان ذلك خطوة واسعة في الاقتصاد نتج عنها تفوق في
العمل على الانتاج فاستغني عن مقدار لا بأس به من الجهد او ، بمعنى آخر،
تحرر قسم من « الزخم » البشري من حاجة الانصباب على الارض للعناية بتأمين
مقدار الغذاء الضروري واصبح في الامكان توجيهه الى سد الحاجات الاخرى
التي ارتقت من المرتبة الضرورية الى المرتبة الحاجية . وانطلق العمران من
قيوده الثقيلة ونطقه الضيقة التي نراها في العشيرة القائمة باورها والتي لم يتحرر
منها الزارع الاولي الذي لم يتمكن من تنمية العمران الاجتماعي الى ما يزيد
عن نطاق القرية وترقية النظام الاجتماعي الى ما يزيد عن امارة القبيلة وتعيين
العلاقات بين السادة والعبيد او اقرار هذه العلاقات على الحالة التي توجد فيها .
ففي السودان نرى العمران الاجتماعي لا يتمكن من النمو بسبب تأخر الثقافة
الزراعية حتى ان زيادة السكان لا تؤدي الى زيادة في العمران ، بل الى زحام في
المعاش يضطر معه اهل المنطقة الى نبذ الفئات الزائدة منهم الى مكان قصي² .

ازداد الحاصل الزراعي بواسطة ادخال المحراث والتسميد حتى اصبح في
الامكان تغذية عدد وافر ، قابل النمو من السكان الذين اخذوا يوطدون
اقامتهم في الارض بتثبيت العمران وزيادته . فنشأت المدينة وفيها ارتقت

1 انظر ادوار ماير ، ج 2 ف 356

2 دلائل من 58

شؤون المأكل واللباس وازدادت الصناعات اليدوية واتسع نطاق التمييز الصناعي (وهذا التمييز كان ، طبعاً ، بين الذكور) فتناول صناعات عالية كصناعة الطب وفنونا كفن الحرب وفن النحت والنقش ، وفن الكتابة الاولى الهيرغليفية في مصر والمسمارية في شنعار (بابل) . وفي هذا الطور ارتقى تبادل الحاصلات والمنتوجات الداخلي الى حد عال .

يبدو انه مع كل هذا التقدم في الثقافة العمرانية ونشوء الثقافة النفسية او العقلية فان الحياة العقلية ظلت ابتدائية ومقيدة بالضروري لشؤون المجتمع ، لان وسائل تحرير العقل كانت لا تزال ناقصة . فنمو العمران واتساع نطاق التمييز العملي رقياً مستوى المعيشة ولكن الكتابة الهيرغليفية والمسمارية كانت بعيدة عن اظهار التعابير العقلية المتعددة وتقتضي عناء كبيراً في التسجيل والقراءة ولا يمكن نشرها بحيث نعم فهي ادت خدمتها الضرورية الجلى بتسجيل اهم حوادث السلطان وغزوانه واهم قوانين الدولة التي نشأت مع المدينة وشؤون العبادات الدينية ووقفت عند هذا الحد فلم تتناول نشر المعارف والعلوم ولا تسهيل المعاملات والاتصال بين شعب وشعب . وارتقاء التعاون المركب في المدينة ابقى حاجات كثيرة حاجية وكالية غير قابلة السد في المجتمع نفسه فادى هذا النقص الكبير الى اتخاذ الحرب المنظمة وسيلة للتعويض عنه . وهكذا الغزوات المصرية للاستيلاء على مناجم شبه جزيرة سيناء والحصول على ارز لبنان . وهكذا الغزوات الاشورية والكلدانية لاختذ الجزية التي كانت تحتاج اليها بلا ليط نينوى وبابل .

وسط هذه الحروب وفي هذا النقص العمراني عن بلوغ مستوى راق من الثقافة الانسانية كان الكنعانيون يتخذون اتجاهاً جديداً . انهم ساهموا في الحالة العامة التي وصفناها آنفاً ، وغزوا مصر وأنشأوا دولة منهم

فيها¹ . ولكنهم لم يفرقوا في الحروب ، بل اهتموا بالتغلب على صعوبات الحاجات العمرانية بترتيب ثقافتهم الاقتصادية على اساس زراعة راقية غنية جداً حتى سمي وطنهم الارض التي تفيض لبناً وعسلاً ، وتنبهوا باكراً الى امكانية التوسع والحصول على اكبر نصيب من كماليات العمران عن طريق غير طريق الغزو وفرض الجزية — عن طريق التجارة . فتوسعوا في ارضهم وتوجه شطر منهم شمالاً على شاطئ البحر غربي لبنان واحتل كل هذا الساحل الخصب الذي عرف فيما بعد باسم فينيقية نسبة الى هؤلاء الكنعانيين² الذين لوحتهم الشمس على رمال الشاطئ واماوج اليم ، او الى الارجوان الذي كانوا يصنعونه . انشأ هؤلاء الكنعانيون المدينة البحرية التي امتازت بصفات ثقافية خاصة ، واصبحت المثال الذي احتذته الامم التي دخلت في نطاق المدينة السورية³ كالاعريق والرومان . واهم خصائص هذه الثقافة انها توجد تلاًوما بديعاً بين شؤون سلك البحر وشؤون زراعة تتطلب عناية اكثر مما تتطلب جهداً عضلياً . فوراء المدينة في الهنترلند Hinterland قامت زراعة لها خصائص اتخذت مثالا نقلت عنه الامم الاخرى ، هي غراسة البستان التي جمعت بين الاشجار المثمرة والبقول والحبوب . ان فن البستان والكرم ، العناية بالاشجار المثمرة في تشذيبها وتحسين نتائجها هو فن زراعي

1 ان الاستنتاجات من معظم الابحاث عن الهكسوس - الذين عرفوا بالترجمة « الملوك لرعاة » - تدل على انهم كانوا ساميين سوريين اي كنعانيين (انظر ادوارد ماير ج 1 . فقرة 304 ص 315 . وسورينهم مذكرة في انبار مصرية ، خصوصاً انبار الملك منشسوت والملك ابوي (ايضاف 303 ص 313) . بدل ايضاً تأثيرهم الديني على مصر (ايضاف 304) وغريغث تايلر - كتابه المذكور 119 - 121 .
يسمى الملوك السوريين .

2 ماير ف 356 ص 422

3 دلابلاش 138

سوري ترده تقاليد الامم الى الفينيقيين ودلا بلاش¹ يقول ان عالم البحر المتوسط اقتبس هذا النوع من الحضارة عن الشاطيء السوري ما بين طرابلس وجبل الكرمل .

كانت التجارة الطور الاول للثورة السورية الثقافية فسارت قوافل السوريين الى مصر وإلى الاناضول واليونان براً وجرت مراكزهم على سطح البحر لتكتشف في غربه وشماله اقواماً لاتزال في طور الوحشية او البربرية وتنشيء معها علاقات تجارية سلمية ينتج عنها ربح مادي للمكتشفين وربح ثقافي للمكتشفين . ولم يكن هذا الطور التجاري مقتصرًا على نقل بضائع بين مكان ومكان آخر ، بل كان يقوم على نشوء صناعات عديدة ونموها كالنسيج والصبغ وصنع الزجاج وماشاكل ، فضلاً عن صناعة القوارب والمراكب التي بقيت صناعة قومية بحثة لا يقصد منها التصدير .

التجارة هي احد العوامل العظمى في تفاعل الثقافات واحد العوامل الاقتصادية الكبرى . التجارة مكنت السوريين من التعويض عن فقر ارضهم في المعادن وعن نقص المواد الخام التي يحتاج اليها مجتمعهم الآخذ في النمو والارتقاء المدني ومهدت لهم ، بواسطة ما احدثوه من فن سلك البحر ، الانتقال الى طور آخر عظيم الاثر في العمران هو طور الاستعمار الذي ادخل البحر المتوسط كله في نطاق هذه الثقافة السورية الجديدة التي هي بدء التمدن الحديث . وليس ادل على اهمية هذه الخطوة السورية المبدعة لتقدم الثقافة العمرانية وانتشارها من النظر الى حالة الاقوام البربرية التي دخلت في نطاق هذه الثقافة الجديدة عند اول عهد السوريين بها . خذ الاغريق مثلاً فان حالتهم بالنسبة الى ما كان عليه الفينيقيون من ثقافة هي ، كما يصفها هوميروس² مشابهة لحالة برايرة افريقية تجاه الشعوب التجارية الحديثة . فقد كان المركب الفينيق يرسو على الشاطيء الاغريقي حاملاً انواعاً عديدة من المنتجات المصنوعة في

1 ص 138 . اجنا ص 214

2 ذكره ملر - لير ص 174

بلاده للبس والزخرف وبعد ان يشتري التجار رضى الامير كانوا يعرضون بضاعتهم التي كانوا يبدلون بها من الاغريق مواد خاما كالقمح والخشب والجلود والمعادن الخام والعييد وما شاكل . اما البضاعة السورية فكان فيها النسيج واصناف كثيرة من المصنوعات المعدنية والارجوان الذي اشتهر وا به وغير ذلك .

من الثقافة الزراعية الصناعية البحتة التي وسعت نطاق تمييز العمل بواسطة تحرير الايدي الذي ادخله المحراث ومكنت النظام الداخلي من الارتقاء الى المدينة والدولة مع تحديد كل النتيجة العمرانية بالبيئة ، اللهم الا ما يأتي عن طريق الحرب وهو غير ثابت ، خطا السوربون الكنعانيون والاراميون الى التجارة وثقافة الانتاج التجاري التي تتصل بإمكانة بعيدة وتمتد الى موارد واسعة جداً وتدخلها في نطاقها ونسج عن هذا التطور الخطير ، عدا الاستعمار الذي اشرنا اليه ، فن معرفة العالم وما فيه من ثروات ، وترقية فن سلك البحار وربط اماكن المواد الخام بمراكز الثقافة التجارية الجديدة . فكان التقدم من الوجهة العمرانية الاقتصادية عظيماً .

ابتدأ العمل العقلي في هذه الثقافة يرجح على غيره ، فالتجارة عمل عقلي Par excellence . فكان على الذين اوجدوا الثقافة الاقتصادية الجديدة ان يبتدعوا الطريقة العملية للحياة العقلية ويضعوا اساساً جديداً متيناً للثقافة الانسانية . كان على سورية ان تكمل ثورتها الثقافية وتفتح طريقاً جديدة للارتقاء الثقافي فاستنبط الكنعانيون (الفينيقيون) الاحرف الهجائية فتمت قاعدة التمدن الحديث .

في طور الثقافة الزراعية الصناعية القائمة باود المجتمع عن طريق العائلة والتملك الشخصي نجد نمواً في النظام الاجتماعي الاقتصادي القائم على طبقات ثلاث : الاشراف ، الصناع الاحرار ، العبيد . فقد زال ، من زمان ، نظام العشيرة القائمة باودها والقبيلة التي تضم قرى وحل محله نظام الدولة الملكية ثم الجمهورية . ولكن موارد هذه الثقافة اقتصرت على بيئتها فلم تتمكن من اطراد التقدم ، لان مواد كل بيئة محدودة بذاتها . ولم تكن الحرب تعويضاً ثابها او وسيلة عمرانية لاطراد الارتقاء الثقافي . ولا نقول ان التجارة كانت

معدومة واكتنفا لم تكن عاملا اقتصاديا منظما ، بل كانت عبارة عن تبادل خاضع للنتاج الفردي غير المنظم .

اما الثقافة التجارية فانها نظمت العمل في وحدات مشتركة ووجدت معنى الرسمال الهام . كان الرسمال قبل نهضة التجارة بين الامم فرديا يستعمل في الانتاج لسد الحاجة مداورة وللتبادل الداخلي ، الذي هو من اهم عوامل عمل تنظيم المجتمع العمراني ، ولكنه لم يكن عاملا في تنظيم الاقتصاد والعمل ، اي انه لم يكن رسمالا بالمعنى العصري . ولكنه في الثقافة التجارية اصبح ذا قيمة قومية لانه تناول تنظيم العمل للنتاج الواسع بقصد الاتجار مع الامم وتمويلها بما تحتاج اليه ، عن طريق افرادها وجماعاتها ، لقاء الحصول على ما يعطي نفقة العمل ويعطي الرسمال ، نفقة تنظيمه الانتاج والاسواق ، ربما ينمي الثروة القومية التي اصبحت في هذا الطور تحت حماية الدولة . مع هذه الخطوة الواسعة نشأ الاقتصاد القومي الذي لا يزال يسيطر على المجاميع البشرية والثقافة المدنية الحاضرة .

في هذه الثقافة ابتداء كون العائلة اساس النظام العملي في المجتمع يضعف . فتوزع العمل وتميز بين الرجال اما المرأة فانها بقيت ربة البيت او ان عملها المميز هو القيام بجميع شؤون المنزل . وظلت القرابة الدموية الفاعل الاقوى في النظام الاجتماعي الاقتصادي اذ كانت الحرفة تبقى في العائلة يعطيها الاب لابنه وللأقربين اليه من بعده . وكذلك ارث الثروة كان ذلك اهم عامل في التمييز الاجتماعي وبه تحددت الطبقات تحديدا شديدا ادى الى نضال عنيف ضمن نطاق الدولة ومشادة بين الاستقراطية الوراثية وطبقة العامة . وقد تمكنت التجارة الفينيقية من ان تزيد العمل بواسطة العبيد الذين كانوا يشترونهم ويوزعونهم على الاعمال المختلفة . فظلت العائلة محتفظة بمركزها اساسا للتنظيم الاجتماعي واكتنفا لم تعد وحدة اقتصادية قائمة باودها ، بل اصبحت تعتمد على الانتاج التجاري المنظم بالرسمال الامر الذي ادى الى ما عرف بالعمل البيتي للصناعات اليدوية .

الثورة الصناعية . كان هذا التطور بداية عودة الاقتصاد الاجتماعي بدلا من الاقتصاد الفردي العائلي ، الذي لا يزال ممثلا بعض التمثيل في تجمع العائلة المتصلة الصينية وقيامها على سد جميع حاجاتها بعملها الخاص

في بقعة صغيرة من الارض المحولة الى بستان زراعي غني خصب ، ولكن اهمية العائلة الاقتصادية لم تتلاش ، في هذا الطور ، بالمرّة ، بل احتفظت بكثير من خصائصها الاقتصادية حتى مجيء عصر الآلة المعروف بعصر الثورة الصناعية فاخرج الصناعات اليدوية الباقية من بيوتها واخرج الصناع من المصانع بالآلات والالوف ، واوجد هذا العصر ، فيما اوجد ، الآلة المنزلية التي أخذت معظم عمل المرأة في بيتها وزال توزيع العمل بين الجنسين ولم يعد الزواج مبدأ اقتصاديا يقوم على تقسيم العمل ، الرجل لأعمال التحصيل والمرأة لأعمال التدبير . فاضطرت المرأة الى ايجاد عمل لها خارج المنزل بدافع الحاجة الى ايجاد عمل يشغلها وبدافع الحاجة المعاشية في نظام توزيع العمل والثروة الرسمالي الحاضر . ومن هذه الحالة نشأ تمييز العمل بين الاناث ايضا وظهرت الحركة النسائية الحديثة . وهذه الظاهرة الاجتماعية الحديثة هي السبب في حياة المرأة العصرية ، الغريبة خصوصا ، التي يريد الكتاب الذين لم يعنوا بدرس سنن الاجتماع ان يفضلوا المرأة الشرقية عليها ، لحشمة هذه وحياتها ولسفور تلك واقدامها وتطرفها .

ان الثورة الصناعية وضعت الاجتماع على اساس جديد . فهي لم تقتصر على سلب العائلة صناعاتها وصاحب الحرفة الفردية حرفته ، بل هي اوجدت المعامل والمصانع الكبيرة التي تضم مئات والوفامن العمال في كل معمل او مصنع . فنشأت في المدن والمناطق الصناعية هذه الطبقة من العمال ، التي عرفت في التعابير العصرية بلفظة «بروليتارية» (Proletariat) والتي اصبحت في العقود الاخيرة قوة سياسية هائلة ، لانها تختلف عن الطبقة الزراعية المتصرفة بالجمود التي ، لبعدها عن مراكز الثقافة المتمدنة وانتشارها على ابعاد شاسعة ، لم تتسن لها وسائل الاتحاد وتنظيم صفوفها وتكوين قوة سياسية متحركة . قادت الابجدية العالم في طريق المعرفة والعلم وتفوق القوى العقلية على صعوبات الطبيعة الى الالة الاقتصادية التي وضعت في يد الرسمالي قوة لم يكن

يحمل بها ، ففاقت قوة الرسمال المتعاضمية قوة اخرى مناقبية او مادية . فقضت هذه القوة الجديدة على النظام القديم : النبلاء والاحرار والعييد ، ووضعت نظاماً جديداً : الرسماليون ومزاوولوا المهن الحرة والعمال ، او ما يعبر عنه بالطبقة العليا والطبقة الوسطى والطبقة الدنيا .

نجد في هذا الطور الجديد ان العائلة فقدت رابطتها المتينة السابقة ولم تعد الدرجة الرابعة من القرابة الدموية ولا الدرجة الثالثة بذات بال بل ان الدرجة الثانية ايضاً لم يعد يحسب حسابها الا نادراً . والذين لا يفهمون العوامل الاقتصادية الخطيرة العاملة تحت كل مظهر من مظاهر الاجتماع ، وخصوصاً اولئك المناقبون الذين يرون المناقب اساس كل شيء ، يعدون هذا التحول الجديد ، تفسخاً من جراء الفساد .

اوجدت الابجدية والتجارة اتجاهات ثقافياً جديداً انتهى الى عصر الآلة الصناعية الذي هو عصر التمدن الحديث . وهذا العصر فسح للثقافة العقلية اوسع مجال ورقى التفاعل الاجتماعي الى درجة عالية جداً .

منذ الفترة التي ظهرت فيها الابجدية الى جانب التجارة واتحد هذان العاملان في التفاعل الاقتصادي الاجتماعي اتجه الاجتماع البشري نحو الحياة النفسية (العقلية) وسيطرة العقل على كنوز الطبيعة ومواردها . وفي هذه الحياة الجديدة تسام الامم المتعدنة . وبوجود هذه الحياة ووسائلها يمكن الآن ملايين البشر ان يفكروا في قضايا الانسانية الحيوية والاجتماعية مستقلين ومشاركين وان يشتركوا في ثقافة انسانية عامة يدهش المفكر لالوانها المتعددة تعدد القوميات وللخصائص النفسية التي تنكشف عنها في امم عددها عدد البيئات .

ومتى القينا نظرة على هذا الصرح الفخم من الحياة المدنية ، التي تبرز بعد كل فترة نصراً جديداً للانسان على اسرار الطبيعة ، المزين بكل فن جميل من رسم ونحت ونقش وبناء ودهن وموسيقى الخ ، المبطن بالاخلاق وكل ما تعني من شخصية الفرد وشخصيات الاقوام — متى نظرنا الى هذا البناء العقلي السامي الذي يمثل لنا المدنية الحديثة ، ادر كنا قيمة الثورة السورية ومعناها الكبير .

الفصل السادس

نشوء الدولة وتطورها .

الثقافتان المادية والنفسية . رأينا في ماتقدم من فصول هذا الكتاب الاسس والخطط العامة لتطور البشرية وارتقائها في ثقافتها المادية الناتجة عن تفاعل الانسان والطبيعة بقصد تأمين سد الحاجة وبقاء الذرية . ورأينا ايضاً كيف ان الثقافة النفسية جارت الثقافة المادية وقامت عليها اذ الحياة العقلية لا يمكن ان تأخذ مجراها الا حيث تستتب لها الاسباب والمقومات . ولذلك نجد التطور الثقافي بجميع مظاهره يرتقي ويسبق غيره حيث اسباب الحياة او فر وارقى مما في سواه .

ولقد تكلمنا عن الاجتماع البشري واشرفنا الى انه عريق في القدم وانه صفة بشرية عامة ، حتى ان ما قلناه بهذا الصدد ليحمل على الاعتقاد ان اجتماعية الانسان شيوعية بلا حدود او قيود والواقع غير ذلك . فالمجتمع الانساني ليس الانسانية مجتمعة ومن يدري هل يقدر للانسانية ان تصير مجتمعاً واحداً في مستقبل العصور . واذا كانت المجتمعات البشرية الثقافية تتقارب بعضها من بعض بعوامل ثقافتها فلا يزال لنا في حالات بعض المجتمعات وشؤونها الاجتماعية بقية تدل على ان « البشرية » والاجتماع البشري ليسا مدلولين شائعين بين جميع البشر . فالاسكيمو يسمون انفسهم فقط « انويت » (الناس) وكذلك هنود الينويز ينعتون انفسهم بالينويز (Illinois : بشر) ومن حكايات الاسكيمو ان الاوروبي (الغريب) نشأ من زواج امرأة منهم وذئب قطبي ¹ .

تقصينا فيما دوناه آتفا الاساس المادي للاجتماع البشري واحواله وبهذا الفصل نبدأ بدرس البناء النفسي لهذا الاجتماع . ولعل الدولة اجدر الشؤون والمظاهر الثقافية تمثيلاً للحياة العقلية التي هي من خصائص الاجتماع الانساني حتى يمكن القول ان الثقافة الانسانية والدولة صنوان .

نشوء الدولة . وبديهي ان الدولة شأن ثقافي بحت ، لان وظيفتها، من وجهة النظر العصرية ، العناية بسياسة المجتمع وترتيب علاقات اجزائه في شكل نظام يعين الحقوق والواجبات اما بالعرف والعادة - في الاصل - واما بالغلبة والاستبداد . فهي اذن شأن من شؤون المجتمع المركب ، لا وجود لها الا فيه ، وهي لذلك شأن سياسي بحت ، ومع ذلك فهي ليست شأنًا لاجتماعيًا، فكما ان الدولة لا وجود لها الا في المجتمع كذلك السياسة لا وجود لها بدون الاجتماع .

وقد اختلف في بداءة الدولة هل هي في بداءة الاجتماع البشري (بدء البشرية) او في طور معين من اطوار ارتقاء هذا الاجتماع . فقالت نظرية بان الدولة نشأت مع بدء الانسانية وقالت نظرية اخرى بانها نشأت حيثما ظهرت الفوارق الاجتماعية¹ . وقد قال ارسطو في الدولة انها تنشأ بعامل الحياة ، ولكنها تبقى في الحقيقة لتحقيق حياة حسنة الانتظام² . ومع ان البحث المنطقي العقلي يرغبنا في تتبع اسباب نشوء الدولة وردها الى الخاصة الانسانية النفسية المعينة بالتمييز بين انانية المرء (نسبة الى انا لا اسما لحب الذات) الظاهرة في استعمال « انا » وبين الظاهرة التي توجد « انت » ماثلا امام « انا » فأننا نخشى ان يقودنا مثل هذا البحث الى الابتعاد كثيراً عن النطاق المحدد لهذا الموضوع . ولذلك فكلما منا على الدولة ، اجتماعيًا، يجب ان يتخذ نقطة الابتداء في واقع الدولة اي في المجتمع المركب ولو تركيباً بسيطاً . وفي كل حال يجب الا يبرح ذهننا ان هذه النقطة وهمية فاطوار الاجتماع البشري ليست مقاطع مستقلا الواحد منها عن الآخر كل الاستقلال .

1 فيركنط ، AVV ص 1

2 ذكره ادوار ماير ، المقدمة ص 11

الدولة في عالم الحيوان . ولا بد لنا، قبل ولوج قلب الموضوع ، من الاحتياط هنا لما احتطنا له في موضوع الاجتماع البشري، نعي اتخاذ امثلة للدولة من عالم الحيوان . فمع ما في هذا العالم من اشكال التجمع المرتبة كوجود نوع من الزعامة في بعض انواع الحيوان وجماعات النمل¹ ووجود صنف معين للقتال في جماعات النمل الابيض² . فان الفرق بين حقيقة هذه الظواهر وحقيقة الترتيب المنطقي العقلي في تصنيف المجتمع الانساني كبير جداً . فالكلام على «دولة النمل» و«دولة النحل» يجب الا يحملنا على التفكير بوجود دول منشأة في هذه الحشرات والهوام . ان الدولة شكل من اشكال اشكال الكيان الاجتماعي تعلقاً بالعقل والمجاز³ فلا يجوز مطلقاً ان ننقل هذا الاصطلاح الانساني المحض الى عالم الحشرات ، لان مثل هذا النقل يجعل قياساً واحداً وقيمة واحدة لما هو ثقافي وما هو طبيعي غريزي . ومع ان العالم أرخ وسمن (انظر بحثه المذكور في الهامش) يشير بوضوح ، في بداية بحثه « الديمقراطية في دول النمل والنمل الابيض» الى الفوارق بين خصائص الانسان وخصائص الحيوان النفسية فهو لا يتورع، في مكان آخر من بحثه⁴ عن ان يجد في صغر عقل عمال النمل الابيض، بالنسبة الى كبر رأسها التعليل المنطقي للنظام «الشيوعي» في «دول» هذا النمل !

الحقوق الدولية

ليست الدولة في ذاتها مقياساً للثقافة العقلية بل بما تنطوي عليه من حقوق . فلا بد لنا من القاء نظرة على بداية الحقوق لكي نتمكن من فهم نشوء الدولة وتطورها في ظروفها . يجب ان ننظر الى الحقوق اذا كنا نريد ان نحصل

1 انظر تيودور فيقر ص 295 وما يلي . وارخ وسمن ص 320

2 وسمن ايضاً ص 330

3 فيقر نفس المكان فوق

4 ص 332

على تحديد حقيقي للدولة¹.

الجماعة والفرد. في احط درجات الاجتماع البشري وابسطها نجد الجماعة او العشيرة وعبثاً نحاول ان نجد الفرد ، فهو لا وجود له اقتصادياً ولا حقوقياً ولذلك فهو ليس بداءة الاجتماع ولا شأن له في تعيين الاجتماع و كلفيته . ولا بد هنا من الاشارة الى ان النظرة الفردية للاجتماع التي يجردها الدارس في « التعاقد الاجتماعي » لروسو هي مستمدة من حالة المجتمع بعد ظهور الفرد عاملاً فيه ، وقبل ذلك لا اختيار للفرد في الاجتماع والمجموع . فوجوده الاناني في تلك الحالة الاولى لا يظهر الا في التمييز بينه وبين غيره في بعض العلاقات النفسية (الذهنية) . ان هو الا نقطة في موجة صغيرة لا يمكنك تعيينها ، كلفية و كمية ، الا اذا فصلتها عن جسمها .

الموجة ، الجماعة ، هي كل شيء في بداءة البشرية . والجماعة في الطور الاول الذي نحن بصددده خاضعة لجميع انواع الرؤى والالهام وهذه الرؤى وهذه الالهام هي كل حياتها النفسية . لذلك نرى الحق والدين شيئاً واحداً في البدء .

الطوطمية والتناسخ . ان قرابة عرض الانسان من عرض الحيوان في هذه الدرجة جعل الانسان يحس من نفسه في نفس الحيوان . فكثرت تخيلات انتقال النفس بعد الموت الى حيوان او الى انسان آخر . ومن ثم نشأ تشخيص نفس العائلة في كائن حيواني او نباتي وهو الطوطمية Totemismus . فاختصت كل عشيرة او فخذ نفسها بحيوان - وهو الاكثر - او نبات او جبل معين تعرف به² . وفي المثال الاخير نجد اتجاهها نحو الاقامة . ومن نزول عدة عشائر لطواطم مختلفة في بقعة واحدة ينشأ الطوطم المكاني الذي يجمعهم جميعاً وينحضع له كل واحد منهم³ .

1 مكبور ، كتابه المشار اليه ص 16 . نلفت نظر القاري الى صعوبة ترجمة لفظة Law التي تشمل المنين : الحقوق والقانون

2 يوسف كولر AR ج 1 . ص 5

3 ايضاً ص 6

الزواج الخارجي . أدى الاعتقاد بتوافق الطوائف وبعضها إلى استحسان التواصل الجنسي بين رجال طوطم معين ونساء طوطم آخر . وهكذا نشأ الزواج الخارجي (ص 24) المحتم الذي اتخذ اشكالا عدة وحرّم الامتزاج الدموي الداخلي تحريماً يستحق من ينتقض عليه الموت¹ .

وقد ظل الزواج الخارجي احقاباً طويلة زواج جماعات لا زواج افراد . وطريقته ان تعتبر نساء الجماعة الواحدة مخصوصة لرجال الجماعة الاخرى النسبية . فليس هنالك عقود زواج ، بل اباحة الاختلاط بين رجال الجماعة الواحدة ونساء الجماعة الاخرى بدون حدود² . وهنأرى المظهر التام لشيوعية العمل والنتاج (ص 75) مكملًا شيوعية العلاقات الجنسية ولكن هذه الشيوعية الاخيرة محددة بالطرق والاساليب المذكورة فوق .

الحقوق الامومية . يظهر ان الزواج الخارجي كان مصحوباً بالحقوق الامومية ، في الاصل . وهذه الحقوق تعني ان الاولاد يبقون في عهدة الام ويكونون من نصيب جماعتها ، اذ ان الجماعة ، لا الفرد ، هي صاحبة الحق وليس للافراد حقوق غير حقوقها . فاذا فرضنا ان رجال جماعة معينة تزوجوا نساء جماعة اخرى فان الاولاد يكونون حصّة جماعة الامهات لاصحة جماعة الآباء . ولعل هذه الحقوق ناشئة عن الحالة الطبيعية التي توجب على الام العناية بالاولاد بينما الرجل يخرج الى الصيد والتوغل . ويرجح ان هذه الحقوق هي الاقدم وان كان ظهر ان الحقوق الابوية ايضاً وجدت في حالات قديمة جداً ، واحياناً الى جانب الحقوق الامومية .

يكون الطفل في حالة الحقوق الامومية متعلقاً بالام وعائلتها ، عشيرتها ،

1 كولر ص 6

2 ابنا ص 7

والرجال الذين يكونون الى جانبها هم اخوتها ، اخواله ¹ الذين تنشأ بينه وبينهم روابط متينة جداً .

الحقوق الابوية . هي نقيض الحقوق الامومية فالولد للرجل ، لا للام ، حتى في ابان الزواج الخارجي . ولكنها في ذلك العهد ليست القاعدة بل الشذوذ عن القاعدة الى قاعدة جديدة . وتعني هذه الحقوق في الزواج الخارجي ان الاطفال المولودين من فريق رجال جماعة ونساء جماعة اخرى يخصصون لجماعة الاباء وطوطمها ، لا لجماعة الامهات وطوطمها .

ان جميع الشعوب المتمشية على قاعدة حقوق الابوة قد خرجت اليها عن طريق حقوق الامومة التي درجت عليها . وهذا التحول حدث في ازمة ليس لنا بها صلة تاريخية مطلقاً كالذي حدث للساميين والهندجرمانيين ² من الشعوب التاريخية بحيث لم يعد ممكناً تقصي ذلك تاريخياً لا في اقدم الشرائع السامية التي هي اقدم الشرائع طراً ، كشرعية حمورابي ، ولا في اقدم التقاليد الهندجرمانية الممثلة في « الفيدا » Veda .

ومن ام مظاهر هذا الزواج الخارجي الاجتماعية كون التزاوج حاصلًا بين الاقرباء ، اي بين ابناء الاخوال .

وبعد الانتقال من الشيوعية والاباحية الى الفردية لم تضمحل الاباحية

1 كولر ص 19 . انظر ايضا ادوار ماير ، المقدمة

2 ايضا كولر ، المكان نفسه . وهذا القول افوى مما ذهب اليه ادوار ماير (ج 1 ق 2 ف 337) من ان الشعوب السامية كانت دائماً ابوية الحقوق . فقد اثبت كولر حدوث انتقال من حالة الامومية الى حالة الابوية في عتائر متجاوزة ولكن لم يتحقق قط حدوث العكس . وما يرفضه يثبت في مكان اخر (ف 338) انه حيث التجا في البادية رجل الى قبيلة غير قبيلته وتزوج منها ورزق ولداً فهم لقبيلة الام لا لقبيلة الاب . وفي القول المأثور « الولد للفراش » معنى لغير من حقوق الام . وفي التقاليد العربية دليل على الانتقال من حالة الامومية الى حالة الابوية وهو ما وقف عليه روبرتسن سميت ونقله

بالمرة بل تركت بقايا في الطقوس الدينية والعبادات ومن هذه البقايا التي عرفت في العالم السامي كله وفي الهند واماكن اخرى « بنات الهياكل » او « بنات الالهة » او « بنات الشعب » اللواتي يندرن ويكن مباحات¹ . وقد رجعت مظاهرها في الشيوعية الحديثة . وفي كل مجتمع حديث نوع من الاباحية المقيدة او السرية . يشكل صهما للحصر الذي تولده اعباء عقود الزواج .

الزواج الفردي والعقد . تطور الزواج الخارجي نحو الفردية واختصاص الزوجين وفي هذه الحالة كان لا بد من اجراء عقد للزواج . وقد يكون ما ادى الى انشاء هذه المؤسسة اضطرار بعض العشائر المتقاربة الى الانقسام او الارتحال ، مضافا اليه تولد عوامل نفسية فردية .

وقد نشأ من الزواج المجموعي نوع عرف بتعدد الأزواج ، كما نعرف عن الصابئة في بلاد العرب² . وسببه كثرة وأد البنات وقتلهن . وهذا النوع ايضا لم يلبث ان تطور نحو الزواج الفردي وقد يكون من اهم عوامل هذا التطور اقدام الرجل على اختطاف المرأة التي يريد بها . ومنذ الساعة التي ابتداء فيها الرجل يشعر بقوته وبرغبته الخاصة حين كان يغزو ويعود ظافرا بالاسلاب والسبي اخذ يخضع المرأة لارادته ورغبته وهكذا اصبح الرجال قوامين على النساء ووجدت هذه الحالة التي لا تزال سائدة في بلاد العرب طريقا الى الاسلام وثبتت فيه كما ثبت فيه الاخذ بقراءة الرضاع التي هي من مصاحبات القرابة الدموية في الشعوب التي لا يزال اجتماعها اوليا . والفضل في نشر هذه القرابة في العالم يعود الى الاسلام بعد ان كانت منحصرة في القبائل العربية وفي القوقاز³

الزواج بالسر . ادى اختطاف المرأة في الشعوب الاولى وفي الحالات

1 كولر ص 9

2 انظر ماير ، ج 1 . ق 2 ف 337 و 338 . ايضا كولر ، فوق ص 82

3 ايضا ص 22 . ايضا كولر ص 89

الاولية للشعوب المرتقية الى شراء الرجل المرأة . ومع ضياع حقوق المرأة في حالة الاختطاف وحالة الشراء تمكنت سيادة الرجل وحقوقه التي اخذت تفعل في تطوير العائلة وما تنطوي عليه من حقوق ورائة وغيرها .

ومن هذا الشراء الاولى تطور الزواج ، مع ارتقاء المجاميع البشرية ، نحو الهدية والعربون وما شاكل مما اعاد الى المرأة مركزها الشخصي وازال عنها صفة السلعة . وفي المجاميع المتقدمة تحول معنى ان الرجال قوامون على النساء الى قصد العطف على المرأة والاخذ بناصرها ، لا التصرف بها .

الاستعباد . يظهر ان الاستعباد نشأ من الغزو والسبي . ولعل المرأة المسبية كانت اول من استعبد من البشر . والاستعباد عموماً ليس قديماً جداً في العالم فهو غير ممكن وغير مفيد الا في طور ثقافي مرتق نوعاً . انه نشأ مع تحول الجماعة الى الزراعة والاقامة اللتين يمكن فيهما الاستعباد ويفيد . ونحن نرى ان العبيد يؤلفون عنصراً هاماً من عناصر الثقافة الزراعية الاولى فهم الصناع الاول الذين تميز بينهم العمل حرفاً خاصة فأقامهم سادتهم في منازلهم وفي حقوقهم كما اشرنا الى ذلك في الفصل المتقدم ص 77 .

وقد كثر الاستعباد في الازمنة التاريخية فآخذ الفينيقيون عبيداً يكلون اليهم العمل في صناعاتهم وتجاراتهم وزراعاتهم . ولعل الاستعباد عندهم كان ارحم لانهم كانوا اهل تجارة واسعة ، واستخدم العبيد في الشؤون التجارية أخف وطأة منه في الشؤون الزراعية . واستعبد الاغريق واقتبس الرومان عن الفينيقيين في افريقية فوائد استخدام العبيد في الزراعة وقلدوهم في هذا المضمار¹ وتضخم الاستعباد في رومة حتى انفجر عن ثورات اروعها ثورة نشبت في صقلية على اثر الحرب الفينيقية Punic الثالثة وبطلها رجل سوري اسمه بالاغريقية يونس استوحى الهة سورية لاثارة العبيد زاعماً ان الالهة

السورية جميعها دعت ليتها ملكا . وبالفعل انشأ يونس مملكته فجرد جيشه على الجيوش والمدن وانحن فيها ودوخ البلاد ونادى بنفسه ملكا باسم انطيوخس تيمناً بالامبراطور السوري السلوقي الكبير ، وسمي اتباعه سوريين¹ ولكن ملكه كان قصير الاجل ولم تنجح حركته التحريرية الا فترة قصيرة .

الثأر . نرى في حياة الجماعات الاولى منذ العهد الطوطمي ، ان الحقوق الجزائية تناولت شكلي العلاقات الاجتماعية الخارجي والداخلي ، الاول لما يحدث من قبل جماعة او بعضها لجماعة اخرى والثاني لما يحدث من قبل افراد في الجماعة نفسها . وكثيراً ما تؤدي هذه العوارض الى حروب بين العشائر والقبائل المتجاورة طلباً للثأر . وسببه الاصلي طلب التعويض عن الخسارة التي منيت بها عشيرة المصاب فاضمة عنها في عددها تجاه العشيرة الاخرى . ولا يبحث في مثل هذه الاحوال عن الحق والذنب والاعتداء كيف وقع بل تطلب العشيرة او القبيلة الحاق خسارة مثل خسارتها بالعشيرة او القبيلة التي خرج منها الاعتداء او القتل . وكل مقتول هو للعشيرة اعتداء عليها هي .

والثأر يؤلف وجهة الحقوق الجزائية الوحيدة في الشعوب الاولى او المنحطة . وهو يدخل التقاليد ويرتقي فيها كما نجد عند العرب الذين ملا الثأر تقاليدهم وحكاياتهم وقصائدهم حتى اصبح واحدهم يكاد لا يعيش لشيء الا « ليدرك ثأراً او ليدرك مغناً » .

ويظهر جلياً سبب الثأر المذكور آنفاً في شعر لحسان بن ثابت وهو :

وشريف لشريف ماجد . لا نباليه لدى وقع الاسل !

فالثأر ليس للقصاص من اجل العدل الاجتماعي بل للتعويض عن الخسارة . واصبح تقدير هذه الخسارة مضماراً للعسابقة الشعرية والتفاخر بين القبائل :

نمحن قتلنا سيديهم بشيخنا سويد ، لما كانا وفاء به دما¹

وقول الآخر :

اصبنا به من خيرة القوم سبعة كراما ولم نأكل به حشف النخل²

اما في قبائل غينيا الجديدة فالتأثر يجب ان يتصل بالواتر ولو بعد قتل عدة من اهله قبله³.

وقد ادى تأصل عادة التأثر والمغالاة به الى حروب كثيرة لم يوقفها الا نشوء عادة التعويض المادي عن الخسارة اي الدية⁴ او «تعفية الكلوم» كما في قول زهير بن ابي سلمى:

تعفى الكلوم بالمثلين فاصبحت ينجمها من ليس فيها بمجرم

اما الحقوق الجزائية الداخلية اي التي تتعلق بما يرتكبه الرجل في عشيرته وقبيلته فشأنها يختلف عن حقوق الجزاء الخارجي . والسبب عامل حفظ النوع المصغر في العشيرة او القبيلة . فالانسانية والاجتماع الانساني لرجل العشيرة او القبيلة هما عشيرته او قبيلته . وهذا العامل يهم الجماعة في مصيرها ولذلك لا يكون ضمن العشيرة حرب وقتال في سبيل الثار . والقبيلة تحتاط لنفسها ضد اهل الشقاوة الداخليين بطردهم او برفع حمايتهم عنهم .

وقد وجدت الجماعات الاولى مخرجا مما يجر اليه التأثر في حقوق الاجارة ، خصوصاً في المجاميع التي اخذ فيها نظام العشيرة ينحل في القرية الى نظام العائلة الفردية والتأثر الفردي .

1 الاغاني 17 : 116 راجع ايضا 15 : 73 - 75 . 16 : 32 . 53 - 54

2 ايضا 16 : 56

3 كولر ص 37

4 كولر ص 98 . فيركنظ ، رساله المذكورة ص 12

في الدولة

واقع الدولة . اثبتنا فيما تقدم صورة للحقوق الاهلية التي هي نتيجة القوى المنافسة التي تعمل في المجتمع لتأمين سلامته . وفي هذه الحقوق لا نجد الدولة بل المجتمع واوهامه (دينه) وعاداته . ولسنا نجد واقع الدولة الا حيث نجد في المجتمع قوة فيزيائية تخضع او ترهب ¹ .

ولكن لا بد لنا هنا من العودة الى ما قلناه في اوائل هذا الفصل من انه لا يمكن تعيين حدود حقيقية فاصلة بين طور من اطوار الثقافة الاجتماعية وغيره . ففي رجوعنا الى اوائل عهد الدولة نظل نتوغل في الماضي او ننحدر مراقبي الثقافة حتى نبلغ نقطة تلتقي عندها السياسة بالاجتماع فكانها شيء واحد . ففي الشعوب التي لا تزال قيد الفطرة ، بالنسبة الى الشعوب الثقافية ، نجد نقطة الاتصال بين الدولة والمجتمع في الطوطمية (ص 77) ففي تقارب الطواطم بعضها من بعض واتحاد عشائرها في الزواج وانشاء الطوطم المكاني ، الذي يجمع الكل في متحد اجتماعي ينقسم الى طواطم فرعية نجد نظام الدولة العشائرية او القبلية التي لا يكون جزءاً منها الا من هو ابن العشيرة الداخلة في هذا النظام ² .

يبد ان هذا الاتحاد لا يكفي للدلالة على واقع الدولة . فقد تجتمع العشائر

1 فبركنط ص 2 . وقد تصرفنا في عبارته الاصلية القائلة : « قوة فيزيائية يستخدمها المجموع للاخضاع ، او على الاقل ، للتهديد بها » لاننا لا نجد الدولة دائماً آلة في يد المجموع ، كما سنرى ، بل كثيراً ما نجد العكس .

وليس لها في تنظيم احوالها من الوسائل سوى المناقبية منها ¹ . وهي العادة والعرف والتسليم للاوهام . ويندر الخروج على هذه القوى بين الافراد اتساوي النظر في الحياة ونقص الاستقلال النفساني في الجماعات الاولى ² . ورويداً رويداً نبتدي . نلاحظ ظواهر اجتماعية جديدة نشأت مع الاستئثار بالمرأة والبطولة في المعارك والاقدام في الصيد وهذه الظاهرة هي : قيام الرأس ، او الشيخ ، على العشيرة . فان الشيوخ قضوا على ما كان باقياً من دستور الطوطم وانشأوا المملكة الخاصة او بالحري الامارة ، واسسوا سلطتهم عليها ³ وفركنط ⁴ يزعم ان الرؤوس يظهرون في تركيب دولي اعلى من الدرجة الاولى تنفرع منه وحدات اصغر منه . ومما لا شك فيه ان الدرجة التي يظهر عليها الشيخ هي فوق درجة الطوطمية ، اذ تكون المشيخة قد قضت على الطوطمية . ولكننا هنا فقط نجد صورة الدولة في ما يمكن ان نسميه سلطة ، او اداة تنفيذية ، او قوة فيزيائية .

فوارق السلطة . كل دولة مهما كانت بسيطة تتألف من ثلاث وظائف : تشريعية وتنفيذية وقضائية ، تقوم على ثلاثة اصناف « سياسية » لكل مجتمع له ابتداء دولة هي : الجنس والسن والشخصية ، يضاف اليها ، مع تقدم العمران ، صنف العبيد . وكان طبيعياً ان يعين الجنس الدولة ، اذ لما كان اهم عناصر الدولة القوة التي بها تتم السلطة كان بديهياً ان يقوم الجنس القوي - الرجال - بامر الدولة . اما المرأة فمع انه كان لها حرية في تصرفها في عهد الزواج الشيوعي الاجتماعي فهي لم تكن تشترك في الحياة السياسية الا نادراً واندر منه ان يكون لها تفوذ راجح فيها . والعبيد ايضاً لم يكن لهم شأن قط في الحياة

1 فركنط ، ص 2

2 ايضاً نفس المكان

3 كولر ص 34

4 بحثه ص 4

السياسية ، اللهم الا المشاكل العديدة الناشئة عن وجودهم و كثرتهم .
ان الصنف الهام الذي كان له التأثير الارجح هو السن . فحيث الحياة
تجري بالاختبار المباشر يكون للسن اهمية فاصلة في البت في شؤون المجتمع
السياسية ، وكلما ارتقت الشعوب في حياة الاختبار مداورة وتشعبت العلوم
وتراكت موادها بفضل الابجدية ، هبطت اهمية السن من حياة المجتمع
السياسية .

يأتي بعد السن ، وفي درجة اعلى منه ، الشخصية . ومع اننا نعلم ان
شخصية الفرد من وجهة نفسية (عقلية) عصرية لا وجود لها في الاقوام
الآخذة بالفطرة فان الفوارق الشخصية فيها ليست معدومة بالمرة . ذلك لان
المواهب الطبيعية ليست عقلية فقط ، بل فيزيائية ايضاً . فتفوق بعض افراد
العشيرة او القبيلة في حروبه وغزواته يكسبه شخصية بالنسبة الى حالة عشيرته
او قبيلته الاجتماعية . وهكذا نجد وظائف الدولة تقابل بتشكيل الدولة
من الشيخ او الامير وشيوخ القبيلة او العشيرة واجتماع الشعب . وحيث يتسع
نطاق الدولة يسقط اجتماع الشعب ويبقى الامير والشيوخ . ولا يعني هذا
التقسيم مطلقاً ان هنالك توزيعاً لوظائف الدولة يجعل السلطة التشريعية او
التنفيذية في الامير او مجلس الشيوخ على ان يكون كل منها مرجعاً خاصاً
لاحدهما وكذلك القضاء .

الاتصال بعالم الارواح والشرع والقضاء . يصعب كثيراً على السوري
العريق في المدنية والفلسفة العقلية ان يتصور اليوم حالة الاوهام التي كانت
للانسان الاول والتي لا يزال عليها بعض الشعوب الابتدائية الملازمة للفطرة . فان
الرعب والوهم وهو اجس الخوف والحياة تجاه الطبيعة الفائقة القوة ولدت في
الانسان الفطري تصور قوى مغيبة تسيطر على الطبيعة والروح الانسانية .
وقاده هذا التصور الى محاولة اتقاء شر هذه القوى الخفية بتخطيط قواعد
لحياته . وهذا هو اصل العقائد الروحية التي اخذ الانسان المرتقي يعالجها

حتى بلغ بها فكرة الله ، ثم هو اخذ الان في معالجة هذه الفكرة نفسها
ليجعل من الدين مثلاً اعلى جميلاً ، خالياً من صور الرهبة والتهويل مجرداً
من المشوّهات المذهبية .

ادى تصور القوى الخفية الخيفة الى عقائد غريبة منها عبادة الاجداد
وتصور عالم ارواح تأتي منه الروح وتعود اليه . ولم يطل الوقت حتى نشأ
سلك السحرة والعرافين ، اسلاف الكهنة والقسس والانبياء . فكان لهم تأثير
كبير على المجموع باعلان ارادة عالم الارواح الذي كانوا يدعون الاتصال به
وهكذا تمكنوا من انشاء عادات جديدة واتخذوا لانفسهم صلاحية اصدار
الاحكام باسم الارواح المحجوبة ، باسم الآلهة .

وليس قليلاً تأثير الاعتقاد بالارواح وبالاتصال بارواح الجدود على
الحقوق الاولى وممارستها خصوصاً فيما يتعلق بالتأثر ومنه الاثر الآخذ في
الزوال من الادب في سورية الظاهر في المجاز : « عظام الجدود تنتفض في
قبورها » . ومن مثل هذه المعتقدات انشئت مؤسسة الطابو Tabu السحرية
التي صار لها تأثير كبير على الحقوق « المدنية » والادارة العامة كما سيأتي .

وهكذا نجد ان التشريع كان يستند في البدء الى السحر والعرافة (الدين) ،
فضلاً عن العادة التي هي اول القوانين . فيكفي ، لدى الشعوب الفطرية ، ان
تعلن سابقة او وحي من عالم الارواح تعزى الى بعض الجدود المشهورين¹
لسن قانون جديد . وان من اهم قوانين الجماعات الاولى : ما مشى عليه
الاجداد . فالاجداد مقدسون ، بل هم آلهة ، وكل ما كان جيداً لهم يجب
ان يكون جيداً للابناء .

ولكن هذه الجماعات ، او المتقدمة منها ، لا تعدم سن القوانين بالاستنباط

الفردي ، كما يجري في بعض قبائل شرقي استراليا ، حيث تجتمع عشائر القبيلة في وقت معين من السنة فيقترح احد الشيوخ رأيا قد يكون بحته مع هيئة شيوخ عشيرته فاذا لاقى اقتراحه الاستحسان صار قانوناً¹ وفي الجنوب الشرقي من استراليا يقوم مقام الراس في طرح الاقتراح الساحر او العراف الذي يدعي انه قد رأى في نومه او انه قد اوحى اليه .

الشكل الديمقراطي . للدولة ثلاثة اشكال رئيسية هي الديمقراطية والاولى طقراطية والارستقراطية . او هي حكم الشعب وحكم الفرد المطلق وحكم الاقلية المفضلة . وفي اوسط وأولى حالات الدولة التي هي ايسط حالات التطور الاجتماعي نجد الشكل الديمقراطي للدولة في العشيرة او القرية ، حيث يمكن اجتماع الشعب كله . وحيث الدولة اوسع من القرية او العشيرة فالعشيرة او القرية تتمتع باستقلال اداري تام فالطوطمية تزول ولكن الاساس الذي قامت عليه يبقى .

تألف شكل هذه الدولة الديمقراطية من الرأس ومجلس الشيوخ او مجموع الشعب . ومجلس الشيوخ تألف من رؤساء البيوت او العائلات او العشائر التي هي من صلب القبيلة . وفي هذه الحالة يكون الرأس مقيداً برأي المجلس او الجماعة . وفي الدولة القبيلة او الارضية المتسعة لا سبيل لاجتماع الشعب فيكون الشأن دائماً للشيوخ . وهذا الطابع هو من خصائص دول الشعوب الفطرية التي لا قياس لها في المجتمعات المرتقية العمرانية . وهو شكل يجمع بين شكلين : ارستقراطية السن والتمثيل الشعبي . فان امتياز الشيوخ يكاد يكون طبقة ارستقراطية في حين ان علاقتهم بالشعب متينة الى حد يكتسبون عنده صفة التمثيل والنيابة² وعلى هذا اكثر الشعوب الصيادة وجامعة القوت في استراليا والاسكيمو وهنود اميركا والشعوب المتبدية في آسيا وافريقيا³

1 فيركنط ص 5

2 ايضا المكان عنه

3 ايضا المكان عنه

وظهور هذا الشكل في اقل الشعوب ثقافة يعطينا الدليل الاثنولوجي على اسبقية الديمقراطية واذا كانت الشيوعية قد سبقتها ، كما رأيت فيما تقدم من هذا الفصل ومن الفصل السابق ، فتلك حالة اجتماعية بحث لا نظام سياسي .

الشكل الاوطقراطي . ان الشكل الديمقراطي المتقدم وصفه هو من خصائص الجماعات الاولى والشعوب التي لا قابلية لها لانشاء الدولة الارضية المنظمة (Territorial) او التي لا تمكنها احوالها من ذلك . وهو فوق ذلك يدل على انصراف الى نوع من الحياة بعيد عن الحرب والفتح والتوسع . ولعل الحرب ادعى الامور الى نشوء الشكل الاوطقراطي ولعل الملكية الصغيرة نشأت على يد البطل الحربي الظافر¹ . وليس اوهى من النظام السابق في الحالات الحربية التي تقتضي دفاعاً شديداً ضد عدو قوي او اعداد حملة منظمة على بلاد . ولذلك يرى في بعض القبائل تنظيماً ثنائياً يقابل حالتي السلم والحرب فلحالة السلم رأس ضعيف القوة وللحرب رأس واسع السلطة² . ومن تحول سلطة هذا الاخير الى الثبات والاستمرار ينشأ الشكل الاوطقراطي . وبعد نشوئه لا تبقى له حاجة الى شرط بقاء الحرب ، فيصبح الرأس اميراً مطاعاً في الامر والهي وفي يده الحياة والموت . ويصبح المبرر لوجوده نسبة او حسبه او ثروته او ظهور سلطة له على القوى الخفية من عالم الارواح . وبرز صورة لهذا الشكل تبدو في دول الزنوج الاستبدادية . فالرأس او الامير سرديني (سحري) . وفي بعض القبائل يحتجب شخصه عن الناس ويشدد في ذلك حتى ليجازى من رآه يأكل بالموت³ .

ولكن الشكل الاوطقراطي لا يكون دائماً بهذه الفظاعة . ففيه ايضا مجال للاجتماع الشعبي العام وللشورى . وتضعفه بعض العادات الراسخة في

1 ليوبولد ونقر AVV من 18

2 فيركنط من 7

3 كورل من 35

التقليد كعادة اقضاء المراهق عن المجتمع الى البرية ليتعود الاحتمال والمحشونة فيتكون من مجموع المراهقين نوع من جمعية تضمهم في احوالهم الخاصة ، ثم لا تلبث ان يصير لها شأن في المجتمع ¹ . ولا يستطيع الرأس الحاكم بامرہ التخلص من وظائف الشيوخ الشورية . والموظفون في دائرة الجباية والنظر في بعض المصالح يمزج في خدمتهم الامير تمثيل المصالح القائمين عليها ويكونون الواسطة لا بلاغ رغائب التابعين الى الامير .

الاقطاع . في الدول الاوطقراطية التي تتغلب على ما جاورها يظهر الاقطاع بشكل ولاية لرجل من اهل الامير يصرف بالمقاطعة الموكلة اليه بمطلق ارادته ² ، يأمر وينهي ويجبي كيفما شاء . ويكون طابع هذه الدولة استبداديا ولكن هنا ايضا تدخل عوامل تضعف الاستبداد منها اجتماع الاشراف ووجود مجال لاجتماع الشعب ايضا . واحيانا ضعف الامير وعجزه عن القبض على ازمة الامور بقوة . وهكذا نجد عنصر الديمقراطية حتى في الدولة الاستبدادية الا ان هذا العنصر يكون من حظ الفاتحين فقط ، اما المغلوبون فعليهم الطاعة والخضوع . وطريقة اجتماع الشعب الديمقراطية تكون بالاجتماعات المعقودة في القرى برئاسة شيخ القرية للبحث في شؤون القرية الداخلية . ويكون فوق هذه الاجتماعات اجتماعات اكبر لكل منطقة الدولة لحل الاختلافات التي لا يمكن حلها في الاجتماعات القروية ³ .

الشكل الارستقراطي . ترتقي من الشكليات المتقدمة الى الشكل الارستقراطي عن طريق الاقطاع . وينشأ هذا الشكل في ارقى الشعوب الفطرية ثقافة كالبنوانسيين الذين لهم زراعة واقامة ، وفيهم تنشأ البيوتات الكبيرة الجامعة العبيد والارقاء والقائمة باود اهلها منفردة . فهنا نجد للدولة ملكاً او اميراً والى جانبه طبقة النبلاء التي تفصل بينها وبين العامة شقة بعيدة.

1 كورس ص 15 - 1 . فيركنط ، بحث

2 فيركنط ص 9

3 ايضا المكان ع

والشعب يرى في الامير سر قوة الهية فلا يتقدم اليه الاتباع الا ركعاً . وله سلطة على الحياة والموت . الا ان سلطته تخف جداً تجاه الاشراف الذين يهتم امرهم والذين كثيراً ما يؤلفون مجلس شورى يقيم بعض الحدود للسلطة المطلقة التي يتمتع بها الامير .

ادارة الدولة . هكذا الدولة الاولى في اشكالها السياسية . ولا بد لنا لا كمال نظرتنا فيها ، من لمحة تتناول ادارتها . وهي ضئيلة جداً ، لان الادارة ظلت متأخرة جداً عن النظام الدستوري للدولة ، ولذلك لا يصح مطلقاً ان نطلق على الدولة الاولى اسم منظمة فهذا الاسم تحتفظ به الدولة التاريخية التي شكلت الادارات وسجلت الحقوق القانونية .

ولا شك في ان العادة وما مشى عليه الجود شكلاً قسماً كبيراً من الادارة وعاقا نشوء الادارة الفعلية . ومن هذه الجهة تبدو لنا اهمية الرأس او الامير حيث الوظائف والمكاتب الادارية معدومة . فحين يكون الامير قويا طموحاً تمتد الدولة وحين يكون خامل الهمة تضعف الدولة وتقلص .

والعقائد والالوهام الدينية (السحرية والخرافية) تلعب دوراً هاماً في عرقلة تقدم الادارة ، فننوذ السحرة كبير وتسلطهم على العامة عظيم حتى ان رأس الدولة في المرتبة الديمقراطية يتخذ لنفسه وظيفة الساحر ويستمد من هذه الوظيفة نفوذاً ادارياً لا يستهان به . ولكن ليس كل الرؤوس مؤهلين للاعمال السحرية ولذلك تظل الكهانة قائمة وتتخذ لنفسها وظائف دولية كالقيام بنصيب من التشريع .

واننا نرى سياسة الدولة الاقتصادية تستند على الدين فتتخذ من الطابو وسيلة لحفظ حقوق الامتلاك فاستخدمته اقوى الطبقات الاجتماعية لمنع الناس من استعمال او استثمار بعض المناطق والممتلكات . والطابو مستمد من الاعتقاد بالاتصال بعالم الارواح الذي هو من خصائص السحرة . فتطوب الممتلكات وتصبح محرمة فكل من اعتدى عليها يخرق حرمة الطابو ويعرض نفسه لغضب طام الارواح ، ثم ارتقى هذا التعريض الى ازالة العقاب الديني

بكل من تسول له نفسه انتهاك قداسة الطابو¹ .
وتتناول الادارة عدا ما تقدم «دخولية» السوق فيعين الرأس او الامير
حراسا ليحققوا من نزع سلاح القادمين الى السوق وقضاة لحل المسائل
الحادثة اثناء السوق ويفرض الرأس ضريبة «الدخولية» وضرائب اخرى
ينزها بالقوم المغلوبين . وفي الدول الاستبدادية تتخذ الضرائب شكلا من
السلب لا يقتصر على مؤدي الجزية بل كثيراً ما يقتناول اتباع الامير انفسهم

في الدولة التاريخية

يظهر لنا في ما تقدم صورة جليلة لكيفية نشوء الدولة بعامل الحياة الانسانية.
ومنذ نشأت الدولة اصبحت هي شخصية المجتمع وصورته ، يعظم بعظمتها
ويصغر بصغرها واننا نرى ابن خلدون في مقدمته قصر اجتهاده على تعريف
شكل واحد للمتحد الاجتماعي هو الدولة . فالدولة هي التي صهرت جماعات
متباينة في بوتقة واحدة وكونت من المزيج وحدة نظامية حينما مكنت من
ذلك البيئة ووجهة الحياة . والحقيقة ان الدولة ما كادت تشعر بوجودها
وكونها سلطة في المجتمع حتى اخذت تسيطر على المجتمع وتصرفه في اغراضها.
الدولة هي التي تشكل المجتمع وتعين مداه وتكيف شؤون حياته وتمثل شخصيته.
هكذا نجد الدولة المنبثقة مع فجر التاريخ ، وهكذا تنشيء الدول التاريخ.

يبتدي عهد الدولة التاريخية ، في الاقوام الثقافية الخارجة من العصر
الحجري الى العصر المعدني ، وهي الاقوام السامية في سورية (بابل وارض
كنعان) والحامية في مصر ، كما اشرنا الى ذلك سابقاً ص 99 ، بالانتقال
من التنظيم العشائري الى دولة الارض وبحول الامير ذي القوة السحرية
الخرافية الى ملك هو الاله او كاهنه الاعلى ، هو بهاء الشمس المشرقة . ففي

الاساطير المصرية ان الالهة انشأت الدولة المصرية ، كما انشأت العالم وانظمتها ¹ وفي المملكة المصرية الجنوبية ، قبل ميناس بزمان ، نجد هورس ، اقدم اله مصري قومي ، متجسداً في الملك ² ويذهب ماير ³ الى ان الحالة في المملكة الشمالية لم تكن تختلف عن هذا الشكل .

الدولة الاسفردية وعمره الاسرطورية الاولى . الحقيقة اننا لا نتقل دفعة واحدة من مرتبة الدولة الاولى الى مرتبة الدولة التاريخية الناشئة في سورية (بابل واشور) وفي مصر ، بل هنالك مرتبة وسطى لا بد لنا من الالماع اليها هي مرتبة دول الشعوب المتوسطة بين الشعوب الاولى والشعوب الثقافية . على هذه المرتبة المتوسطة نجد امبراطورية الازتك المكسيكية الدالة على طور ثقافي عال نوعاً . فان شعب الازتك كان قد اخترع كتابة خاصة لا علاقة لها بكتابة الشعوب الاسيوية لها مزية قابلية التطور نحو الكتابة الصوتية المقطعية ، وانشأ دولة واسعة الاطراف بقي لنا منها قسم من كتاب في الحقوق الجزائية لعهد الملك « نزا هو الكويتل » الذي ملك من 1431 الى 1472 ⁴ . وكان لهذا الشعب عادات تشابه عادات العالم القديم كعادة الختان والمعمودية بالماء .

وفي هذه الدرجة ايضاً امبراطورية الانكا البيروانية وهي امبراطورية قامت على الحرب والفتح وملوكها آلهة . يتحدرون من الاله الشمس ومن تقاليد ملوكهم تزاوج الاخ والاخت وفاقا للتقاليد الدينية . والملك هو في الوقت نفسه رئيس كهنة الشمس والروح الكونية . ويجيء بعده سلك من الكهنوت لا بأس بترتيبه . ولكن الانكا ، اجمالاً ، احط ثقافة من الازتك

1 ادوار ماير . ج ١ . ف 192

2 اجنا ف 199 . كولر ص 66

3 ص 199

4 كولر ص 51

فليس لهم كتابة¹ .

ومن الشعوب الشقيقة للشعوب الثقافية ولم تتمكن ، لظروفها الخاصة ، من بلوغ مرتبة الدولة الثقافية التاريخية : العرب والمغول . ففي بلاد العرب اوجد محمد الدولة الدينية التي ما لبثت ان انتقلت الى خارج بلاد العرب حيث دخلت في حوزة الشعوب الثقافية المنشئة الدول . وفي بلاد المغول المشهورين بغروسياتهم وقوة سياسيتهم نشأت بعض الدول التي دخلت التاريخ وقامت بفتوحات واسعة ، خصوصاً في الصين ، التي دخلها اتباع جنكيزخان ، والهند . ولكن شعوب المغول الباقية ، كالقلموق ، فان دولتهم تشبه الدولة في بلاد العرب من حيث انها دولة قبائل يؤلف العرف نصوص حقوقها والاوامر والنواهي الدينية شرعها . وقد عرض ابن خلدون ، في مقدمته ، لاسباب التي تحول دون نشوء الدولة في العرب ومن في حكمهم الاعلى اساس دعوة دينية ولكنه لم يستوف هذه الاسباب .

واننا نجد الدولة التاريخية نفسها مستندة في بدئها الى اساس ديني حتى اننا نجد شهاً عظيماً بين ملوك مصر قبل ميناس وملوك الانكا في اميركا الجنوبية ولكن الدولة التاريخية استمرت وتطورت مع تطور الشعوب . طبعت الدولة التاريخية في بدء نشوئها بطابع الاستبداد ، لان الدولة بطبيعتها قوة والقوة تطلب دائماً السيطرة . وطريف شيلدر - ابه² يقول ان الاستبداد هو المبدأ الاساسي للاجتماع الانساني والحيواني والنباتي ، بل وللجماد ايضا . ويزيد ان الاستبداد هو الفكر الاساسي للعالم . وما نريد ان نتوغل هنا في مثل هذه المذاهب الفلسفية في طبيعة الدولة والاجتماع . ولكننا نقول ان الدولة الشاعرة بقوتها في عهد لا ارادة ظاهرة فيه سوى ارادتها لم يكن

1 ك ل ص 52

2 ABS ج 2 ص 82

لها مندوحة عن الاستبداد . فهي كانت شيئاً فوق المتحد الاجتماعي وكانت تدعي سلطة من عالم فوق هذا العالم . اما الارادة العامة التي هي من خصائص كل متحد فكانت شيئاً اما باطنياً واما كامناً . ولم تكن الدولة فقط تدعي سلطة الله ، بل كان الناس يعبدون الملوك عبادة . ففي الدولة المصرية الوسطى اوصى أب أولاده: مجدوا الملك في قلوبكم ، فهو اله الحكمة التي تبصر عيناه ما في القلوب ، هو رع الذي نبصر لمعانه ، هو يضيء مصر اكثر من الشمس ويجعل الارض اخصب مما يجعلها النيل الكبير ، هو يطعم عابري سبيله . الملك روح خالق وباري الناس الخ¹ . وكما اوجدت الآلهة المملكة المصرية كذلك اسست الآلهة مملكة حمورابي واسلافه فهي لا تزول حتى تزول السماء والارض ، كما يقول الملك نفسه² .

لا مجال ، في هذا البدء التاريخي للدولة ، في هذه الدولة التي اسستها الالهة ، لتعريف القوة السائدة بانها « من صفات الارادة العامة التي عظمها الاتحاد في القصد »³ . فالقصد هو قصد الدولة ، قصد القوة السائدة المسيطرة ، قصد الملك الذي استأصل شأفة الثار وجعل الحقوق الجزائية من شأنه⁴ وانشأ الجيش وسيره للفتح والسلب . وتصريف شؤون الدولة امر متفق عليه بين الملك والاله المتجسد فيه .

لما كانت هذه الدولة القائمة بارادتها قد نشأت في مهد الثقافة ، في الشرق الأدنى ، خلط المؤرخون والدارسون القدماء بين طبيعة الدولة وطبيعة الشرق ، بين طور من اطوار الثقافة والشعوب المنشئة الثقافة بين الشعوب المتقدمة والشعوب الجامدة . ولا يزال هذا الخلط يردد حتى الان .

سارت الدولة التاريخية نحو الامبراطورية بعامل مبدأ القوة . والدولة المتسعة كانت تمثل انتصار فكرة القوة في السياسة على فكرة العدل فيها⁵

1 ونفر AVV ص 21

2 اجناس 20

3 مكبور كتابه المذكور ص 14

4 كولر ص 57

5 مكبور اجناس ص 25

فقد تمخلت الدولة عن تلك الديمقراطية الاولى الملازمة لحالة كل اشكالها وقواها رهن القوت الضروري ، واتخذت من اسباب الثقافة المرتقية في اعمال الانتاج والخزن وسيلة لتنفيذ ارادتها . وهكذا تمت لها السيطرة التي اصبحت محور المزاحمة بين طبقة الملاكين الارستقراطية والملك . ولكن سياسة الامبراطورية كانت في جانب الملك لما تقتضيه من التمرکز خصوصاً حينما كانت الخطط خطط الملك كما في بابل ومصر .

وبديهى ان تمرکز القوة تمرکزاً نظامياً لا يمكن ان ينشأ في حالة البداوة وبين الرعاة وهو عند اهل الزراعة والفلح اضعف منه عند اهل المدن ولذلك نجد القوة في المناطق الحضرية متمركزة في اهل المدينة . وان قوة بابل العظيمة تعزى الى المدن التي نشأت في شوارع اكثر مما تعزى الى غنى الارض . ومتى علمنا ان عدداً من المدن الصغيرة في منطقة تكاد لا تتجاوز الخمسين ميلاً طولاً والعشرة اميال عرضاً ¹ هي الاساس الذي بنت عليه بابل عظمتها وقوتها الامبراطورية ادركنا اهمية المدينة للدولة الرامية الى الاتساع .

في بابل وممفيس تمرکزت القوة والادارة حتى اصبحت ارادة الفرد الملك هي كل شيء في الدولة . ولكننا نجد فرقا ظاهراً في تفرد النظامين السوري (الشنعاري) والمصري . فمع ان حمورابي لبي دعوة الالهة ليقم القسطاس في الناس فان شريعته الشهيرة التي خلدت ذكره كلها احكام زمنية دنيوية وليس في بابل لسلك الكهنة الشأن الذي كان له في مصر في الدولة الجديدة حيث شغل الكهنة وظائف الدولة . هنا نشب نزاع شديد بين قوة الدولة الزمنية وسلطة الكهنة لعهد اخنتون ² . ولكن المحاولة الاصلاحية القائلة بوحدة الاله التي نادى بها الملكية خابت ودلت عودة العبادة القديمة على ان قوة السلك

1 مايرج ا.ق 2 ف 360

2 ونظر ايضا 25

الكهنوتي كانت اشد من قوة الملك الذي اصبح لا يحمل من الحكم سوى اسمه بينما الفصل في اعم الشؤون يلقيه امون الى رئيس الكهنة فكانت خطط الفكر بين سورية ومصر عظيمة واكيدة . ولكننا مع ذلك لا نرى في مصر ولا في اية دولة اخرى ما نراه في الهند من قوة الكهنة الذين شكلوا طبقة احتكرت السلطة ، فهناك تنص القوانين على خضوع الملك الحاكم بمفرده للكهنة . وقد قوي سلك هؤلاء وبلغ من استفحال امره ان اصبح من واجبات الملك المتوج اداء يمين الاخلاص للكهنة البرهمنيين الذين لهم الكلمة النافذة في اعلان الحرب ووضع السلم ، وفي السياسة والقضاء والتنفيذ والتشريع¹ . والارجح ان هذا هو السبب في بقاء الهند بلا امبراطورية ولا ديمقراطية الى العصر الحاضر .

كان للتفرد في السلطة في بابل ومصر ، خصوصا في الاولى ، الشأن الاعظم في تنظيم الدولة وترتيب الامبراطورية . فان المسؤولية تجاه الملك وامكان مراجعة الرعية الملك في اي امر كبير او صغير منع تولد سيطرة النبلاء وذهاب السلطة الى ايديهم واغلق باب التلاعب بالمقدرات لهم . والحقيقة اننا نجد جذور الديمقراطية الحديثة في سلطة الفرد التي انقذت السيادة من مطامح الاقلية الممتازة او كما يقول مكيبور² ، على هذه الطريقة اعدت الملكية طريق الديمقراطية .

نظمت الدولة المركزية ذات السلطة الفردية الادارة العامة والجيش . ففي بابل نظمت المكتبية بكل دقة وكانت العناية بموظفي الحكومة كبيرة . وكانت الدولة تأخذ على نفسها تحرير الاسرى الذين يقعون في ايدي العدو حين لا يكون لهم ما يفكهم³ . وكان نظام توزيع الثروة والاشراك في

1 ونقر ص 26

2 كتابه المذكور ص 59

3 كولر ص 62 . ونقر ص 28

الدولة يقوم على استثمار المشاع بحيث تحدد للمرء ارض يعمل فيها ويعطي الزائد عن حاجته للدولة لقاء استعداده للانخراط في الجيش والاشتراك في الحملات الحربية . وقد كان الجيش في بابل ومصر من ابناء الدولة شعبياً . وكانت الدولة السورية في عهد حمورابي تمتاز على الدولة المصرية بتنظيم الجيش في ايام السلم والحرب ففي شريعة حمورابي كان استئجار الجندي يعاقب بالاعدام¹ وقد ارتفع لذلك الفن الحربي عند البابليين فعنهم نقل المكدونيون فن الحصار ومن فنونهم محطات النار التي عرفت فيما بعد بالنار الاغريقية² . اما في مصر فلم يكن للجيش مكانة ممتازة في الامبراطورية المتوسطة ، وان كانت هذه الدولة قد سجلت لنفسها بعض الانتصارات الهزيلة . والفضل في رفع الجيش المصري في الامبراطورية الجديدة الى مستوى مشرف يعود الى الملوك السوريين ، الهكسوس³ الذين اعادوا تنظيم الجيش . ولكن الامبراطورية الجديدة استندت في تقوية الجيش الى استئجار الجند فكان ذلك من اكبر العيوب التي أدت الى عواقب وخيمة كالعواقب التي نزلت بالامبراطورية القرطاضية ، كما سيجيء . اذ ان ما بقي الجيش المأجور قائماً هو رنين النقدا لصوت الملك . والجيش الذي ساعد بزمتيخ Psammeich على انشاء دولته اخذ يتناول اجرته من فارس بعد نكبة بلوسيوم .

اما الادارة العامة فقد اشرنا الى انها كانت متمر كزة وصحيح ان الفرد المتسلط بصفة ملك كان له مجلس يستشير في امور الدولة ولكن هذا المجلس لم يكن له شأن المجلس الوزاري الذي نعرفه واخبار حمورابي تدل على كثرة ما كان يمر على يدي الملك من الشؤون . فهو الذي كان يهتم بالاعمال الزراعية

1 وقر ص 29

2 ايضاً ص 27

3 ايضاً ص 29

كلاري وبناء المخازن لا يام الجذب وما شاكل وهو مرجع كل امر كبير او صغير .

مما تقدم لنا في هذا الاستعراض نرى ان الدولة الامبراطورية عرفت السيادة بمعنى التملك وحولت الثروة العامة الى ملك خاص ولكن السلطة الفردية انقذت الشعب من استبداد الطبقة ، حيث وجدت ، الا في الهند حيث برهنت الطبقات على انها اشد ارتكازاً من سلطة الملك الفرد .

جرت الدولة على خطة الانساع الارضي فسيطرت على شعوب متعددة وبقاع واسعة فقد قامت بابل ثم سقطت وقامت اشور التي جرت على الاسلوب نفسه ثم عادت الدولة البابلية الجديدة على سواعد الكلدان الذين هم فرع من الاراميين فكسرت شوكة الاشوريين وبسطت سلطانها عليهم . وحمورابي نفسه كان سوريا اموري الاصل¹ . ونشأت في سورية دولة قوية بسطت سلطانها على مصر ونقلت مركزها اليها . كما عادت مصر فوسعت سلطانها وكما انحدر الفرس على امبراطورية الكلدان وبسطوا سيطرتهم على بقاع مترامية الاطراف .

في كل هذا التاريخ الطويل نعرف المجتمع في الدولة السائدة فالشعب تابع لها ، فلا كيان للاقوام غير كيان الدولة ، وان احتفظت بعباداتها وطقوسها ، بل اننا نجد الدولة آخذة في جبل المجتمع فهي قد جبلت الساميين والشميريين في « باب الله » (بابل) في سورية الشرقية وهي جبلت الشماليين بالجنوبيين في سورية الغربية .

الدولة المدنية والامبراطورية « البحرية » . ولكن الدولة لم تسردائماً على الاسلوب المتقدم وصفه فهو من خصائص اسباب معينة في ظروف موافقة .

1 ظهر الاموريون في النصف الاول من الالف الثالث ق م ، هجرة اتجهت نحو سورية الغربية وتوطئت لبنان وانشأت فيه دولة خاصة . وقد نزع قسم من الاموريين بعد اقامتهم في غربي سورية الى شرقها الى شتار . انظر مار هج ا . ق 2 ف 396 . وكانت لغتهم قرية جداً من الكنعانية (الفينيقية) وظل النصر الاموري منشراً في الهلال السوري الحبيب كله . انظر ايضا فازري Patric

ففي سورية نجد الدولة تحتاج الى درس خاص سنتوسع فيه في الكتاب الثاني من هذا المؤلف . ولكن لا بد لنا هنا من ذكر ما له علاقة بالتطور العام للدولة في هذه البلاد .

ان سورية ايضاً ساهمت في الدولة البرية حيث ساعدت الظروف كما في الشرق حيث نشأت الامبراطورية الاكادية والامبراطورية الكلدانية وكما في الشمال حيث نشأت الامبراطورية الاشورية والحثية . واننا نعلم انه على اثر انتهاء الامبراطورية الوسطى في مصر قامت من سورية حركة امبراطورية واسعة اكتسحت مصر وثبتت نفسها هناك وانشأت الاسرة المعروفة باسمه الهكسوس الذين عرفوا ، باحدى الترجمات ، بالملوك الرعاة ¹ . ولكن اتجاهاً خاصاً في الدولة نشأ في سورية كان له شأن غير الشأن العام الذي كان للدول في مصر والصين . ونرجح ان السبب الاقوى في نشوء هذا الاتجاه هو البيئة السورية المتنوعة ، خصوصاً الشاطيء السوري . فان البحر لم يكن للسوريين ما كانه لاقوام البلدان الاخرى : حداً يجب الوقوف عنده . ومن هذا الواقع ندرك ان التاريخ غير مكتوب على الاديم . فهو غير حتمي ، كما تظهره اقوال وكتابات كثير من السوريين في اعصر التحول القومي واولضحتها العبارة : ان سورية جسر بين الشرق والغرب ، اي ان تاريخها مقرر في موقعها . والحقيقة ان الارض تقدم الممكنات لا الاضطرابات او الحتميات وهذا يعني ان الارض هي الجهة الايجابية من التاريخ لا الجهة السلبية . فكون سورية ، مجازاً ، صلة وصل بين الشرق والغرب لا يحتم مطلقاً ان يكون تاريخها تاريخ «جسر» ولدينا اكثر من برهان واحد على صحة ما نقول .

الحقيقة ان ما تأملت منه سورية منذ اقدم عصورها الى اليوم هو كونها موازية من الجنوب للصحراء الهاجمة على ارضها وانها معرضة دائماً لتسلط تيارات من هجرة القبائل المتبديّة عليها . اما شكل الارض الداخلي فقدنوع

الممكنات للشعوب السورية ، بمقدار ما حددها في العصور القديمة . فإن سلسلة جبل لبنان اوجدت صعوبة كبيرة لاعمال توسيع الدولة وتثبيتها . ولكن ليس هذا كل شيء ، بل اننا نرى من الوجهة الشعبية اتجاهاً خاصاً . فإن الكنعانيين انصرفوا الى اعمال الزرع والغرس والتجارة كما اشرنا الى ذلك آنفاً ، فلم يوجهوا عنايتهم الى الحرب والغزو الا نادراً ولذلك لم يقو فيهم الميل الى انشاء الامبراطوريات الاستبدادية الرامية الى التوسع في الارض وهم محاطون من الصحراء والجبال والبحر . اما في الشمال فإن الارض تتسع مع مجرى الفرات والخابور والدجلة . وفيما سوى الدول الارضية الواسعة التي نشأت في الشمال ودولة الاموريين في لبنان وما وراءه نجد دول سورية تتخذ صبغة جديدة هي صبغة المدينة ، خصوصاً في الغرب ، على الشاطيء امام لبنان حيث نزل الفرع الفينيقي من الكنعانيين . هنا انشئت المدن صيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وارواد وصور وعكا وصارت كل مدينة دولة مستقلة ، كما نشأت في الداخلية دول مدنية امتازت بينها دولة دمشق .

على الشاطيء السوري نشأت المدينة البحرية التي اوجدت اتجاهاً جديداً في الدولة وأنشأت الامبراطورية البحرية . فحتى نشوء هذه المدن كان البحر حداً تقف الدولة عنده لا مجالاً لتوسع فيه ولما اخذت مراكب الفينيقيين تسبح في البحر وتتصل بجزر وشواطيء اخرى صالحة للاستعمار وجه هؤلاء الكنعانيون همهم الى هذه الامكانية الجديدة التي كانت لغيرهم حداً للامكانيات وتركوا اعباء البر بالمرّة وانصرفوا الى اعباء البحر بالكلية . وهكذا نجد قوة من نوع جديد تنشأ على الشاطيء السوري وتمتد الى اماكن قصية وتقبض على مواردها فقد جمع الفينيقيون بين عنصرين يأتلذان كل الاثلاف : التجارة وسلك البحار ، القوة السياسية والقوة الاقتصادية .

كان من وراء هذا الاتجاه الجديد نشوء مبدأ الاستعاضة عن حشد الجيوش خطوطاً طويلة وفي حملات عديدة لاختضاع المتمردين او لتأمين السيطرة واعمال الجباية بانشاء النقاط المركزية المسيطرة ، وهي المستعمرات

المنشأة في نقاط معينة لتأمين المواصلات والحركات التجارية . اسلوب جديد للتوسع بوسائل جديدة . وقد برهن هذا الاسلوب عن فاعلية قوية ونتائج عظيمة .

ولا بد لنا هنا من الامناع الى ان المزايا الثقافية التي كانت للكنعانيين كانت عظيمة وقد رأينا ابداعها في اختراع الاحرف الهجائية . والشعوب الاخرى الآرية كالحثيين والمتني وغيرهم والسامية كالأموريين والاكاديين والكلدانيين والاشوريين والاراميين كانت ايضاً ذات مزايا ثقافية عالية وسندرس هذه العناصر السورية في الكتاب الثاني ونقتصر هنا على هذه اللوحة ، لكي نتمكن من درس الاتجاه الدولي الذي اوجد شكلاً جديداً من اشكال الدولة ومرتبة جديدة من مراتب الثقافة السياسية . فالثقافة الكنعانية العريقة لم تقتصر على ما هو اجتماعي اقتصادي كالذي ذكر في الفصل السابق بل تناولت ما هو سياسي ايضاً فالشريعة الكنعانية التي اخذ عنها العبرانيون شريعتهم الموسوية¹ تدل على الارتقاء السياسي العالي في جنوب سورية كما دلت الشريعة المحورية على الارتقاء السياسي العالي في شرق شمالي سورية .

في هذه الارض التي « تفيض لبناً وعسلاً » لم يتشبث الكنعانيون بمبدأ المحافظة المفرقة ، الذي كثيراً ما يصبح من مزاج الفلاح العاكف على الارض ، بل تنبهوا الى الممكنات الجديدة . ويمكننا ان نقول ان شعوب سورية كلها لم تكن شديدة المحافظة من هذه الجهة ، لاخذها باسباب التجارة وانصالتها المستمر بالعالم الخارجي بواسطة الحرب والتجارة والاستعمار .

ادى ادراك الفينيقيين ممكنات البحر الى انشاء الامبراطورية البحرية . فالامبراطورية البحرية السورية كانت اول امبراطورية بحرية في العالم . وقد ابتدأت هذه الامبراطورية بمدينة صيدا التي كانت لها الزعامة الاولى على فينيقية وبلغت اوجها في صور وقرطاضة والحقيقة ان صيدا كانت المثال

الاول للدولة البحرية المسيطرة فالصيد ونيون هم اول من اكتشف النجم القطبي
 واول من ابخر في الليل¹. ولما كانت الامبراطورية البحرية تقوم على التجارة
 والمواصلات اكثر مما تقوم على الاستيلاء على اراض برية واسعة تتطلب
 الحاميات الكبيرة وتكون معرضة للتفسخ بطبيعة تقسيمها الى ولايات واعمال
 فقد ادرك هؤلاء السوريون البحريون بشاقب فكرهم اسرار ثبات الامبراطورية
 البحرية وكان نقل صور البرية الى الصخر البحري (صور معناها «صخر»²)
 الواقع على مرمى مقلع من الشاطي. عمل نبوغ عظيم جعل الامبراطورية
 الصخرية في مأمن من غزوات جيوش بابل وأشور، التي اصبحنا نراها تتجمع
 على الشاطي. وتهدد المدينة الصخرية، عاصمة الامبراطورية الواسعة، بقبضات
 الايدي!

بهذه الطريقة البديعة امنت صور سلامة امبراطورتها من اخطار
 الامبراطورية السورية البرية «البابلية والاشورية» حتى مجي. الاسكندر. ولو
 ان هذه الجزيرة الصخرية كانت تبعد كيلو متراً فوق بعدها الاصلي عن
 الشاطي. لكان الأرجح ان يرتد عنها الاسكندر خائباً وقد كاد. اذ قد نبين
 من سقوط صور وقرطاضة ان الامبراطورية البحرية تقوم على عاصمتها فاذا
 ذهب العاصمة ذهب الامبراطورية البحرية فهي من هذا القبيل تختلف عن
 الامبراطورية البرية التي قد تذهب عاصمتها ولكن القضاء عليها لا يكون مبرماً.
 شيء واحد لم تدركه الامبراطورية البحرية القديمة هو وجوب التناسب
 بين المركز والاطراف. فالامبراطورية البحرية لا غنى لها عن الارض والقوات
 البرية. ولو ان الفينيقيين اعتنوا بالقوات البرية عنايتهم بالقوات البحرية لما كانت
 تعرضت مستعمراتهم ووطنهم لما تعرضت له.

1 المستد ص 76

2 مايرج 2 ق 1 ف 356

ومهما يكن من امر الامبراطورية البحرية التي تأسست على الشاطيء السوري فان أهمية الدولة المدنية التي نشأت في سورية عظيمة جداً ، خصوصاً دولة المدينة البحرية . في هذه المدينة وضع اساس الحقوق المدنية التي ارتقت في قرطاضة وبلغت اوجها في رومة .

في المدينة السورية البحرية ، التي طبعت ثقافتها على البحر المتوسط كله ، تحولت الرابطة القبلية القديمة الى الرابطة الاجتماعية الواسعة . فزال باكراً ذلك الخضوع الاعمى للملك وزالت عن الملكية تلك الصبغة الالهية التي كانت لا تزال ترافق الملك والاسرة المالكة في الامبراطوريات البرية ، واصبح الملك فيما بعد ينتخب انتخاباً لمدة الحياة فكان ذلك اصل الديمقراطية والجمهورية . وصحيح ان الرسمالية تعاظمت وان مقاليد الامور صارت الى ايدي الطبقة الغنية ولكن حقوق ابناء المدينة الاحرار في انتخاب الملك وفي الاجتماع لتقرير المسائل الهامة كانت حقوقاً مشروعة وان كانت غالباً اسمية اكثر منها فعلية . في هذه المدينة ازدادت الحركة الاجتماعية والاختلاط الاجتماعي واخذت المصالح الخاصة تحل محل مصلحة العشيرة واجتدأ الناس يشعرون باشتراكهم في حياة واحدة هي حياة المدينة وفي هذا الشعور نجد اصول مؤسسة حقوق الاشراك في دولة المدينة والاتجاه نحو الديمقراطية . ولكن الحقوق السياسية وفي المدينة السورية البحرية لم تقع قط في ورطة استبداد الجمهور بواسطة تدخل الافراد ، كما حدث في اثينة المدينة الاغريقية لعهد بركلس الذهبي حيث كان يحق لكل فرد ان يتهم اي موظف في الدولة ، حين انتهاء مدته ، بالخروج على القانون ، داعماً تهمة باية صفة من هذه الصفات المطاطة : عدم دستورية اعماله ، او انها غير مرغوب فيها او ان نياته كانت سيئة الخ.¹

ان العقل السوري العملي لم يكن يميل الى تخيلات فاسدة من الوجهة العملية. ولذلك فهو قد اكتفى من التجربة الاغريقية للحكم الشعبي ، بواسطة الشعب اجمع ، بالمشاهدة . انه لخيال بديع ، في نظر غيري ، وخيال سخي في رأيي ان يكون كل فرد من افراد المدينة المعترف بهم « شريكاً » فعلياً في ادارة الدولة. ان المدينة السورية ظلت محافظة على الفرق بين السياسة والاجتماع واضحا. وهذا الفرق هو ما مكن الدولة من اطراد تقدمها .

ونحن نرى هذا الاطراد جلياً في المستعمرة السورية الخالدة قرطاضة التي ما لبثت ان اصبحت دولة قوية ومركز امبراطورية بحرية مترامية الاطراف.

في قرطاضة زالت الملكية الوراثية باكراً وحلت محلها الملكية الانتخابية . ومع ان الملكية جمعت في نفسها وظيفة الكهنوت والقضاء والادارة التنفيذية فان انفصال القيادة الحربية والسلطة العسكرية عنها¹ اضعف مركزها وسيطرتها . ثم ان الملكية نفسها انحطت في اوائل القرن الرابع ق.م الى حالة الانتخاب السنوي بواسطة الكلية الانتخابية² وهكذا نجد الدولة القرطاضية تتجه روياً نحو الديمقراطية السياسية، بعد ان كاد احتكار بيت مقو Mago سلطة الادارة الممثلة في السوفتين Suffets وقيادة الجيش يعيدها الى ملكية³ . ان اعم عصور الدولة القرطاضية كان عصر مجلس الشيوخ ومجلس المئة والاربعة اعضاء . وكان مجلس الشيوخ يتألف من نحو ثمانية وعشرين عضواً

1 ونقر ص 45

2 ايضاً نفس المكان

3 ماير 3 ج 3 ف 383

وكان يمثل رأس الدولة¹ ففي صلاحيته كان ابرام شؤون الدولة وتمثيلها في الخارج واليه يعود الملوك ومنه يستمدون قوتهم . وهنا نجد الدولة الارستقراطية المؤلفة من طبقة التجار المثرين واصحاب الاملاك الواسعة ولكن قبض اسرة مقو على الجيش والادارة معاً بالتعاقب اوجد خطراً عظيماً على الارستقراطية بامكانية اعلان هذه الاسرة نفسها اسرة مالكة . فلما انشيء مجلس ال 104 اصبحت هذا المجلس صاحب السلطة العليا في الحكم على موظفي الدولة وقواد الجيش ورجال مجلس الشيوخ والملوك المنتخبين سنوياً او «السوفت» . ومع ان قسماً من هذا المجلس كان ينتخب سنوياً من الشعب فان قهوذ الطبقة الغنية واستعمال المال وعدم وجود مادة تمنع قابلية اعادة انتخاب الاعضاء على طول الحياة جعل هذا المجلس يمثل حكم الطبقة . ولكنه كان في كل حال خطوة واسعة نحو الديمقراطية ، اذ ان مرتبة المتمولين لم تكن طبقة خاصة قائمة بنفسها ومنفصلة عن عامة الشعب ، بل كانت مرتبة يتعاطى اهلها الاعمال التجارية² ويمتزجون بالشعب . وهذه كانت ميزة للطبقة الحاكمة في قرطاضة وان الطبقات في الدول السورية البحرية لم تحدد التحدد الذي نراه في غيرها . ولقد تم نشوء هذا المجلس الذي كان يقصد منه وضع حد للعائلة المسيطرة على شؤون الدولة بدون ان تلجأ هذه الى مقاومته³ فبرهنت الدولة القرطاضية بذلك على مرونة سياسية كبيرة جعلتها فوق جميع الدول والامبراطوريات التي تقدمتها او عاصرتها . وماير⁴ يقول انه لم يكن بين جميع دول الاغريق دولة واحدة بلغت او كادت تبلغ ما بلغته قرطاضة من

1 وقر ايضا المكان عنه فوق

2 ماير ج 3 ف 382

3 اجنا ج 3 ف 383

4 اجنا ف 382

وسائل القوة والالتساع . ولا يعطى ماير قرطاضة حقها الكامل حين يقول ¹ انها جديرة بان تكون، من حيث الترتيبات السياسية، مثالا يقتبس عنه الاغريق من بعض الوجوه .

ان محاولة الجمهورية الاغريقية الفت الدولة او كادت تلفيها . وان الاسلوب الذي جرت عليه الدولة في تقدمها وارتقاها كان الاسلوب السوري الذي ارتقى في قرطاضة الى الديمقراطية ووضوح الحقوق المدنية والحقوق الشخصية مع بقاء الدولة شيئاً متميزاً عن الشعب ، مؤسسة لا يمكن ان تعرض لعبث الجمهور . والحقيقة ان نظام الدولة القرطاضية كان معرضاً لانتقادات بعيدة عن الصواب ، اذ ليس معقولاً ، من الوجهة المنطقية ، ان تتمكن مؤسسة فاسدة من انشاء امبراطورية واسعة جداً وريح حروب عديدة في البر والبحر وادارة هذه الامبراطورية الضخمة طوال قرون . فقد اخضعت قرطاضة جميع الشعوب الحامية في تونس ومراكش وسيطرت على قبائل البدو المجاورة والحققت بسلطتها المدن الفينيقية على الشاطيء الافريقي واحتكرت الجنوب الغربي من البحر المتوسط والمحيط الاطلنطي . وادارة دولة هذه مساحة اعمالها تقتضي نظاماً مرتقياً قوياً ومؤسسات ثابتة .

قسم ديودوروس اتباع الدولة القرطاضية الى اربعة اصناف : ¹ فينيقي قرطاضة . ² فينيقي ليبيا . ³ الرعايا الليبيين . ⁴ البدو ² . ولقد ميزت قرطاضة بين رعاياها الفينيقين ورعاياها الليبيين . وصحيح ان المدن الفينيقية التي كانت في البدء حليفة قرطاضة اصبحت خاضعة لها وداخلة في نطاق حقوقها ، مع احتفاظها بحكوماتها الخاصة ، ولكن ذلك جعل ابنا هذه المدن مساوين للقرطاضيين في الحقوق الشخصية والمدنية فكانوا يترقون في الجيش ويحق

1 ماير ف 384

2 نقله ماير ، ايضا ف 381 الحاشية

لهم تسنم المراتب العالية فيه . ولهم نفس مرتبة القرطاضيين تجاه الشعوب الحامية المنخفضة¹ ولكنهم كانوا فاقدي الحقوق السياسية .

لم تعرف قرطاضة الثورات، الدموية العنيفة وهذه الحقيقة تدل على ان الدولة لم تسر على طريقة الارهاق . واذا كان هنالك ضغط فهو قد تناول العبيد والليبيين الذين كان يصعب على الفينيقيين الامتراج بهم وادخلهم في مصحدم ولذلك لم تتمكن قرطاضة من منح هؤلاء حقوق ابنائها ، كما فعلت رومة فيما بعد مع الشعوب التي دخلت ضمن امبراطوريتها . ورومة نفسها ، لم تسلم بتساوي اللاتين وابنائها الا بعد حروب عنيفة ومشاكل صعبة .

ان المعضلة السياسية العظمى التي كانت تواجهها قرطاضة هي النزاع الشديد الصامت بين الطبقة القابضة على زمام السلطة وامبراطور الجيش . والحقيقة ان هذا النزاع كان السبب الرئيسي في خسارة الحرب الفينيقية الثانية مع رومة . ففي هذه الحرب الطاحنة التي وضع خطتها هاني بعل اعظم نابغة حربي في كل العصور وكل الامم² سلك مجلس قرطاضة خطة غريبة تجاه هذا القائد القرطاضي العظيم ، فقد اهتم هذا المجلس بارسال المدد الى الميدان الاسباني ولم يخذ اي تدبير حاسم لا يصال المدد الضروري الى الميدان الايطالي . ان هاني بعل كان يدرك جيداً ان الضربة القاضية التي يمكن احدي الدولتين المتنازعتين ان تنزلها بالاخرى يجب ان تكون في مركزها ولذلك زحف على رومة ذلك الزحف الرائع مجتازاً جبال الالب الشاهقة حتى بلغ اسوار رومة وقد دب

1 ماير ، ف 381 الحاشية

2 ان فن التخطيط الحربي وتحريك الجيوش في المعارك ارتقى الى مرتبة العصرية على يد هاني بعل فهو واضع قواعد الحرب الحديثة ومبتكر حركة الالتفاف . وان اركان الحرب الالمان قد اتبعوا في الحرب الكبرى خطة هاني بعل في معركة كني كما صرح بذلك فن فرنس ، انظر ايضا جوان

فيها الرعب على اثر معركة كني المخلدة ببوغ البطل السوري و هلع قلب شعبها لتناقل العبارة Hannibal ad Portas! . ولكن مجلس قرطاضة بقي غارقاً في دسائسه ضد القائد ذاهلاً عن المرمى البعيد الذي رمى اليه هاني بعل .

وفي قرطاضة ، كما في رومة ، كان نزاع شديد بين حزب الشعب والطبقة القابضة على مقاليد الامور . ومع ان المبدأ المعترف به في قرطاضة كان مبدأ سيادة الشعب ، اذ كان من المقرر ان يستفتى الشعب في كل اختلاف بين المجلس والمراجع الحكومية ¹ ، فان هذا المبدأ ظل بعيداً عن التحقيق بسبب مناورات الطبقة الحاكمة وبذل المال . ولكن الكوارث التي نزلت بقرطاضة في الحرب الفينيقية الاولى وخسارة الحرب الفينيقية الثانية التي كانت كفتها فيها راجحة ، قوى روح الاستياء في شعب المدينة ونشط الحزب الديمقراطي ومكن هاني بعل من تحقيق اصلاحه الديمقراطي بالغاء اعادة انتخاب اعضاء مجلس الـ 104 اكثر من مرة واحدة وتحويل بعض القوانين الادارية والمالية فكان هذا الاصلاح سابقة للاصلاح العراقي ² في رومة .

اعطى اصلاح هاني بعل قرطاضة الديمقراطية الصحيحة والاتجاه الديمقراطي الفعلي . ولم يبق امام قرطاضة لاستعادة حيويتها الامبراطورية سوى تمديد الحقوق السياسية المركزية الى المدن الفينيقية التابعة او الموالية لها ورفع الحقوق الشخصية والمدنية في الشعوب الليبية التي ظلت موالية لها ، واعادة تنظيم الجيش على اساس قومي بدلاً من الجيش المستأجر الذي كان يؤلف اهم قسم من القوات المحاربة . ولكن رومة لم يكن يهدأ لها روع مادامت نذتها العظيمة قيد الوجود فظل كانوا يختم كل خطاب من خطبه في مجلس شيوخ رومة بهذه العبارة « اعتقد انه يجب تدمير قرطاضة » حتى كانت

1 ماير ايضا ، فـ 382

2 هو الاصلاح الذي وضع قواعده طياربوس غرافس في اصيل المئة الثانية ق . م - انظر :

HH ج 5 ص 279 ، 302 . انظر كذلك مكبور كتابه المذكور ص 95 - .

الحرب الفينيقية الثالثة التي انتهت بنحراب المدينة وقتل معظم اهلها وجلاء
الباقين عنها .

بعد زوال الامبراطورية القرطاضية بقي هنالك قوتان عظيمتان هما
الامبراطورية السورية والامبراطورية الرومانية ومع ان الامبراطورية
السورية برهنت على انها اقوى قوة في الشرق الادنى فان نظامها الملكي لم يفعل
شيئاً جديداً في سبيل ترقية فن الدولة ولم يكن البيت السلوقي ، رغم ظهور
بعض افراده كسلوقس وانطيوخس الكبير ، مؤهلاً للقيام على مقدرات
الامبراطورية تجاه امبراطورية احدث طرازاً كرومة ، فبقيت ترقية فن
الدولة من نصيب رومة وكانت رومة اهلاً لتحقيق هذه الترقية .

في الحرب الطاحنة بين قرطاضة ورومة كانت دولة تحكمها طبقة تحارب
دولة تحكمها طبقة . ولكن اضطرابات ظروف رومة دفعها في اتجاه جديد
هو تمديد حقوق عضوية الدولة الرومانية الى المقاطعات التي ادخلتها رومة
نهائياً ضمن نطاق سيطرتها . وقد رمت رومة من وراء تمديد هذه الحقوق
الى توحيد ايطاليا تحت سيطرتها ، اذ ان ايطاليا ، لذلك العهد ، كانت شعوباً
وقبائل متعددة واحياناً متباينة في ثقافتها . ولكن البيئة الواحدة جعلت
الوحدة السياسية امراً لا مفر منه فكانت هذه الوحدة السياسية الشرط الاول
لتولد الوحدة الشعبية التي نشأت فيما بعد بعامل الاشتراك في الحقوق الدولية .
ان الحروب الايطالية هي التي اشنت رومة بالاختبارات السياسية ومن
هذه الوجهة يمكننا ان نبصر جيداً اسباب ترقية فن الدولة في مدينة ناهضة
الى مرتبة الامبراطورية . ان اختبارات رومة السياسية كانت اكثر واقوى
من اختبارات اية دولة سورية مدنية . وهي ، بخلاف الدول السورية البحرية ،
مدينة برية في الدرجة الاولى وكانت محاطة باقوام تضاهيها وبعضها ارقى
منها ثقافة كالأترويين (او الاترسكيين) فساعد ذلك على الرغبة في ادخال
هذه الاقوام في نطاقها السياسي والاجتماعي ومن هذه الوجهة كانت ظروف
رومة تختلف عن ظروف صور وقرطاضة .

ومع ان رومة استفادت كثيراً من اختبارات السياسية الكثيرة فهي لم

تخرج عن المثال القرطاضي في نظام الدولة الامبراطوري ، فكما كان مجلس قرطاضة هو المرجع الاخير للمعاهدات و اعلان الحرب و ادارة المدن و المقاطعات التابعة للدولة كذلك كان مجلس شيوخ رومة . وكما برهن مجلس الـ 104 القرطاضي على عدم كفاءته لسياسة الامبراطورية العامة كذلك برهن سناتو رومة على عجزه عن ايجاد الاساليب السياسية التي يمكنها ان تؤمن توثق الامبراطورية¹ حتى اصبحت القوة المجردة الضمانة الوحيدة للبناء الامبراطوري . ان تمديد الحقوق السياسية في الدولة الرومانية الى المقاطعات الايطالية ثبت وحدة الامبراطورية الرومانية في ايطاليا . ولكن لما اصبحت هذه الحقوق توزع على الشعوب وراء الحدود الجغرافية ، كجلالقة عبر الالب ، بطل سحرها وصارت عديمة الفائدة ، بل امست في الاخير من عوامل اضعاف مركز الامبراطورية وذهاب هيبتها . وهكذا نجدها في عصورها الاخيرة مسرحا لقوادها المتنازعين فيما بينهم حتى تداولها القياصرة وحولوا جمهوريتها الى الشكل الامبراطوري القديم الذي رأينا مثاله في سورية ومصر وفارس . وبعد فراغ رومة من توحيد ايطاليا توقفت اختباراتنا السياسية لانها وجدت علاجاً واحداً لجميع المشاكل الخارجية هو علاج القوة . اما العلاج السياسي فكان يقتضي تطوراً خطيراً يغير اساس النظام الكامن في المدينة . كان يجب ان تحمل ايطاليا محل رومة وان توجد وسيلة للتعبير عن الارادة العامة في الامبراطورية ولكن الطبقة الارستقراطية في رومة كانت اقل استعداداً من الطبقة الارستقراطية في قرطاضة لتغيير وجهة نظرها في الغرض من الامبراطورية . وهكذا سارت رومة في سبيل قرطاضة فكانت آخر دولة من طراز دولة المدينة السورية .

امتازت قرطاضة على رومة بأمر خطير جداً في نظام الدولة هو فصل القيادة الحربية عن الادارة السياسية والمدينة . ومع ان رومة ابدت مرونة سياسية عظيمة فاقت بها على قرطاضة في اشراكها الملحقات في حقوقها السياسية فان

تقسيماتها التشريعية والادارية الداخلية بانشائها مؤسسات الكوريا Curia والسنتوريا Centuria والكومييتيا Comitia ورؤساء العامة ، الذين كان لهم حق ايقاف التنفيذ لم تبرهن قط على حقوق دستورية يصح ان تتخذ مثالا في فن الدولة . وان نجاح رومة كان على الرغم من هذه التقسيمات المتعارضة مبدئيا اكثر مما كان بفضلها . ان هذه التقسيمات لم تكن سوى تسوية للنزاع الداخلي .

الشرع . امتازت الدولة في رومة على ما تقدمها من الدول في امرين هما تمديد معدودية الرومان (عضوية الدولة) الى الملحقات وتكوين وحدة سياسية تحفظ روح الارادة العامة ، وانشاء الشرع . والشرع الروماني هو اثنان ما تركته رومة للبشرية .

لا يعني ذلك ان الشرع وضع اولاً في رومة ، فنحن نعلم ان شريعة حمورابي السورية هي اقدم شريعة في العالم . وكذلك نجد في جنوب سورية الشرع الكنعاني الذي اقتبس منه ومن الشرع البابلي العبرانيون شريعتهم الموسوية . ولقد تناولت شريعة حمورابي الاحكام المدنية الحقوقية والجزائية فنصت على التملك وواجبات الجندي وملكه واحوال المعاملة والحقوق التجارية والاحوال المدنية الشخصية كالزواج واحواله ¹ .

والشرع الكنعاني تناول هذه الاحكام التي اختلفت في بعضها عن شريعة حمورابي فيما يختص بالعقوبات . ومن وضع الشريعة البابلية والكنعانية نرى القانون قد اصبحت شيئاً متميزاً كل التميز عن العادة والعرف والانتقام الشخصي والثأر . ففيها نجد تنظيماً للاحوال الحقوقية والجزائية .

ولا بد ان يكون الشرع السوري البابلي - الكنعاني قد ارتقى مع ارتقاء احوال الدولة الفينيقية واتساع ملكها ومعاملاتها ، خصوصاً في الامبراطورية انقرطاضية ولكن المؤسف جداً ان يكون تخريب البرابرة الاغريق والرومان

للعواصم الفينيقية تخريباً تدميراً تاماً ، كما فعل الاسكندر بصور وسيبيو « افريكانس » الثاني بقرطاضة ، فلم يبق لنا من آثار هذه العواصم الا النذر اليسير . وهذا لا يزال يحتاج الى تنقيبات جديده ومع ذلك فنحن نعلم من هذا النذر ان الحقوق الفينيقية لم تتعرض للقضايا التي تعرضت لها الحقوق الرومانية والسبب في ذلك هو ان الدول السورية الفينيقية قامت على اساس شعبي واحد فكان نوع حقوقها واحداً . ولذلك نجد المساواة في الحقوق بين مدنيي قرطاضة وابناء المدن الفينيقية الاخرى (راجع ص 120) اللهم الا الحقوق السياسية التي ظلت حقوقاً مدنية خاصة .

ومتى نظرنا الى الشرع في الاغريق وجدنا نوع الشرع نفسه واذا كان هنالك ارتقاء فهو قليل . فان شرعهم كان لا يزال مجموعة قوانين دينية ومناقبية وسياسية متناقضة . ولقد ميز الشرع الاغريقي بين الجناح والجرائم ، بين الادعاء الشخصي وطالب التعويض ، والادعاء العام بموجب قانون جزاء ولكن تصنيف الدعاوي كان ناقصاً . ففي حالة السرقة كان المدعي مخيراً في ان يقيم دعوى حقوقية ويطلب التعويض او ان يقيم دعوى جزائية . وفي حالة الاجرام كالقتل والتشويه كانت الحقوق الاغريقية لا تزال قريبة من من الحقوق الاولى اذ ان هذه الحالة كانت تترك للادعاء الشخصي¹ . والقانون عموماً كان لا يزال تابعاً للوضع السياسي فهو لم يكن عاماً ففيه تساوت الحقوق السياسية والحقوق الشرعية .

في رومة خرج الشرع من هذا التخبط الى الشرع القضائي العام وحل محل المواد القانونية المتناقضة القانون العام الموحد الجامع نظام الدولة . ولولا هذا العمل الكبير لما كانت رومة تركت اثرأ ثقافياً عالياً . فتاريخ رومة الثقافي هو تاريخ حقوقها ،²

1 مكبر ص 103

2 ونفر ، AR ص 154

ابتدأ الشرع في رومة على مثال دولة المدينة السورية . فالحقوق كانت لأول عهدها حقوق رومة المدينة تسري احكامها على مدنيها فقط . فلم يكن لغير ابن رومة حق في حضور اجتماع الجيش واجتماع الشعب والتصويت وفي ان ينتخب وان يعقد زواجا يعترف به في رومة الخ .¹ والشعوب التي تغلبت عليها رومة كان لها حقوقها السياسية والمدنية كالمدن اللاتينية والسمنين والأترورين والمدن الاغريقية في الجنوب والجلالقة في الشمال . لما اخضعت رومة هذه الشعوب لسيطرتها وادخلتها ضمن نطاقها لم تلغ شرائعها المتمشية عليها ، بل ابقتها معمولاً بها عندها . ولكن مبدأ الشخصية هذا لم يكن كافياً لحل القضايا الحقوقية في دولة المدينة السائرة الى الامبراطورية ، لان الشعوب التي خضعت لرومة بالقوة وفقدت حق الجزاء واصبحت تحتاج الى شكل حقوقي جديد ، ولان ادخال شعوب متباينة في حقوقها في نطاق دولة واحدة اوجب النظر في علاقة هذه الشعوب بعضها ببعض ، ولان وضع هذه الشعوب تحت سلطة رومة اوجب مواجهة قضية العلاقة بين هذه الشعوب والشعب الروماني او بين افرادها وافراد رومة . فاختارت رومة حل هذه القضايا بالمعاهدات اولاً ثم بادخال حقوق الشعوب في نطاقها القانوني وهي الحقوق التي عرفت بال « Jus Gentium » وكان القصد منها النظر في جميع الحالات التي لا تصلح للنظر فيها الحقوق المدنية المعروفة بال « Jus Civile » المختصة بالرومان انفسهم ، فصارت هذه الحقوق الشعبية حقوقاً رومانية ايضاً . وقد حاول الرومان التوفيق بين « اليوس سوبلي » و « اليوس غنتيوم » بواسطة محكمة ال « Praetor Peregrinus » التي كان من صلاحيتها النظر في

1 ونفر ص 156

2 اجنا ص 157

القضايا بين المدنيين والاغراب . ولكن اهمية اليوس غنتيوم اخذت تعظم مع تحول المدينة الى دولة ارضية حتى فاقت اليوس سويلي ، لان هذه الحقوق اصبحت حقوق قسم عظيم من الرعايا الرومان لم يكونوا قد حصلوا على الحقوق المدنية الرومانية او على الحقوق اللاتينية (Jus Latinum) وهي الحقوق التي كانت تتمتع بها المدن اللاتينية . وكانت هذه الحقوق الشعبية في مصلحة الرومان انفسهم ، لانها وسعت امامهم حقوق الزواج وحقوق التملك والارث وهكذا اصبحت لدني رومة الحق في اختيار التقاضي وفقاً للحقوق المدنية او الحقوق الشعبية¹ .

ولكن تطور الحقوق الرومانية لم يقف عند هذا الحد بل تابع عمله خصوصاً في العهد الامبراطوري ، اي بعد زوال الجمهورية . في هذا التطور نجد عملاً حقوقياً كبيراً قام به امبراطور رومة السوري قرقله (Caracalla) الذي مدد الحقوق المدنية الرومانية في الـ Constitutio Antonina (سنة 212م) الى رعايا الامبراطورية² فهو اول من اعلن حقوقاً مدنية عامة للامبراطورية . ولم يطل الزمن برومة حتى سقطت قبل ان يبلغ الشرع المرتبة العامة التي بلغها في الامبراطورية الرومانية الشرقية ، الامبراطورية البيزنطية او الرومية . في هذه الجهة خصوصاً في سورية ، تابعت الحقوق تطورها في مدرسة بيروت والفضل الاكبر في حل قضية « الحقوق الامبراطورية والحقوق الشعبية » يعود الى مجهود المدرسة السورية³ . واخيراً اكتمل الشرع الروماني في مجموعة القيصر بوسستيان التي جرى فيها تنقيح وتحوير القوانين القديمة ووضع قوانين جديدة . في هذه المجموعة نرى الحقوق

1 ونظر نفس المكان فوق

2 ونظر ص 156 و 193

3 ايضاً ص 179

الشخصية قد تحررت من روابط القرابة الدموية ، بل اننا نرى بداءة تطبيق فكرة شخصية الجماعة ¹ . ويمكن اعتبار مجموعة يوستينيان اعلى ما بلغه الشرع واساس الحقوق الشرعية في القرون الوسطى والعصور الحديثة .

الدولة الاقطاعية في الغرب والشرق . سقطت رومة تحت ضغط البرابرة الغربيين وتفكك ذلك النظام السياسي الامبراطوري الذي لم تتمكن اناثيتها من انقاذه . وبينما الامبراطورية الرومية (البيزنطية) لا تزال تتابع عمل الدولة الموحدة في دستورها وادارتها ، مع اتجاهها نحو السلطة الفردية التي وضع قواعدها ديوكليتيانس وقسطنطين ، اذا بالدولة في الغرب تنحط الى اقطاعيات وقعت كل واحدة منها في حوزة امير نبيل او بطل محارب . اما الملوك البرابرة الفرنك والقوط والعبارديون والوندال فكانت سلطتهم تتناول الجزية والاعمال الحربية فقط ولكنهم لم يتمكنوا من تنظيم الدولة . فاستفحلت سلطة الامراء الاقطاعيين حتى ان امبراطورية شارل مرتل وبابن وشرلمان اضطرت الى القبول بالامر الواقع واحتمال حكم الاقطاعيين البلاد بناء على تحويل شرعي من الملك ² .

في الدولة الاقطاعية حلت مصلحة الامير محل مصلحة الدولة او مصلحة الكل . واخذت الاقطاعية تتحول الى صنف خاص يتوارث افراده الالقباب والمراكز فكان الوارث او ولي العهد يثبت في خلافته لقاء دفع تعويض ³ . وكان قد نشأ الى جانب النظام الاقطاعي نظام آخر أخذ يدعي السيادة العامة هو نظام الكنيسة المستمدة قوتها من الدين . والحقيقة ان الدين لم

1 مكبور ص 108

2 مكبور ص 116

3 ايضا 117

يتنازل عن ادعائه السلطة العليا والقوة الزمنية ولكن سقوط قرطاضة ورومة اعاد له صولته مع المسيحية ثم مع الاسلام كما سنرى . فقد سيطر الدين على عقلية القرون الوسطى بصورة لم يعرف لها مثيل في مدينة البحر المتوسط والغرب ، وتعاضمت سلطة الباباوات حتى زعم بعضهم انه السيد المطلق الذي يخضع له كل الامراء . والحقيقة ان بعض الباباوات كغريغور السابع ، الذي كان راهباً يشتغل سرّاً ثم علناً بعد ان ارتقى الى الكردينالية وأربان الثاني وانوسنت الثالث اصابوا نجاحاً في النزاع بين السلطة البابوية وسلطة الامبراطرة والملوك¹ .

ان سلطة الباباوات كانت مستمدة من مبدأ الارادة العامة المعبر عنه بخضوع المؤمنين التام « لخليفة المسيح » . ولكن الكنيسة كانت في ذلك الوقت تحاول التوفيق بين مبدأين متناقضين هما الوظيفة الروحية والسلطة الزمنية . ولذلك لم يطل الوقت على السلطة الزمنية حتى ابتداء الشقاق في نظام الكنيسة وشبت الحركات الاصلاحية الداخلية وكانت النتيجة القضاء على الجامعة الدينية الزمنية والروحية .

لم ينقذ الدولة من هذه الفوضى في الغرب الا الاتجاه نحو المدينة فنشوء المدن ونموها والعمل الصناعي والاتجار اوجدت المحيط والجو الصالحين لحرية العمل وتبادل الافكار والمعارف . ان المدينة كانت دائماً اصلح مكان لنمو الفكرة الديمقراطية . وهي المكان الوحيد الذي يمكن ان تتمركز فيه الحياة السياسية . وهكذا نجد مدن المانيا وايطاليا الحرة توجد الطرق اللازمة لنشوء الحركات الاجتماعية والسياسية التي اخذت تعد السبيل لعصر جديد من عصور الدولة هو عصر الديمقراطية ونشوء القومية .

القومية هي التي عينت شكل دولة البلاد العصرية ووسعت دائرة المساهمة

1 لو شين فن اينفروبط ص 256 - 257 ايضا مكبور 119

في الدولة او معدوديتها الى حدود لم تكن معروفة من قبل . وتحت تأثير عوامل القومية الآخذة في النشوء اهمل النظام الاقطاعي وقويت الملكية المركزية . لانها كانت دائماً اقرب الى تمثيل وحدة الامة . وسلطة الفرد كانت دائماً اقرب الى الديمقراطية من سلطة الارستقراطية المكونة طبقة ممتازة .

وقبل ان تتناول الدولة الحديثة القائمة على مبدأي القومية والديمقراطية المتجانسين نرجع الى حادث خطير في تاريخ الدولة ومبادئها وقع في الشرق واوجد حالة دولية لا بد من درسها لاستكمال اطوار الدولة واستيفاء العوامل الخطيرة المهيئة مجراها .

الموت المريع . اذا كانت هنالك ارض تحدد الحياة والثقافة الانسانيين تحديداً يكاد يكون حتمياً فهي ، بدون شك ، الصحراء . فالصحراء لا تمنع الانسان من الارتقاء من مرتبة الوحشية الى مرتبة البربرية او الجاهلية ، ولكنها تمنع الثقافة العمرانية . وهذه صحاري العالم كله كانت ولا تزال خلوا من العمران والحضارة وكل ثقافة عمرانية ولو لم تخرج بعض الشعوب السامية من الصحراء الى سورية لما كان قدرها ان تظهر مزاياها العالية وتنتج النتائج الثقافي العمراني الذي دفع البشرية في مراقي الحياة الاجتماعية دفعة سيظل زخمها فاعلا فعلة ما دامت البشرية تتقدم وترتقي .

والدولة في قبائل الصحراء هي دائماً وابدأ دولة قبائلية، وهي الدولة التي اشرنا اليها في بداية هذا الفصل ولا تدخل في الدولة التي اطلقنا عليها اسم الدولة التاريخية المتطورة ، المرقية ، المنشئة تاريخها، او هي (الدولة القبائلية) الدولة الاولى التي يجتمع شيوخها عند الحاجة للبت في امر كما يقضي به العرف او العادة او الدين . ومعظم ما تنتهي اليه هذه الدولة هو اتحاد بعض القبائل المشتركة في القرابة الدموية ، ولا تحتاج هذه الدولة الى اكثر من العادة

والعرف نظاماً نظراً للنمط الواحد الذي تسير عليه حياتها الفطرية البعيدة عن الاخذ بالعلم والفلسفة ، المنعزلة عن مجال التطور الاقتصادي الاجتماعي . ولما كانت الجماعات الفطرية عموماً واقعة تحت تسلط التصورات الخارقة (الدينية) كان الدين العامل الوحيد الذي يمكنه ان يوجد مركزاً مشتركاً للقبائل ، كما نجد مكة قبل الاسلام وبعده . والحقيقة ان البيئة الوحيدة الصالحة لتكون الدولة الدينية العامة هي بيئة القبائل اللاعمرانية . ولا يمكن ان تنشأ في هذه البيئة دولة عامة غير دينية . وقد ادرك حقيقة هذه النظرية ابن خلدون فكتب في مقدمته فصل « في ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصيغة دينية من نبوة او ولاية او اثر عظيم من الدين على الجملة »¹ ففي هذه البيئة مجال لقبول الشرع الالهي القاطع والخضوع له . ولا مجال لنشوء الشرع المدني والحقوق المدنية والشخصية وتطورها . والدولة الاسلامية التي وضع قواعدها النبي محمد بعد الهجرة هي الدولة الوحيدة التي امكنها ان نصير دولة عامة في بلاد العرب ونحن نرى في نشوء الدولة الوهابية العامة في القرن الماضي وعودتها الان الى الوجود بعد ان كانت قد قضت عليها الدولة العثمانية مصداقاً لقول ابن خلدون المذكور آنفاً .

بينما الكنيسة المسيحية في الغرب تحاول ان تنشيء على انقاض الامبراطورية الرومانية ، دولة دينية عامة برأسها البابا كانت الدولة الدينية في الشرق تسيطر بلا منازع .

هجر محمد مكة الى المدينة ليجعل الدين امراً مطاعاً وليوفق بين الدين والسياسة وبين الفكرة الروحية التي كان مخلصاً لها كل الاخلاص وبين حالة بربرية مادية لا مجال للثقافة الروحية فيها وقد يبدو عجيباً ان تكون البيئة الصالحة لسيطرة الدين اقل البيئات صلاحية لنمو الثقافة الروحية . ولكن لا غرو فحيث النفسية والحياة العقلية الروحية محدودة بنوع الحياة وظروف المحيط كان مجال التأملات الروحية والحياة العقلية - الروحية محدوداً . هنا المجال للتسليم بالله الواحد

والخضوع لاحكامه واطاعة حدوده وليس هنا المجال لمحاولة فهم الله في الف شكل وشكل من الحاجات والعلاقات النفسية التي لا يمكن ان تولد الا في مرتبة ثقافية حضرية عالية تتحرر فيها النفس من الحاح الضرورة المعاشية ومن الدأب عليها .

وقد رأى النبي انه لا بد من التوفيق بين رسالته الروحية العامة وامكانيات البيئة . فاخذت سور القرآن المدنية تقلل من التعليم الروحي الذي انتصفت به سورة المكية وتكثر من الاحكام الشرعية والحدود ، واخذت جماعة المسلمين المحمديين تصير قوة غايتها اخضاع الكفار لدين الله واحكامه المنزلة على النبي ، بعد ان كانت في بدنها جماعة روحية تجتمع لممارسة التفاهم الروحي بواسطة الايمان الجديد . وهكذا نرى بداية تكون الدولة الدينية التي اصبحت الدولة العامة للقبائل العربية .

كانت بلاد العرب لعهد محمد في حالة من تلك الحالات التي كانت تضطر قبائل الى الاخذ بالمهاجرة من الصحراء في طلب موطن جديد تكتمل فيه اسباب العيش . فلما نشأت الدولة الاسلامية وابتدأت تشعر بقوتها تحولت الحاجة الى المهاجرة الى طلب الفتح . والفتح لمد الاسلام بالحاجات كان مهمة الدولة الاسلامية الاولى بعد محمد فخرجت جيوش الجهاد ووجهتها سورية المنقسمة الى قسمين بسبب التسلط الاجنبي : الغربي التابع لبيزنطية ، والشرقي التابع لدولة الفرس فانتزعت الاول من نظام الدولة الرومية والثاني من فارس . وكان من حسن حظ سورية ان جيوش الفتح لم تقف فيها بل اندفعت موجاتها شرقا وغربا وجنوبا وما هي الا سنوات واذا بالدولة الاسلامية المحمدية قد صارت امبراطورية مترامية الاطراف مركزها مكة .

لم يترك محمد دستورا للدولة فهو قد اتم الدين ولكنه ترك الدولة تهتم بمصيرها . ولما كانت الخلافة اول واقوى سلطة في الاسلام ، خصوصا من الوجهة التنفيذية والادارية ، فقد اصبحت قبلة انظار الطامعين اليها وفي النزاع على الخلافة ظهر مبدأان : مبدأ الانتخاب ومبدأ النسب النبوي وحصر الخلافة في شرعية اهل البيت فكان النزاع بين المبدأين سجالا وكانت الكفة الراجحة

اولا في جانب مبدأ الانتخاب في خلافة ابي بكر وعمر وعثمان وبعد عثمان
اشتد النزاع بين المبدأين في شخصيتين قويتين جداً هما: معاوية الاموي وعلي
الهاشمي وعلي اقرب الى النبي واعظم شأننا من الوجهة الدينية.

ولكن معاوية كان قد اصبح ابن محيط غير المحيط العربي . فان العشرين
سنة التي قضاها في سورية «سرينته» او «سورته» واعطته اتجاهات جديدة
في الحياة الاجتماعية والسياسية . فان علم الدولة وفن السياسة وعلم الحقوق
الدستورية والمدنية والشخصية كانت قد بلغت في سورية ارقى مرتبة
عرفها العالم ، فاثرت البيئة الجديدة كثيراً على معاوية وجهازه وبعد نظر سياسي
رجحه على منازعه . ومن هذه الحقيقة ندرك السر في ان معاوية ، لا عثمان ،
اسس الدولة الاموية التي طورت الدولة في الاسلام تطویراً خطيراً .

سارت خلافة معاوية بالدولة الاسلامية في طريق وسط بين الانتخاب
وشرعية الخلافة ، ابي انها جعلت الانتخاب لمرشحي العائلة . ومع ان الدولة
الاموية قامت على القوة وعصبية البيت فانها لم تمنح مبدأ الانتخاب¹ بل
حصرتة وحددته فلم يعد انتخاب الخليفة يؤدي الى التحزبات وقيام العصبية
بعضها على بعض وهرتمن يقول² في تحويل الامويين الخلافة الى ملكية وراثية
انه كان حادثاً خطيراً لا يحسب شيئاً في جنبه اي حادث آخر في حياة
الشعوب الاسلامية الدولية . ولا شك في ان هذه الدولة السورية النشأة
اقتدت الامبراطورية الاسلامية من حالة الفوضى وتطاحن القوات .

ان الفضل في ايجاد الاتجاه السياسي الديني في الدولة الاسلامية يعود الى الدولة
الاسلامية السورية الاموية . ففي هذه الدولة جرت المحاولة الفعلية الوحيدة لشد
روابط اطراف الامبراطورية بالمركز³ وهو ما لم تدركه الدولة السورية العباسية

1 مرتمن AVV ص 38

2 اجنا ص 59

3 اجنا ص 51 و 52

اهميته ولم تحاول التطور نحو تحقيقه ، حتى ان سلطة الخليفة العباسي الفعلية كثيراً ما كانت تقف عند حدود مدينة بغداد¹ .

وانه لمن الثابت ان الدولة السياسية في الاسلام كانت الدولة السورية الاموية . فلما انتقل الامر الى العباسيين عادت الوجهة الدينية والعوامل الفقهية الى السيطرة . فقد لبس الخلفاء العباسيون عباءة النبي واولوا الوجهة الدينية معظم اهتمامهم² وكانوا لبعده نشأتهم عن بيئة سياسية حقوقية مرتقية كالبيئة السورية ، (خرج العباسيون من العربية الى الملك رأساً واتخذوا شرق سورية قاعدة لمكهم من غير ان يبرروا في حقبة تمدن سوري) ضعفاء في سياسة الدولة وهذا هو السبب في استفحال امر البرامكة وغيرهم من العناصر الفارسية والتركية وعظم شأنهم في تسيير شؤون الدولة . ولم يحاول العباسيون اقتباس النظرة السورية الى الحياة والمجتمع لان الاتجاه السوري المدني لم يكن يتفق مع التمسك الديني الذي جعلوه محور حركتهم .

كان من طبيعة الدولة الدينية ان تدخل في محدوديتها كل الداخلين في الاسلام وتساوي بينهم في الحقوق المدنية والسياسية الا فيما يختص بالخلافة فانها منصوص على الا تكون الا في قریش . وقد ساعد هذا المبدأ كثيراً على تماسك الجماعة الدينية وتعزيد الدولة . وعدت الدولة الاسلامية كل بلاد مفتوحة جزءاً من الامبراطورية الاسلامية . ولكن الامبراطورية الاسلامية كانت اسمية اكثر منها فعلية فقلما كانت سلطة الخليفة او رأس الدولة تسري في كل اقطار الدولة . نضرب مثلاً لذلك محاولة الخليفة عثمان وضع ادارة مالية مصر تحت ضابط الادارة المركزية فقد اعلن عامله عمرو انه لن يكون ممسكاً بالقرعة بقرونها بينما غيره يحلبها³ وكان خروج العباسيين من بلاد العرب لنقض الدولة السورية الحد الذي وقفت عنده محاولة هذه الدولة المشار اليها فوق ليحل محلها الاتجاه اللامركزي العباسي الذي لم يتمكن من مقاومة النزعات

1 هرمن ص 52

2 كولر ص 85

3 هرمن

الاستقلالية المستمدة من عصبية الشعوب المتعددة . وابن خلدون يجعل الدولة تقوم على العصبية التي يتم لها الغلب . والحقيقة ان التفكك نصيب كل دولة دينية ، لان كل دولة دينية تحمل في داخلها مبدأً لا يمكن الجمع بينها على استقرار في المجتمعات العمرانية الراقية لها الوظيفة الروحية والسلطة الزمنية . وهكذا تفككت امبراطورية « امير المؤمنين » او الخليفة وزالت صورتها بعامل الفتح المغولي الذي لم تكن لها قوة لدفعه ، حتى نشأت السلطنة العثمانية التي حاولت ان تبث فكرة الامبراطورية الاسلامية فتلقب السلطان بالخليفة . ولكن العوامل الطبيعية والثقافية كانت اقوى من السلطة الدينية الزمنية وهو ما ادركه الاتراك بعد الحرب فتركوا فكرة الدولة الدينية وخلعوا السلطان ونبذوا الخلافة وانشأوا دولة قومية في شكل جمهوري .

ويحسن بنا قبل ان نختم الكلام على الدولة الاسلامية ان نظهر اسسها الحقوقية . فقد ذكرنا ان المسلمين متساوون في الحقوق المدنية والسياسية والشخصية الا في الخلافة فهي في قريش . وكل من اعتنق الاسلام عد مسلماً له كل حقوق المسلمين .

شرع الدولة هو شرع الله المنزل على رسوله . فهو شرع واضح جامد (Rigid) ككل شرع ديني آخر ولكن الاجتهاد انقذ الموقف وكان مفيداً جداً في تطوير الشرع والحقوق .

ولما كانت كل بلاد افتتحت تعد بلاداً اسلامية وجزءاً من ارض الدولة الاسلامية فقد اصبحت الحقوق فيها حقوق المسلمين فقط . فعلى غير المسلمين ان يؤدوا الجزية عن يد « وهم صاغرون » ويكونوا في حماية الدولة . ولكنهم محرومون من الحقوق المدنية والسياسية ولا يبقى لهم سوى الحقوق الخاصة في الاحوال الاجتماعية والدينية المتعلقة بهم فهم مسموح لهم ان يمارسوا عباداتهم ويعقدوا الزواج حسب شرائعهم ويجوز ان يتزوج مسلم غير مسلمة ولا يجوز العكس وبعد نشوء الدولة القومية في البلدان الاسلامية ايضاً اصبحت يجوز كما في تركيا مثلاً . وكان فقدان الحقوق المدنية والسياسية من ام الدوافع التي جعلت شعوب البلدان المفتوحة تبادر الى اعتناق الاسلام فلا تقع في حكم الخاضعين .

ولسن القوانين في الدولة الاسلامية ثلاثة مصادر : 1 . علم العلماء 2 . اجماع المسلمين 3 . سلطة الخليفة 1 . و اثر الاجماع ضعيف فهو لا يظهر الا في وجوب أخذ العادة والعرف بعين الاعتبار عند الفصل في بعض المسائل الحقوقية . وبخروج الاجماع بقي الامر للعلماء والخليفة فكان هذان الجانبان يتنازعان في ايهما له الفصل في سن القوانين . فتارة يرجح الواحد وطوراً يرجح الآخر . وفي كل حال كان لا بد لكل قانون جديد من فتوى .

بعد انقسام الامبراطورية الى دول لم يعد لكل مسلم الحق في معدودية كل دولة اسلامية بل اصبح كل واحد يخص الدولة التي تحدد ارضها وشعبها ويدخل ضمن نطاق هذا التحديد .



الدولة الديمقراطية القومية في النزاع الطويل بين السلطة الباباوية الزمنية وسلطة الملوك ، في الغرب ، خرج الملوك ظافرين ، لان الكنيسة لم تستطع التوفيق بين القوة الروحية والسلطة الزمنية ووقعت في الانقسام . وفي النزاع بين سلطة الارادة الالهية المغيبة وسلطة الارادة الآخذة في ان تصير الارادة الشعبية العامة اضطر الدين لان يتنازل عن طلبه السلطة الزمنية ويترك ما لقيصر لقيصر وما للدنيا للدنيا ويحتفظ لنفسه بالالهيّات والروحيات . ومن هذه الجهة فقط يستطيع الدين ان يحتفظ بزعمه انه وحدة عامة ومن هذه الجهة فقط يستطيع الدين ان يبرر وجود مؤسساته .

مع نشوء المدن ونشاط التجارة والاحتراف ونهضة الاختراعات، دخل التمدن في طور جديد زعزع مؤسسات كثيرة . فالتجارة والاحتراف زعزعا النظام الفردي والعائلة القائمة باود نفسها، والاتجاه نحو المدن حرر الارقاء وابطل الاعتماد على سيد الارض ، واختراع البارود قضى على مكانة الفرسان النبلاء الذين رسم لهم سرونق صورته هزلية جميلة في بطله «دون كيخوط»

واختراع الورق والطباعة فتح الاعين والبصائر وايقظ الشعور. ومن هذه العوامل جميعها تكونت الطبقة الوسطى واخذت طبقة الملاكين والاقطاعيين تضعف وقويت سلطة الملك .

ان استيقاظ الشعور بالوحدة الحيوية والمصلحة الواحدة والرابطة الواحدة بالحياة في اشكالها واسبابها واتجاهها جعل الجماعة تدرك وجودها وجهازها بوسائل التعبير عن ارادتها فكان ذلك بدء نشوء القومية . فلم تعد العامة تبعا للامير تخدم مصلحته وتحتمي في ظله ، وهو سيدها الاوحد وعلاقة الملك ببناء الدولة هي علاقته بالامير فقط . كلا . بل اصبحت العامة لها رأي وارادة وهذه الارادة شرعت تميل نحو الملك ، لان الملك كان يمثل وحدة الدولة ووحدة السلطة ووحدة المصلحة ووحدة الشعب . ان مصلحة الشعب ومصلحة الملك كانتا ، بطبيعتها ، ضد مصلحة الارستقراطية الاقطاعية الاستثمارية المتسلطة المستعبدة التي كانت حائلا قويا دون ظهور الارادة العامة الآخذة في النمو والشعور بنفسها .

كانت الملكية في نزاع خفي وعلمي مع الاقطاعيين على السلطة . ففي كل اصطدام بين هاتين المؤسستين كان الشعب يقف في جانب الاولى ، حتى تغلبت الملكية على الاقطاع وتفردت بالسلطة . وفي هذا العهد الذي كان فيه الدين في فوضى ، تصالحت الدولة والدين واستمد الملوك حقوقهم من الله فهم على عروشهم بارادته ، حتى قال لويس الرابع عشر « انا الدولة » . ولكن القومية لم تقف عند حد القضاء على سلطة الاقطاعيين وتوحيد المرجع في الملك ، الذي اخذ تفرده في السلطة يتعاضم حتى اصبح شديد الوطأة ، بل سارت نحو الهدف الذي يرر وجودها وهو اقرار ان السيادة مستمدة من الشعب وان الشعب لم يوجد للدولة بل الدولة للشعب .

هذا هو المبدأ الديمقراطي الذي تقوم عليه القومية . فالدولة الديمقراطية هي دولة قومية حتما ، فهي لا تقوم على معتقدات خارجية او ارادة وهمية ، بل على ارادة عامة ناتجة عن الشعور بالاشتراك في حياة اجتماعية اقتصادية

واحدة . الدولة أصبحت تمثل هذه الارادة . فتمثيل الشعب هو مبدأ ديمقراطي قومي لم تعرفه الدول السابقة . الدولة الديمقراطية لم تمثل التاريخ الماضي ولا التقاليد العتيقة ولا مشيئة الله ولا المجد الغابر ، بل مصلحة الشعب ذي الحياة الواحدة الممثلة في الارادة العامة ، في الاجماع الفاعل ، لا في الاجماع المطاوع تحت هذا العامل الجديد ، عامل القومية الظاهر في تولد روح الجماعة والرأي العام ، تغير معنى الدولة من القوة الحاكمة المستبدة الى سيادة المتحد وحكمه نفسه . والوسيلة التي مكنت المتحد من تحقيق هذا المبدأ الجديد هي التمثيل السياسي¹ الذي مكن من الفصل بين السلطة الاشتراعية والسلطة التنفيذية وترجيح كفة السلطة التشريعية ، لانها تمثل ارادة الشعب تجاه الملك القابض على مقاليد الامور وتجاه السلطة التنفيذية المستولية على وسائل القوة كانت الطريق الى هذا الهدف طويلة وعرة . فقد تشبث الملوك بالحق الالهي والتفرد بالسلطة . فانتقل النزاع من كونه نزاعا في الدولة بين الملك والنبلاء الى كونه نزاعا بين الملك والقوة الجديدة التي ايده في نزاعه السابق . ورويدا اخذت القومية المستيقظة تنتزع حقوقها من الملكية حتى قضت عليها وحوطتها الى مجرد ملكية دستورية مقيدة . وصارت السيادة الحقيقية في الشعب واصبحت الدولة تمثيلية .

ان معدودية الدولة مهدت السبيل لتوليد المتحد القومي ولكن القومية اوجدت صفة جديدة وحقوقاً جديدة لم تكن للمعدودية القديمة . انها شيء لا سلطة للدولة عليه . فهي لا تمنح من قبل الدولة لمقاطعات بعيدة وشعوب عديدة كما كانت تمنح المعدودية في رومة لعهد القياصرة ، بل هي حق من حقوق كل فرد من افراد الامة بالولادة .

والدولة القومية تتميز بانها لم تعد دولة تجبل الاقوام جبلا في مساحة الارض التي تبسط ظلها عليها ، لانها اصبحت تصطدم بارادة متحدها هي ، قوميتها ،

وارادة القوميات الاخرى . فاذا اتسع نطاق الدولة حتى جاوز نطاق الامة
 اصبحت الدولة امبراطورية او استعمارية كما هي الدول الاولى الان .
 عند هذا الحد نقف في استعراضنا نشوء الدولة وتطورها لننتقل الى درس
 الامة والقومية لنعرف حقيقة هذا المتحد الاجتماعي واهميته التي اصبحت دين
 البشرية في العصور الحديثة وغطت شخصيتها القوية الفعالة على شخصية الدولة .
 كانت الدولة قبل نشوء القومية ارادة خصوصية تفرض نفسها على
 المجموع الذي تشمله ، اما بعد نمو القومية فقد اصبحت النظام والهيئة الممثلين
 لارادة الامة . وهكذا نرى ، مع نمو الدولة ونمو اعضائها في الفهم الاجتماعي ،
 في الشعور بمحاجاتهم الخاصة وامكانيات الحصول عليها بواسطة النظام السياسي
 تأخذ قوة الدولة في الاستقرار شيئاً فشيئاً على خدمتها هذا الهدف . فالدولة
 وحكومتها ليستا مظهرين اجتماعيين نهائيين ، بل تقومان على ما هو اعرق منهما ،
 على حياة المتحد و ارادته ¹ .

الفصل السابع

الوتم الكنعاني

نمذير النمذ¹

اذا كانت الدولة مظهرأ سياسيامن مظاهرالاجتماع البشري فالامة واقع اجتماعي بحث . ودرس الامم ونشوتها هو درس اجتماعي، لا درس سياسي، وان كان لا غنى للعلم السياسي عن درس الامة والقومية ، لاهميتها في النظريات السياسية وفعلها في تغيير مجرى الشؤون السياسية واصلاح المعتقدات والمبادئ السياسية ، كما مر في الفصل السابق .

واذا كانت الامة واقعا اجتماعياً ، وانها كذلك ، فما تحديد هذا الواقع الاجتماعي وما اسبابه وخصائصه ومميزاته وما هي روحيته او عصبية ، التي نسميها القومية² وكيف نفهمه ؟ .

قد رأينا في بحثنا الاجتماعي البشري ، في الفصل الرابع من هذا الكتاب ، ان الحياة البشرية ، ككل حياة اخرى ، تجري وفاقالناموس عام هو ناموس العلاقة البيولوجية الثلاثة الاضلاع : الجسم — النفس (الدماغ) — المحيط .

1 قد اصطلحنا على ترجمة: Gemeinschaft, Communauté, Community — متحد

2 ان اختلاف اللفظ في النسبة الى الامة في اللغة العربية قد ادى الى التباس في المعنى كثيرا ما انتهى بنشوبش في الابحاث . فيجب على الفاري. ان يتعاشى هذا الالتباس .

فهل يعني ذلك ان اشتراك الكائنات الحية في هذا الناموس العام يمكن ان يولد اجتماعاً عاماً بين الانسان والحيوان وان يكون متحدات عامة او مشتركة بين انواع الحيوان والانسان ؟ وهل ، اذا وجدنا في عالم الحيوان انواعاً اجتماعية تجمهرية قائمة على اساس هذا الناموس المشترك ، كالنمل والنحل والذئاب وغيرها ، يصح ان نبحث في انشاء متحدات من هذه الانواع والانسان بناء على اضافة ناموس آخر مشترك هو ناموس الاجتماع ؟ واذا كان الجواب على كل هذه الاسئلة نفيًا فما هو السبب المنطقي ، الذي نحتاج اليه دائماً في اقناع عقولنا المنطقية ؟.

السبب هو ان الناموس اصطلاح بشري لمجرى من مجاري الحياة او الطبيعة نقصد به تعيين استمرار حدوث فعل او خاصة من افعال وخواص الحياة او الطبيعة لا أن الطبيعة او الحياة وضعت لكائناتها هذه النواميس وامرّها بالسير عليها . وفي كل النواميس التي نكتشفها يجب ان لا ننسى اننا نستخرج النواميس من الحياة فيجب ان لا نجعلها تتضارب مع المجرى الطبيعي الذي نعرفه بها . فكوننا اكتشفنا ناموساً او ناموسين من نواميس الحياة العامة يجب ان لا يحملنا على نسيان الواقع الطبيعي و نواميسه الاخرى فالنواميس لا تمحو خصائص الانواع . واذا كنا قد اكتشفنا سنة التطور فيجب ان لا نتخذ من هذه السنة اقبسة وهمية تذهب بنا الى تصورات تنافي الواقع وتغاير الحقيقة .

ان القياس كان ولا يزال مصيبة كبيرة في الابحاث العلمية الاجتماعية ، خصوصاً في الابحاث التي لا تجرد علم الاجتماع من النظريات الفلسفية ، من الفلسفة الاجتماعية . وهو الالتجاء الى القياس ما اوجد شيئاً كثيراً من الخلط في المسائل الاجتماعية عموماً ومسألة الامة والقومية خصوصاً . فالكلام السياسي عن الامة ، مثلاً ، انها مجموع ذو ارادة واحدة قد قاد الى جعل الارادة غرضاً معيناً من اغراض الحياة الاجتماعية ، او تمثيلها بصورة الارادة

الفردية كما في القول : اريد السفر الى اميركا او اريد ان اشرب . والحقيقة ان الارادة الاجتماعية ليست في هذه البساطة . فلا تكفي ارادة عدد من الناس ، من مجتمع واحد او من مجتمعات متعددة ، السفر الى اميركا لانشاء متحد . بل ان الاشتراك الفعلي في تنفيذ هذه الارادة لا يولد متحداً . ان ركاب السفينة لا يشكلون متحداً ، لانهم يشتركون في مصلحة واحدة هي السفر وارادة واحدة هي الانتقال ، فان لم يكونوا متحداً من قبل فهم ليسوا متحداً . ولقد اشرنا في غير موضع من هذا الكتاب (ص 87) الى ان الاجتماع البشري ليس اجتماعاً مطلقاً او اختيارياً مطلقاً . فاذا كان الاجتماع صفة عامة في الانسانية فهذا لا يعني ان الانسانية مجتمع واحد يسري فيه الاجتماع بمجرد الانسانية . فالسوري المسافر الى اميركا ليس كالمنتقل من دمشق الى بيروت او القدس ، من وجهة الاتحاد الاجتماعي ويعظم التباين في انتقاله الى الصحراء مثلاً . وقد نجد في بعض الدروس العلمية الاجتماعية اوضاعاً تصنيفية عامة كالاصطلاح على نعت مرتبة الرابطة الاجتماعية الاقتصادية بمرتبة او مظهر العلاقة الاختيارية¹ بالنسبة الى العلاقة الدموية الاولى (راجع ص 53) . فمثل هذا الاصطلاح قد يحمل على تصور اختيار استبدادي او اختيار مطلق والواقع غير ذلك . لا يختار الانسان المجتمع الذي يعيش فيه اكثر مما يختار والديه ، ولكنه قد يخيراه على ابيه او العكس ليس المجتمع *Contrat Sociale* اساسه الفرد . وفي المجتمع يختار المرء من ينشئ* علاقات معهم اختياراً لا يخلو من تقيد . ولا نريد ان نبني هنا فلسفة اجتماعية كالفلسفة التي يقول بها تكانا الياباني او شمانبيخ الالماني² اللذان يذهبان الى ان رابطة الاجتماع في

1 قير ص 292 و 293

2 ايضا المكان نفسه

المستقبل ستكون رابطة الميل او العاطفة . فذلك طور لا نعرف متى يكون، على افتراض انه كائن لا محالة ، ولا كيف يكون .

اذا كانت البشرية ليست مجتمعا او متحدا فما هي اذا ؟ هي مجتمعات ومتحدات . ولماذا هي كذلك ؟ ولنوضح اكثر ونسأل : ما هي العوامل والاسباب التي تولد المجتمعات وتكون المتحدات ؟ .

ان الجواب على بعض هذا السؤال قد اعطي في «المجتمع وتطوره» ففي هذا البحث تكلمنا عن الروابط الاجتماعية الاقتصادية الفاعلة في تطوير المجتمع عموما ، اي كل مجتمع تتناوله هذه الروابط نفسها . ولكن المجتمع عموما ليس المتحد الخاص المعين . فكيف نعين المتحد بالنسبة الى ما نسميه احيانا المجتمع الانساني الى الانسانية ؟ .

هل مجرد انتشار ثقافة مادية وروحية واحدة بين عدد من الجماعات البشرية يولد من هذه الجماعات متحداً رابطته الثقافة ؟ اذا كان الجواب نقياً ولم تكن الثقافة الواحدة اساساً للمتحد فما هي عوامل المتحد وروابطه ؟ .

ان الثقافة العامة تفرق بين انواع المتحدات ، لا بين المتحدات ، فهي اول شاطر بين الجماعات الاولى والفطرية الجاهلية وبين المجتمعات العمرانية الراقية ولكن الثقافة ليست من الصفات الطبيعية الشخصية التي لا تنتقل وسنعود الى درسها فيما يلي . اما الان فزريد ان نضع قاعدة عامة للمتحد ندرسه عليها .

اريد ان اجاري هنا مكيور في ايضاحه المتحد انه كل مساحة تشتمل على حياة مشتركة ونكون متميزة عن المساحات الاخرى تميزاً لا تصح بدونه تسمية المتحد¹ . فالقرية متحد والمدينة متحد والمنطقة متحد والقطر متحد

ولكل متحد خصائص تميزه عما سواه مما هو اصغر منه او اوسع منه ، اقل منه او اكثر منه . فاذا سلمنا بالافتراض ان المريح مأهول وان فيه نوعا من البشر يحيون في جوه وارضه حياة توافق ذلك الجو وتلك الارض ، صبح ان يكون الناس على هذه الدنيا متحداً مشتركاً ، على ما فيه من متناقضات ، في خصائص تميزه عن متحد سكان المريح ، الذين ، على ما قد يكون لهم من فوارق متناقضة . لا بد ان يشتركوا في خصائص حياتهم العامة المميزة لهم عن سكان كل سيار آخر ، الموجودة لهم امكانيات تفاعل داخلي تحدد مجموعهم بالنسبة لمجموع هذه الدنيا ويكون اساس هذه الامكانيات خصائص النوع . ويكون معنى هذا المتحد منتهى التوسع في استعمال هذه اللفظة التي تفيد التجانس والتلاحم والتي اريد بعد الان ان اقتصر فيها على الواقع الاجتماعي ، على الجماعة المشتركة في حياة واحدة تكسبها صفات مشتركة بارزة وتسبغ عليها ما يمكننا ان نسميه شخصية ووحدة خاصة بالنسبة الى الوحدة الانسانية العامة . فان شرط المتحد ليس ان يكون مجموعاً عددياً من ناس مشتركين في صفات النوع الانساني العامة فحسب ، بل مجموعاً متحداً في الحياة متشابهاً افراده في العقول والاجسام تشابهاً جوهرياً . ولا نقصد بهذا التشابه شيئاً سلاباً بحث ولكننا نقصد ما عناه بواس في الاجابة العضوية على محرضات البيئة التي تحدد المتحد (راجع ص 44) . ومن ايضاح بواس نعلم ان التشابه العقلي والفيزيائي نتيجة ، لا سبب . فهو ناتج عن الاشتراك في الحياة الواحدة . فالنقاد الخبير يقدر ان يميز بين الدمشقي والبغدادي والبيروني او بين الجبلي والسهلي من بعض الصفات التي يتحلى بها كل من هؤلاء وتنطبع فيهم بهامل متحد كل منهم . كذلك يمكنك حالا ان ترى الفوارق المميزة بين السوري والمصري وتدرك في مقابلتها ان الواحد منها ينتمي الى غير متحد الآخر . فمتحد المدينة والمنطقة واقع اجتماعي وكذلك متحد القطر .

ان الاشتراك في الحياة يولد اشتراكاً في العقلية والصفات كالعادات والتقاليد واللهجات والازياء وما شاكل . وعدم الاشتراك في الحياة بوهي

اشد الروابط معانة كالرابطة الدموية وهو ما تنبه له وذكره ابن خلدون في مقدمته ومنه القول « النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر » ، اي ان النسب متى صار من باب العلم وفقد الاشتراك في الحياة الواحدة اصبح لا تنفع معرفته ولا يضر نسيانه او جهله .

الاشتراك في الحياة هو ما يعنى عنه عدد وافر من الكتاب والدارسين حين يتكلمون عن المتحد انه جماعة لها صفات مشتركة من عادات وتقاليده ولهجات ، حتى انهم يجعلون هذه الصفات الاساس الذي يقوم عليه المتحد ، فيأخذون عدداً من الصفات العامة المشتركة ويحاولون ان يجعلوا من الذين تنطبق عليهم هذه الصفات متحداً واحداً لا يتقيد بمساحة ولا تربطه بيثة . وهم في فعلهم هذا ينسون او يجهلون ان هنالك صفات عامة تسري على جميع البشر من غير ان تجعل منهم متحداً . فالمتحد هو دائماً امر واقع اجتماعي . وان من الصفات ما قد يميز جماعات من الناس عن جماعات اخرى من غير ان يعني ذلك وجود متحد منها . فان الصفات تتبع المتحد لا المتحد الصفات .

لنتوسع في درس هذا الموضوع ولننظر في التخييط الذي يجرنا اليه حسابان صفات مشتركة اساساً للمتحد . اذا سلمنا بهذه النظرية ، سلمنا بان الصفات من عادات وتقاليده ومناقب هي صفات ثابتة لا تتغير ولا تتحول ولا تنتقل ولا تكتسب ، بحيث يتحتم على المشتركين في مجموعة معينة منها ان يكونوا متحداً خاصاً محددات هذه الصفات كل التحديد او يمتنع عليهم الدخول في متحد تسري عليه صفات تتميز عن صفاتهم ويكون الاختلاف في الصفات بمثابة اختلاف طبيعي وراثي . وهذا يعني الا يؤمل السوريون والانكليز والطيالان والالمان انشاء متحد في نيويورك او في الولايات المتحدة عامة ، او الدخول في المتحد الاميركاني ، لانهم اقوام لكل منها صفات خاصة تميزه عن القوم الاخر ، او تختلف عن الصفات السارية على محيط المتحد الاميركاني او لكتنا كلنا نعلم ان السوري الذي يهاجر الى اميركا لا يلبث ، اذا اقام ، ان يتبدل صفاته الخاصة ويكتسب صفات المتحد الاميركاني الخاصة . فكيف زالت صفاته الاولى الثابتة التي كانت تميزه عن الاميركان ومن اين جاءته

الصفات الاميركانية التي اصبحت تميزه عن السوريين ؟ اليس في هذا الواقع برهان مفحم على ان الصفات ليست اساس المتحد وان اساس المتحد والصفات هو الاشتراك في الحياة الواحدة ؟ بلى . فحينما اجتمع جمهور كبير من السوريين في اميركا وقل اختلاطهم مع الاميركان وظلوا محافظين على اشتراكهم في حياتهم ، في متحدثهم ، فهم يكتسبون كثيراً من طابع البيئة ولكنهم يظلون متحداً متميزاً عن الاميركان بنسبة اقلاهم من الاشتراك في الحياة الاميركانية وعكفهم على حياتهم السورية . وكلما قل تعاشرهم فيما بينهم وازداد اشتراكهم في الحياة الاميركانية ازداد تخلفهم باخلاق الاميركان واكتسابهم صفاتهم . واذا كانت اميركا بعيدة على القاري في سورية فلنأخذ مصر مثلاً . ألسنا نرى اشتراك السوريين المقيمين في مصر في الحياة المصرية يكسبهم ، تدريجاً ، صفات مصرية فيعود واحدهم الى سورية يخاطبك بلهجة « ازيك » بدلاً من « كيف حالك » و « خبر ايه ؟ » بدلاً من « شو صار » الخ . او ليس عدم حصول هذه الصفات لهم الا بعد اقامتهم في مصر دليل على ان صفات المتحد قائمة على اساس الاشتراك في الحياة ، لا ان الاشتراك في الحياة قائم على اساس الصفات ؟ .

لأخذ متحداً صغيراً يمكننا ان نراقبه في جزئياته اكثر من المتحد الكبير كالشوير ، مثلاً ، او صوفر او مشغرة او بلودان او معلولا او بيروت او دمشق او نابلس او بغداد . اذا اخذنا الشوير مثلاً وجدنا ان للشويريين لهجة خاصة في النطق واشتراكاً في صفات نفسية او خلقية خاصة كاشتغالهم بالصلاية والعناد وعادات ومظاهر خاصة في نوع معيشتهم والحرف التي يحترفونها ناتجة عن اختباراتهم الخاصة . ولا بد لمن هو غير شويري من ملاحظة بعض مظاهر خاصة من حياة الشويريين اليومية . ومع ان عادات ومظاهر اهل بكفيا تقرب كثيراً من عادات ومظاهر اهل الشوير فان لكل واحدة من هاتين البلدتين بعض الصفات الخاصة التي لا بد ان يظهر اثرها وفرقها في المعاشرة لتدل على ان ابن الشوير وابن بكفيا من متحدين لا من متحد واحد . فهل يعني

ذلك انها من متحدين ، لانها متميزان الواحد عن الآخر ، او انها متميزان ، لانها من متحدين اثنين ؟ ولا شك ان الوجه الثاني هو الصواب في بحثنا عن السبب في حين ان الوجه الاول صواب في الاستدلال ، لاننا نرى الشوري والكفي يفقدان خصائصها المميزة اذا تركا متحديها وسكننا بيروت ، مثلاً ، هذه طويلة تسمح للبيئة الاجتماعية بالتأثير عليهما او اذا جيء بهما الى بيروت طفلين وريراً فيها . وليس من ينكر الفوارق بين متحدي بيروت ودمشق ، مثلاً ، فلهجة البيروتي ومظهره الخارجي ونوع حياته ، من الوجهة الخاصة ، وبعض اتجاهاته النفسية كل هذه تميزه عن الدمشقي . ولكن جميع هذه المتحدات الصغيرة والوفاء مثلها تؤلف متحداً واحداً هو المتحد القومي او متحد الامة او متحد القطر ، اسماً لمسمى واحد . وهي في مجموعها تشكل وحدة يعم في افرادها التجانس العقلي والتجانس في الهيئة والمظهر ، التجانس الذي هو اكثر واقوى من الفوارق الجزئية . وشرط كل متحد يصح ان قسميه متحداً ان يكون تجانسه اقوى واكثر من تباينه .

عند هذا الحد يمكننا ان نعين المتحد بالنسبة الى صفاته بانه اتحاد مجموع من الناس في حياة واحدة على مساحة محدودة يكتسب من بيئته ومن حياته المشتركة الخاصة صفات خاصة به الى جانب الصفات العامة المشتركة بينه وبين المحيط الذي هو اوسع منه ، بينه وبين جميع البشر ، وبينه وبين المتحدات الاخرى . اما تحديد المتحد بانه صفات مشتركة تشتمل على عدد من الناس بصرف النظر عن حدود المساحة والاشتراك في الحياة فمن الاخطاء التي ادت الى كثير من البلبلة والهدر .

لنترك هنا تحليل المتحد من حيث صفاته ولناخذ في تحليله من وجهة اعمق من وجهة الصفات : من وجهة العلاقات ، من وجهة الاغراض والمصالح والارادة . فما لا شك فيه ان وضع عدد من المشدوهين او المجانين في بقعة محدودة من الارض لا يكون متحداً اجتماعياً ، كما ان اجتماع عدد من المسافرين على باخرة او في عربة قطار لا يكون متحداً . ولقد تكلمنا عن الارادة والمسافرين في بداية هذا الفصل ونريد هنا انه اذا كانت

الارادة خاصة ملازمة لكل متحد فلا يحسن ان نتجاهل الواقع فنظن ان التوافق في ارادة معينة او ارادات معينة يكفي لايجاد المتحد . فاذا تكلم العلماء عن عوامل الاجتماع ووصفوها بأنها قوى او توافق المصلحة والارادة فيجب الا يبادر الى تكوين اعتقادات سطحية بشأن المصلحة والارادة بحيث تستعمل المصلحة بالمعنى التجاري البحت وتستعمل الارادة بالمعنى الفردي او الاستبدادي . فلا يتصورن احد ان تأليف شركة تجارية من سورين وانكليز لاستثمار بعض اسواق الصين او البرازيل يؤلف متحداً اجتماعياً من افراد الشركة بناء على تعريف الشركة بأنها هيئة تجمع المصلحة والارادة ، والمصلحة والارادة هما قطبا المجتمع او المتحد . ومن تصور شيئاً من ذلك فقد اختلط عليه ما هو شأن المتحد وما هو شأن الجمعية او الشركة .

نتكلم عن المصلحة والارادة متابعة للاصطلاح العام ولان المصلحة والارادة اوفى بالتعبير واوضح . فالحب الجنسي ، مثلاً ، هو اشد من مصلحة ، هو حاجة بيولوجية والجوع كذلك حاجة بيولوجية ولكن سد الجوع مصلحة ترتقي او تنحط وارواء الحب مصلحة ترتقي الى اعلى مراتب النفسية وتنخفض الى ادنى مراتب الحيوانية - البيولوجية والتوسع في معنى المصلحة يشمل كل ما تنطوي عليه النفس الانسانية في علاقاتها . وبهذا المعنى تتكلم عن المصلحة الاجتماعية . واذا كانت المصلحة والارادة هما قطبا المجتمع فواحدهما سلبي وهو المصلحة والآخر ايجابي وهو الارادة فالمصلحة هي التي تقرر العلاقات جميعها والارادة هي التي تحققها . وبديهي انه لا ارادة حيث لا مصلحة ، فحين يجوع الانسان يريد ان يأكل وحين يعطش يريد ان يشرب وحين يشفق يريد ان يحب . فالمصلحة هي طلب حصول ارتياح النفس . وتحقيق ارتياح النفس هو غرض الارادة . وهكذا نرى ان المصلحة غير المنفعة او الفائدة ، وليست هي دائماً وليدة الشعور بالحاجة ولا هي والحاجة شيئاً واحداً . اننا نعني بالمصلحة في هذا البحث كل ما يولد او يسبب عملاً اجتماعياً وبناء على هذا التعريف يمكننا ان نقول ان رابطة المتحد هي رابطة المصلحة فالمصلحة وراء كل متحد . وكلما نمت الحياة وازدادت ازدادت المصالح التي

تولد الاجتماع وقلت المصالح المفرقة .

كما ادى استعمال الامثال في الكلام على المجتمع الى شي كثير من الهذر كذلك ادى الكلام غير المنقود الى اساءة فهم واساءة استعمال المقصود من المصلحة والارادة . وتجنباً للوقوع في فوضى الاصطلاحات التي عمدها لغة الجرائد في قطرنا تعميماً فاضحاً يجعل كل دراسة جدية لوضع الاشياء في مواضعها عملاً شاقاً، رأيت ان اعرض هنا للمحنة من المصالح الاجتماعية التي يمكننا ان نسميها مصالح المتحد ، او مصالح لها خصائص تربط الناس في متحد .

ان المصالح ، مبدأياً ، صنفان يجب الا يصير بينهما خلط وتداخل كما يحدث عادة في تعميم المصطلحات الفنية . فهناك المصالح المتشابهة او الشكلية التي هي لكل فرد مثلاً هي لكل فرد آخر ، كتحصيل المعاش او ربح الصيت لوجع الثروة، او اي مصلحة أخرى شخصية خاصة . فهذه المصالح هي شكلية او متشابهة ولكنها لا تقتضي اتحاد من يريدونها او إيجاد علاقة اجتماعية ثابتة فيما بينهم . وهناك المصلحة العامة او المشتركة التي يجمع عدد من الناس على الاشتراك في تحقيقها لأنها تشمل الكل ، كمصلحة خير القرية او المدينة او القطر . ومهما كان الباعث على العمل لهذه المصلحة ، فالمصلحة نفسها تظل مصلحة للجميع لأنها تشملهم ، اي انه قد يكون حب المجد هو الموحى او الدافع لبعض الاشخاص على العمل للمصلحة العامة ، فتكون المصلحة في هذا المثل مركبة بالنسبة الى الشخص، ولكنها بالنسبة الى العموم عامة بسيطة ، وهنا نضطر الى التمييز بين المصلحة العامة الاولى بالنسبة الى الكل وبين المصلحة العامة الثنوية بالنسبة الى الشخص الذي يتخذ من المصلحة العامة وسيلة لمصلحة شكلية شخصية هي المصلحة الاولى له . فالاساس الاجتماعي للمصلحتين واحد هو خير المجتمع وهو وحده يوجد علاقة المصلحة الاجتماعية الثابتة . ومهما يكن من الامر في هذه المسألة لمصلحة المتحد تظل قائمة لانها دائمة وهي تختلف عن مصلحة قرية منها هي مصلحة الشركة فهذه المصلحة تقوم

على اساس المصلحة الشخصية البحت وكل اعتباراتها العامة مقررة بالمصلحة
الشكلية لكل شخص فهي خصوصية قبل كل شيء، لان غرضها خصوصي،
معين ومحدد . فاذا رجعنا الى مثل الشركة السورية - الانكليزية المتاجرة
بصنف معين وجدنا انه متى وجدت شركة من هذا النوع نفسها تبجاء حالة
لا تسمح بالاثراء الذي هو غرضها لم يبق للشركاء اية مصلحة اخرى يجب
اعتبارها والشركة تزول بزوال غرضها . الشركة وسيلة مصالح خصوصية
متماثلة . اما المتحد فهو مجمع الحياة الاجتماعية . هو مقر الاحياء المتحدين في
الحياة بكل مصالحها . الشركة او الجمعية هي شيء جزئي اما المتحد فشيء شامل
كامل فيه تقوم جميعات من كل نوع وتزول وهو مرجعها . هو اكبر
واوسع من اية جمعية ومصلحه عمومية وبعضها ثابت لا يزول الا بزوال
الحياة . باندثار المتحد كما بنكبة من النكبات .

يجب الا يفهم من هذا الايضاح اي تناقض بين ما نقوله هنا وبين ما قلناه
في الفصل الخامس من ان رابطة الاجتماع الاساسية هي الرابطة الاقتصادية .
فيجب ان لا نتصور الرابطة الاقتصادية عبارة عن عملية اقتصادية او غرض من
اغراض الربح الاقتصادي ، بل مصلحة تأمين حياة الجماعة وارتقاؤها .
ولذلك يمكننا ان نعد المصالح المتشابهة الجوهرية من اهم المصالح الاجتماعية .
فتأمين سد حاجة الجوع والبرد يسهل جداً في الاجتماع وكل مجتمع لا يؤمن
سد هذه الحاجات لا يمكنه ان يثبت ولهذا السبب نرى الافراد الذين لا يجدون
تأميناً لمصالحهم الحيوية في متحدهم يهجرونه حالما يتمكنون من ذلك ، الى
بيئة جديدة يجدون فيها غرضهم الاول . حيثما وجد متحد كانت مصلحة
حياة كل فرد من افراده ، مصلحة حياته العامة ، اولى مصالحه . ان مصالح
الحياة هي مصالح كل متحد ولكن ليست مصالح اي متحد مصالح كل متحد ،
لان مصالح المتحد ليست بيولوجية فقط ، بل هي مصالح نفسية (عقلية) ومصالح
حيوية نوعية ايضاً وقديماً ميز ارسطو بين « الحياة » و « الحياة الجيدة »¹
فاذا كانت مصالح الحياة الجيدة كذلك ، ان مصالح الحياة الجيدة هي التي

متنوع وتنحدر بتنوع المتحدات وتحددها ، مولدة انواع جديدة من الاشتراك في الحياة . ولكن جميع هذه المصالح لا تقوم الا على اساس المصلحة الاقتصادية ، وقد رأينا في درسنا « المجتمع وتطوره » كيف ارتقى المجتمع وفاقا لنجاح المصلحة الاقتصادية .

اذا كانت المصلحة الاقتصادية اساسية في كل مجتمع فهو لانها تخدم كل مصلحة اخرى حيوية او نفسية . والمتحدات جميعها تماثل في ان لها مصالح حيوية ولكنها تتفاوت في هذه المصالح وفي مصالح الحياة الجيدة بالنسبة الى المرتبة الثقافية والدرجة الاقتصادية . ففي القبائل التي لا تزال على درجة الرابطة الدموية نجد المصالح انقائمة على الحاجات الحيوية العضوية اكثرها من نوع المصالح الجنسية وهي المصالح التي تتعلق بالزواج والعائلة والنسب اما مصالح الحاجات الحيوية الاجنبية ، اي مصالح الطعام والشراب واللهو وغيرها فهي بسيطة جداً من رعاية وجمع نبات وثمر . واما مصالح الحاجات النفسية (العقلية) فقليلة وضعيفة جداً وهي تنحصر في بعض القصائد او الاغاني وكلها تدور على محور العلاقات الجنسية والحرب او الغزو وفي الدين الذي يعني التسليم لارادة عليا او لقوة خارقة ، لله القدير العلام ، خالق السموات والارض . وجميع هذه المصالح عامة في المجتمع الفطري ومتداخلة ، فهي مركبة الحقيقة ان المصالح لا تتعدد وتتعين الا في المجتمعات الراقية وفي هذه المجتمعات تتحدد المصالح وتولد جمعيات معينة . والمصالح وجمعياتها تتميز وتنوع بحيث تجعل وحدتها اتم واوضح .

في المتحد الراقى نجد المصالح جميعها تنوع وتتعين بتنوعها وتؤدي الى انشاء جمعيات من كل نوع منها تجمع كل جمعية الافراد العاملين لمصلحتها . وهذه المصالح على ثلاثة انواع : النوع الاساسي وهو يشمل المصالح الحيوية والمصالح النفسية (العقلية) . والمصالح الحيوية هي اولا : الجنسية ، وجمعياتها العائلة في اشكالها . ثانيا : الاجنبية ، وهي ما تعلق بالغذاء واللباس والمدراء وتؤدي الى انشاء الجمعيات الزراعية والصناعية والتجارية وجمعيات الصحة والطب

والجراحة . والمصالح النفسية هي اولا : المنطقية من ناحية وفلسفية ودينية وتهذيبية ، وتحدد في الجمعيات العلمية والفلسفية والدينية : (الكنيسة) والتربوية . وفي المدارس والمعاهد التهذيبية . ثانيا : الفنية . وتتناول جمعيات الرسم والدهان والموسيقى والتمثيل والادب . ثالثاً : المصالح الخصوصية ، مصالح السلطة والجاء . والعاملون لها ينشئون الاندية الخاصة والجمعيات العسكرية والقومية . ثم تأتي المصالح الاقتصادية البحت (تميزاً لها عن المصالح الاقتصادية الحيوية التي تبث الجمعيات الحيوية في نوعها الجنسي واللاجنسي) وهذه تتناول الجمعيات المالية والتجارية الكبرى والمصارف والشركات المتحدة « كالترسط » وغيرها والاتحادات التجارية وجمعيات المستخدمين وجمعيات المستخدمين الخ . وتأتي في ارقى المراتب المصالح السياسية واكبر جمعياتها ، الدولة ، تشمل جميع مصالح المتحد الانتم الذي هو الامة ويتفرع من الدولة جمعيات اخرى اصغر منها تختص بالمتحدات التي هي اصغر من الامة هي الحكومات المحلية للمناطق والمدن . وبعد الدولة نجد الاحزاب السياسية التي هي جمعيات تختص بمصالح الفئات . ثم تأتي الجمعيات السياسية للقيام على مصالح معينة . ثم الجمعيات القانونية والقضائية وغيرها . وهنالك ايضا المصالح الاجتماعية العمومية وهي تشكل جمعيات التعارف والصحبة وندية السمر والتسلية البريئة او المفيدة .

هذه صورة غير تامة من مصالح اي متحد راق وهي على ما بها من نقص تمثل جلياً بعد المرحلة بين مصالح الجماعات الفطرية والمجتمعات المتمدنة الراقية . وكلما ارتقى المتحد في ثقافته المادية والعقلية ازدادت المصالح المعينة التي من شأنها ترقية الحياة الجيدة وتجميلها .

قد عرفنا المتحد بالنسبة الى الصفات الخاصة التي تميزه عن غيره (راجع ص 148) ونرى ان نعرفه بالنسبة الى مصالحه وارادته ، فهو من هذه الوجهة وحدة اجتماعية حاصلة لاعضاءها القناعة الداخلية الاجتماعية ان لهم مصالح تكفي لتفاعل اعمالهم ، تفاعل مصالحهم واراداتهم ، في حياة عمومية مشتركة على

مستوى ثقافي معين ، ضمن حدود مساحة معينة . وبعد هذين التعريفين هل ندرك الفارق المعين الرئيسي بين كل متحد وكل متحد آخر ؟ اهو الصفات المميزة وقد رأينا ان هذا الفارق ليس من الثبات والتحدد بحيث يصح ان يكون الفارق الرئيسي المعين ؟ ام هو المصلحة ومصلحة عدد كبير من المتحدات تماثل الى درجة يستحسن معها توحيدها ؟ ام هو الثقافة ونحن نعلم ان متحدات عديدة كبيرة وصغيرة تأخذ بثقافة واحدة عامة ؟ كلا . ليس واحداً من هذه الفوارق الفارق الاساسي ، بل الفارق الاساسي هو وحدة الحياة المتجمعة ضمن حدود معينة . فالمتحد الاجتماعي ليس بمجرد اوصاف او مصالح ، بل هو امر واقع . هو جماعة من الناس تحيا حياة مشتركة في بقعة معينة ذات حدود .

كل متحد ، مهما كثرت صفاته او قلت ومهما تعددت مصالحه ، هو متحد قائم بنفسه . كل قرية متحد ولا يعكس وكل مدينة متحد ولا يعكس وكل منطقة متحد ولا يعكس وكل قطر متحد ولا يعكس . والقطر الذي هو متحد الامة او المتحد القومي هو اكل واو في متحد . فالمصالح تنشأ في المجتمع ، لا خارجه . والصفات تتكون من حياة جماعة مشتركة وكل جماعة لها حدود ، حتى البدو الرحل لهم حدود لرحلتهم . فهم يتنقلون ابدأ ضمن نطاق تجري حياتهم ضمنه فان خرجوا منه الى بيئة جديدة خرجت حياتهم عن محورها . ولو كانت بيوت اهل دمشق قائمة الى جانب بيروت من جهة صيدا والشويفات مثلاً ، وملتحمة ببيوت هذه المدينة اكان يجوز حينئذ التحدث عن مدينتين متميزتين ، عن متحدين ؟ .

يعرف المتجول المتحد قبل ان يعرف مصالحه وخصائصه وصفاته فهو اذا اطل على بلدة كمشفرة يدرك حالا ان هنالك متحداً من الناس قبل ان يعرف ان اهل مشفرة كانوا زراعا وانهم اليوم صناعيون متخصصون في دباغة الجلود وان هذا التطور الاقتصادي قد طور مستوى مصالحهم وعدل اخلاقهم . وهكذا الذي ينتقل من قطره الى قطر آخر يدرك انه قد اصبح في متحد

جديد سواء اكان يعرف ما هي لغة اهله ام لا يعرف سواء اكان يجهل اخلاقهم ام لا يجهل . يميز الانسان المتحد اولاً ثم يميز خصائصه فهو يرى البلدة اولاً ثم يرى اشكال بيوتها وجنائنها وبساتينها ونسبة ترتيبها الى طبيعة البيئة . وهو في تنقله من قطر الى قطر يرى بركة ذلك القطر واما كن اقامة اهله واتصال قراه ومدنه بعضها ببعض ومدنه الكبرى ، التي هي الكتل المغنطيسية التي تتوجه اليها الكتل الصغرى ثم يعرف الى جمعياتها التي تمثل مصالحه ومؤسساته . الى اخلاق اهله وصفاتهم . اما المصالح فهي مصالح هذه المتحدات ، واما الصفات فهي صفاتها واما الارادة ففي كل منها وما الارادة الا التعبير عن الحياة . ما نريد هو ما نحن ¹ . نحن نريد مصالحنا لاننا نريد حياتنا والارادة على قدر المصلحة ، وكلما كانت المصلحة اساسية دائمة كانت الارادة كذلك .

تحرير الامة .

الامة هي اتم متحد ، كما قلنا . ولكن لابد لنا من درس هذا المتحد درساً خاصاً به ، لانه اوسع واكثر تعقداً من كل متحد آخر . ومع انه ليس من الصعب ايضاح الواقع الاجتماعي والحقائق الاجتماعية فان الامة كانت ولا تزال محور كثير من النظريات التي قد تبدو متعارضة واحياناً متناقضة . والسبب في ذلك ان الامة تنطوي على عنصر هام ، بل حيوي لها ، مفقود من المتحدات الاخرى ، هو العنصر السياسي . فالكلام على الامة يكاد لا يخلو من عصبية القومية او الوطنية ، او من الاغراض السياسية ، وهو لذلك عرضة لاختلاف النظريات وتعدد المذاهب فيه .

كل امة تشعر بضرورة سيادتها على نفسها وحماية مصالحها من اجحاف وتعديات الامم الاخرى . وفي هذا التنازع ، الذي كثيراً ما يكون عنيفاً ، يلجأ سياسيو الامة ومفكروها الى نظريات توافق ظروف امهم وتكسبها

معنويات قوية . فبعضهم يبحث عن حقيقة تاريخية او مثال حقيقي او موهوم من التاريخ ، او عن نزعة دينية او سلافية . ولا يقتصر تنازع البقاء على تنازع النظريات بين الامم ، بل يمتد الى تنازع النظريات ضمن الامة الواحدة ، لما تشتمل عليه الامة من طبقات وجماعات يكون لبعضها مطامع ومصالح خاصة ، كما حدث للنظريات القومية الفرنسية ، مثلاً . فان الامة الفرنسية التي ابدأت تتكون من امتزاج عنصرين رئيسيين هما الجلالة اهل البلاد الاصليون والفرنك المغيرون على بلادهم ، وهؤلاء شطر من القبائل الجرمانية ، تعرضت في مجرى تاريخها للنزاع الخارجي الذي جعل رجالها شاعرين بمصالحها الخاصة يبحثون عن تمسك روحي ، حقيقي او خيالي ، بجمع الفرنسيون من فرنك وجلالة على التمسك به صيانة لمصالحهم ، التي اصبحت مصالح متحد واحد ، من اخطار التقلبات السياسية والحربية . وقد توهم بعضهم ان انقاذ وحدة المتحد الفرنسي من كل اختلاط خارجي ، خصوصاً مع جيرانهم الالمان الذين هم شطر آخر من القبائل الجرمانية ، وتقويتها يمتاز بعمل الفرنسيين سلالة واحدة من نسب واحد . ويجب ان يكون هذا النسب عريقاً في المجد والبطولة ، عظيماً بخوارق قوته يحجب الانتساب اليه والالتفاف حوله . واي نسب اعرق واحب من ابطال طروادة الذين خلدتهم هوميرس . الم يقلد ورجيل هوميرس وينظم اناشيد « الانيادة » في البطل انياس Eneas الذي تحذر منه الرومان ؟ اذاً يجب ان لا يقل بناء باريس عظمة عن بناء رومة . وكما وجد في ايطاليا ورجيل ليخلد ذكر أب الرومان الوهمي كذلك يجب ان يوجد لفرنسا من يخلد ذكر البطل العظيم الذي خرج من صلبه الفرنسيون : فرنقس او فرنسيون بن هكتور ! وقد وجد « رنصار » Ronsard الذي اهتدى الى هذا الحلم الضائع واخذ يؤلف اناشيد

«الفرنسيادة»¹ مجازاة لورجيل في الاياداة فنشر سنة 1572 الاناشيد الاربعة الاولى الوحيدة التي ظهرت . ولكن رنسا رعدل عن متابعة هذا العمل الشاق العقيم ، ومع ذلك فان الاعتقاد بالاصل الطروادي للفرنسيين ظل معششاً حتى اواخر القرن السابع عشر . وقد حمل السبب نفسه الذي من اجله وضعت نظرية الاصل الطروادي للفرنسيين ، فرنكاً وجلالقة وروماناً ، كتاباً آخرين على البحث عن ممسك آخر مخترع يكون اقرب الى المعقول فذهب بعضهم (Etienne Forcadet) الى ان الفرنك ليسوا سوى جلالقة هاجروا في زمن قديم ثم عادوا الى وطنهم وميراثهم وعلى هذا يكون كل الفرنسيين جلالقة . فلما اثبت ليبتز جرمانية الفرنك ولم يعد في الامكان دحضها ذهب عدد من الكتاب الى وحدة الشعب المؤلفة من المزيج الجاللقي والفرنسكي وواحد منهم جعل اسم فرنسا « فرنكوغاليا » (Francogallia) واتخذته

1 Franciade . انظر جوانيه ص 37 . وفيها يلي مثال من الفرنسيادة :

Muse, enten-moy des Sommets de Parnasse
 Guide ma langue et me chante la race
 De rois françois issus de Francion
 Enfant d'Hector, Troyen de nation,
 Qu' on appeloit en sa jeunesse tendre
 Astyanax et du nom de Scamandre .
 De ce Troyen conte - moy les travaux,
 Guerres, desseings, et combien sur les eaux .
 Il a de fois (en despit de Neptune
 Et de Junon) surmonté la fortune
 Et sur la terre eschapé de peris (perils)
 Ains que (avant que) bastir les grands murs de paris .

تراوحت النزعات القومية في فرنسا بين ان تكون الامة من اصل جلالقي او طروادي او جرمانى. واشتد نزاع النظريات في الاصل بين مختلف الكتاب والمؤرخين الذين عالجوا هذه القضية القومية الفرنسية . وبديهي ان تكون الانظار اتجهت في البدء الى الواجهة السلالية من الموضوع ، لان اصطلاحات الرابطة الدموية الموروثة من العهد البربري كانت لا تزال مهيمنة ، وهي الاصطلاحات التي تسيطر على كل موضوع قومي في كل امة لا يزال عهدها بالبربرية قريباً او خضعت ، لعهد قريب ، لعوامل موجة بربرية . واشتد النزاع الداخلي في فرنسا حول هذه النقطة لانها كانت تهم طبقتي الاشراف والعامية في تنازعهما حقوق السيادة والحرية . وقد اطلع عدد من اشهر كتاب الفرنسيين بالمفاخرة بالعنصر الجرمانى الفاتح مزددين كل فكرة جلالقية ، لان الفتح شيء لامع محبوب عند كل الاقوام ، حتى حسبه هؤلاء الكتاب مغنياً عن روعة الواقع في نشوء الامم . وقد اشرنا الى ما كان من شأن العقائد السلالية في فرنسا في الفصل الثانى من هذا الكتاب فليراجع هناك .

سيطرت كل نزعة من هذه النزعات السلالية القومية على عصر من عصور حياة الامة الفرنسية ، وفاقا لظروف كل عصر ومطابقة لمصالح الطبقات والفئات الخاصة . فسرى الاعتقاد بالاصل الطروادي مدة من الزمن ثم قوبلت العقيدة الجلالقية ثم سيطر المذهب الجرمانى الفرنكى ، في التعليم المدرسى ، الذي يجعل الفرنك اسلاف الفرنسيين حتى مئة وخمسين سنة خلت . اما الان فالتعليم العمومي في فرنسا يجعل الجلالقة ، اهل البلاد قبل مجيء الفرنك ، اسلاف الفرنسيين 2 . اما الامة الفرنسية والقومية الفرنسية فتتمثلان في كلمة

1 هو المشرع الكبير مغلن Hotman

2 جرابه ص 31

كانت استعمالاً لم يحظ منذ البدء بمرتبته العالية ولكنها اخذت تنحت موقعها في القلوب حتى اصبحت اوضح صورة للامة الفرنسية والقومية الفرنسية هي : الوطن (Patrie) ¹ الذي جعل اسمي « فرنسا » و « غاليا » مترادفين . ومع ان اسم فرنسا هو الذي غلب على البلاد بالاستعمال فان الكيان الفرنسي ظل دائماً يطمح الى جعل حدوده حدود الجلالة القديمة .

نكتفي بهذا المقدار للدلالة على ان تحديد الامة قد يتعرض للتأثر بعوامل العقائد والاغراض قبل ان تنجلي في الذهن حقيقة الواقع الاجتماعي . فالامة الفرنسية التي بقيت هي كانت أولاً نسباً بعيداً ثم سلالة ثم اصبحت وطناً . كما يجد الدارس الاجتماعي صعوبة في فهم حقيقة المتحد من الامثال والتشبهات كذلك هو يجد صعوبة في فهم المتحد القومي او الوطني من وراء التحددات التي قد تبدو متعارضة : وتكون كذلك احياناً ان لم يكن غالباً ، لان الذين حددوا الامة حددوها على ما سطع لكل منهم من نورها ووحيتها في بيئته الخاصة . فربما يحدد الامة متأثراً بتاريخ فرنسا والروحية الفرنسية حين قال : « ليس تكلم لغة واحدة او الانتساب الى مجموع شعبي Ethnographique واحد هو ما يؤلف الامة بل يكونها الاشتراك في فعل امور عظيمة في الماضي والرغبة في فعلها في المستقبل » ² هذه صورة الامة الفرنسية من خلال تاريخ دولة الكبتيين وما بعدها . ولما كان دارس العلم السياسي يتناول موضوع الامة ويحاول فهمها من الاقوال التي ذهبت امثالاً في هذا الشأن ،

¹ Maurice Barrès يقول في كتابه : « Les Traits éternels de la France »

Nous sommes la nation qui, la première de toute l'Europe, a eu l'idée qu'elle formait une patrie
ذكره جوانيه ص 32

² ذكره جوانيه ص 226 . انظر ايضا مكبور الدولة الحديثة ص 123

ارى ان اتناول هذه التحديدات وان احلل اجزاءها، لكي اسهل على الطالب السياسي او الاجتماعي متابعة درس هذه القضية بالاسلوب الذي تعودته .

ان اول تحديد وضع لتعيين ماهية الامة وايجاد صورة ذهنية منطقية لها هو التحديد الذي اعلنه بسكال منتشيني Pascal Mancini في خطابه الشهير الذي افتتح به فرع الحقوق الانترنسيونية في جامعة تورينو ، في الثاني والعشرين من كانون الثاني سنة 1851 وهذا نصه الحرفي :

« Nazione é una Società naturale di uomini, dà unità di territorio, di origine, di costumi, di lingua conformata à comunanza di vita e di

coscienza sociale » وترجمته : « الامة هي مجتمع طبيعي من الناس ذو وحدة ارضية (جغرافية) واصلية ووحدة عادات ولغة خاضع للاتحاد في الحياة والوجدان الاجتماعي » . وقد جلب هذا التصريح على منتشيني نقمة النمسا، التي سعت الى منع خطبه ، ومصادرة املاكه بامر ملك نابولي .

منذ صرح منتشيني بتحديد المبادئ ونشره في السنة نفسها ، في Prelezioni تنبه المفكرون الحقوقيون والسياسيون والاجتماعيون الى وجوب تعريف الامة تعريفاً خالياً من الغرض ومن حرية القول الاستبدادي او غير المنقود. فتعاقبت التصريحات والتعاريف، التي لم يكن بعضها سوى توسيع او تعديل لتعريف منتشيني . فشدّد بعضها على عنصر معين من عناصر الامة وتشبّث البعض الآخر بعنصر غيره او بمجموعة عنصرية خاصة . ويحسن هنا ، قبل البدء بتحليل عناصر الامة ، ان نذكر تعاريف اخرى بالوانها الخاصة لتري تنوعات الفكرة الواحدة ونموها وتطورها .

بعد منتشيني ببضع سنوات عرف الامة مشرع آخر فرنسي Pradier - Fodéré بأنها « مجتمع يشكله سكان بلاد معينة لهم لهجة معينة (Même langage) وترعاهم قوانين معينة وتوحدهم هوية الاصل والتوافق

الفيزيائي والاستعدادات المناقبة واتحاد طويل العهد في المصالح والشعور وتدامج في العيش على مر القرون. وما يفهم من القومية هو أنها حصول حالة الامة في الواقع¹ وفي سنة 1915 عرف اميل دركهم Durkheim القومية بأنها « جماعة انسانية تريد ، لاسباب اثنية او تاريخية فقط ، ان تحيا في ظل قوانين معينة وان تشكل دولة سواء اكانت صغيرة ام كبيرة ، وهو الان مبدأ مقرر عند الامم المتقدمة انه متى ثبتت هذه الارادة الموحدة نفسها باستمرار حتى لها ان تعتبر الاساس الثابت الوحيد للدول² . وفي سنة 1919 الف م . ايوانوف كتاباً بعنوان « البلغاريون امام مؤتمر الصلح » عدد فيه العناصر التي تؤلف الشخصية القومية وتحفظها فاذا هي : « وحدة السلالة ، الحدود الجغرافية ، اللغة . الدين ، الوحدة السياسية ، التاريخ والتقاليد ، الادب ، طريقة الحياة والمظاهر الثقافية العمومية ، وكلما ازداد ظهور العناصر في قومية ما ، ازداد احيائها ووحدة وازداد الشعور القومي ، الذي يحركهم ، توقداً واندفاعاً³ . واننا نرى رنان يشدد على « المبدأ الروحي » للامة ولكنه يعود فيقول *Une nation resulte du mariage d'un groupe d'hommes avec une terre*⁴ الامة تتولد من زواج جماعة من الناس وبقعة ارضية . ويأتي ايضاً شبنقير فيقول « ليست الامم وحدات لغوية ولا سياسية ولا بيولوجية ، بل وحدات روحية⁵ ومع ذلك نرى مبدأ السلالة يسيطر على معنى الامة في المانيا في حين ان هنالك تعاريف اخرى تعزز اهمية الارض كقول فن ايرن Fon Iren « الارض هي القوم » وما ذهب اليه هردير Herder بهذا الصدد .

1 ذكره جوانيه ص 9

2 ايضاً ص 10

3 ايضاً ص 9

4 نقله جوانيه ص 386

5 نقله مكبور ايضاً ص 123

إذا تركنا الآن التحديدات الجزئية او الفرعية او الموضوعية من وجهة نظر واحدة او خاصة وعمدنا الى درس عناصر الامة استناداً الى التحديدات الشاملة غير المتميزة ، او المقصود منها ان تكون مجردة وجدنا هذه العناصر معددة على اتم وجه موضوع حتى الآن في تعريف منتشيني واوانوف . ومن مقابلة هذين التعريفين نجد اوانوف يستعمل «وحدة السلالة» حيث يستعمل منتشيني «وحدة الاصل» ونراه يضيف الى عناصر منتشيني الدين والوحدة السياسية والتاريخ والادب ويضع التقاليد في محل العادات ، وطريقة الحياة والمظاهر الثقافية العمومية في محل الاتحاد في الحياة والوجدان الاجتماعي . فلنأخذ كل عنصر كما ورد في كل من هذين التعريفين ولندرسه ونقارنه مع مشابهه .

نبدأ بتعريف منتشيني وتتناول قوله ان الامة هي Società naturale di uomini مجتمع طبيعي من الناس . فواضح من هذا القول ان المجتمع الطبيعي هو نقيض المجتمع الاصطناعي وبهذا القول وضع منتشيني حداً فاصلاً بين الامة من حيث هي مجتمع بطبيعة الواقع اذ ترى الناس مشتركين في اسباب حياتهم الواحدة في مجرى طبيعي من التفاعل والترابط ، والدولة من حيث هي نطاق قد يتسع حتى يشمل ما هو اوسع من المجتمع الطبيعي فيكون مجتمعاً مصطنعاً من مجتمعين طبيعيين او اكثر . نأخذ مثلاً سورية وبلاد العرب فترى سورية متحدداً تاماً ، مجتمعاً طبيعياً تجري ضمنه حياة افراده في ترابط وتفاعل تامين واشتراك في مصير واحد . فالسوريون يشتركون اشتراكاً متيناً في جميع المصالح كالزواج والتعاضد والتعاون الاقتصادي والجمعيات والاندية والاحزاب والنقابات والمدارس الخ . كذلك ترى بلاد العرب مجتمعاً ، بل مجتمعات طبيعية . فالعرب تجري حياتهم ضمن دوائر قبائلهم ولهم مصالحهم الخاصة في الزواج والرحلة والغزو والسلب . وليس لهم مصالح عمرانية الا في اسفل الجنوب في اليمن وهناك مصالحهم خاصة وضعيفة . والمصالح النفسية هي بالاجمال معدومة . ففي زمن الدولة الاسلامية اصبح هذان المجتمعان الطبيعيان مجتمعاً واحداً مصطنعاً هو مجتمع الدولة فاشتركا في دولة واحدة ولكنها ظلاً مجتمعين طبيعيين منفصلين في الحياة فمن استقر من العرب في

سورية اصبحت جزءاً من المجتمع السوري الطبيعي وطلق البادية بالمرّة . وهذا ما حدث مراراً في مجرى التاريخ لبس لسورية وبلاد العرب فقط بل لاقطار عديدة كالمجتمعات التي ضمتها رومة الى نطاقها الشرعي والدولي وبسطت عليها لغتها كجلالقة عبر الالب واقطار اخرى فان هذه المجتمعات اشتركت في حياة الدولة الرومانية ولكنها لم تكون وايطاليا مجتمعات طبيعية واحداً . وكان من البديهي ان تنقم النمسا على منتشيني لانه يوقظ في الطليان فكرة مجتمعهم الطبيعي فيكون فيها القضاء على سلطتهم في ايطاليا . فالامة اذاً مجتمع طبيعي ، لا بالقوة الخارجية ولا بالاستبداد ولا باي شكل من اشكال الاصطناع . اما قوام الامة (المجتمع الطبيعي) فيعطينا منتشيني عنصرها الاول: الوحدة الارضية ، او الحدود الجغرافية في تعريف ايوانوف .

كان منتشيني موفقاً كل التوفيق حين قدم العنصر الارضي على جميع عناصر المجتمع الطبيعي الاخرى . فقد رأينا في فصل سابق (الثالث) ان الارض هي اولى امكانيات الحياة على الاطلاق واليااسة عموماً هي اولى امكانيات حياة الحيوانات ذات الجهاز التنفسي واولى امكانيات حياة الانسان . واشرنا هناك الى تنوع البيئات وامكانياتها . فالبيئة الجغرافية ضرورية لحياة المتحد او المجتمع ضرورة الارض للحياة . واي متحد اخذناه وجدناه محدداً بالمساحة او البيئة ، لان الاقامة في الارض والعمران لها شروط سابقة لا يتأتى الا بها . وقد عرضنا لها في الفصل الثالث .

واذا اعدنا النظر في البيئة الجغرافية ، في القطر وما يتعلق به ، وجدنا ان الحدود لبست من التمام بحيث تفصل فصلاً تاماً بين اي قطر وكل قطر ، بين اي متحد وكل متحد ، والا لوجب ان نسمي كل قطر دنيا قائمة بنفسها . وحيث الفصل تام كما في الجزر يلجأ المجتمع الى ايجاد طرق واساليب للمواصلات وهو لا ينفك يحسن هذه الطرق والاساليب حتى يجعل الاتصال على افضل حالة ممكنة . لان العزلة التامة متنافية للتمدن والارتقاء الثقافي . ولكن الحدود تقلل الاتصال ، سواء اكان سلمياً ام حربياً ، وتصعب التداخل والاختلاط الاجتماعيين مع الخارج بقدر ما تسهل اشتباك الجماعات في الداخل واتحادها .

فالبينة المحددة هي البوتقة التي تصهر حياة هذه الجماعات وتمزجها مزجاً يكسبها شخصية خاصة ، كالشخصية التي يكتسبها الشبهان (البرنز) من مزج النحاس والتنك والرصاص ، وهي التي توجد الامكانيات لنشوء المراكز العمرانية التي تتألب عليها قوات المجتمع ويحتشد فيها نتاجه الثقافي ، فتتكون البيئة الاجتماعية التي تصبح ذات مناعة تكمل ما نقص من الحدود الطبيعية . والحقيقة ان البيئة من حيث هي مركز الاجتماع والتكامل هي اهم من الحدود لتكون البيئة الاجتماعية ولكن الحدود الطبيعية ضرورية لوقاية المجتمع وحماية نموه حتى يستكمل قوته الشخصية . فبعض الامم جنت عليها قلة حدودها الطبيعية او رخاوتها وطلاقتها كبولونيا ، وارمينيا والى درجة اقل الاغريق والاراضي السفلى (هولندا) وبلجيا . وكذلك سورية فقد جنت عليها كثيراً طلاقة تخومها من جهة الصحراء فالصحراء حد للبيئة السورية يقف عنده عمرانها وتمدننها وثقافتها ولكنها لم تكن حداً للقبائل المتحينة الفرص للاستيلاء على ارض آمن من الصحراء وضمن للعيش منها ، والاستقرار فيها . لعل سورية افضل مثال للبيئة التي تصهر الجماعات المختلفة النازلة بها وتحولها الى مزاج واحد وشخصية واحدة . فنحن نعلم ان سورية كانت مأهولة في العصر الحجري المتوسط ، كما دلت البقايا المكتشفة في فلسطين ، وانها على الأرجح مصدر الثقافة المغالية¹ . ونعلم ايضاً ان جماعات شمالية كالحثيين وغيرهم قطعت طورس وهبطت سورية لتلتقي فيها بالجماعات الجنوبية الخارجة من الصحراء ، فتمتزج هذه الجماعات كلها وما اضيف اليها مما جاء من الغرب كالفلسطينيين بعضها البعض الاخر ويبقايا جماعات العصر الحجري وتكون مزيجاً خاصاً . ومع اننا نتمكن ، بالادلة الرأسية والدموية من تقصي مختلف السلالات الموجودة حالياً في سورية فاننا نرى لها كلها طابع البيئة الخاص الذي يكسبها تشابهاً قوياً وتجانساً شديداً² . وقد رأينا ان هذا المزيج السوري تمكن من انشاء امبراطورية قوية بسطت سيطرتها على مصر واتخذت مصر قاعدة لها ، كما رأينا

1 انظر المستد

2 سنعود الى هذا الموضوع باسم في الكتاب الثاني

مصر تبسط نفوذها على سورية وكما رأينا امبراطورية الفرس تبسط ظلها على سورية ومصر . ولكن لم يؤثر شيء من ذلك على تحديد البيئة المتحد . وهنا تبدو لنا صحة قول فن ايرن « الارض هي القوم » وقول رنان في كيف تتكون الامة (راجع ص 161) والفرق الواضح بين المجتمع الطبيعي القومي والمجتمع المصطنع السياسي . ويريد الدلائل الذي اشترت مرارا الى مؤلفه الهام في الجغرافية الانسانية . يقول ¹ « ان ظواهر الجغرافية الانسانية (توزيع البشر) تنسب الى الوحدة الارضية التي لا يمكن تحليل تلك الظواهر بدونها . انها (الظواهر) تعزى ، في كل مكان ، الى البيئة التي هي بدورها وليدة توافق حالات فيزيائية » وهو يوافق « لواصور » في ان سكان اية بقعة كانت يتألفون من عدد معين من النوى المذرورة المحاطة بمناطق مشتركة المركز تقل كثافتها في ابتعادها عن مركزها ² . فكل متحد له مراكز تجمع مشتركة تضعف عوامل الحياة وظواهرها وتقل كثافة السكان كلما ابتعدت عنها ، فهي الكتلة المغنطيسية التي تجذب ما حولها اليها .

ما اصدق هذا القول على سورية فهو يصدق عليها كما يصدق على فرنسا وعلى اي بلاد اخرى . خذ النوى المذرورة في سورية ، في التاريخ القديم ، تجد انها قد اصبحت كتلا مغنطيسية قوية كدمشق وبغداد (بابل) واورفه (اديسه) وحمص وحلب وبيروت والقدس . الا تقل كثافة السكان ومظاهر الحياة كلما ابتعدت عن القدس جنوبا وعن دمشق شرقا وجنوبا حتى تكاد تنعدم ، ثم الا تقل عن حلب شمالا وشرقا وماذا غرب بيروت ونطاق بغداد اليست حوافيه رقيقة ؟ او ليست سورية كلها تجمعات صغيرة حول كتل مغنطيسية كبيرة ؟ ولو كانت القاهرة واقعة بين القدس ودمشق ، مثلا ، او بين القدس وقناة السويس ، وقرى مصر ومزارعها واقعة في شبه جزيرة سيناء وما حولها بحيث يكون هنالك عمران واحد في بيئة واحدة ، هي بيئة القطر

1 كتابه ص 7

2 ايضا ص 15

السوري ، أكان في الامكان حينئذ التكلم عن القطرين سورية ومصر ؟ وان جفاف الاقليم بسبب محق الحرجات والغابات ، الذي ساعد الصحراء على اقتحام التخوم السورية الجنوبية ، وتجويف الصحراء السورية كاد يفصل بين الشام والعراق او بين شرق سورية وغربها لولا النهران السوريان العظيمان الفرات ودجلة اللذان حفظا استمرار العمران السوري وامكانية تكاثره وتوثيق الحياة القومية ضمنه .

لا امة على الاطلاق بدون قطر معين محدود . اما ما ذهب اليه اسرائيل زنويل *Israël Zangwill* من ان الشعب اليهودي تمكن من الاحتفاظ بنفسه بدون بلاد¹ فمن الاغلاط الاجتماعية الفاضحة . فاليهود قد احتفظوا بيهوديتهم الجامدة من حيث هم مذهب ديني . وقد اكسبهم دينهم الشخصي عصبية لا تلبس بالعصبية القومية الا على البسطاء والمتغرضين . اليهود لبسوا امة اكثر مما هم سلالة (وهم لبسوا سلالة مطلقاً) ، انهم كنيس وثقافة² . لا يمكننا ان نسمي اليهود امة اكثر مما يمكننا ان نسمي المسلمين امة والمسيحيين امة او السنيين امة والشيعة امة والارثوذكس والكاثوليك امة الخ . ولجميع هذه المذاهب عصبياتها وتقاليدها التي تتميز بها .

الامة تجمد اساسها ، قبل كل شيء آخر ، في وحدة ارضية معينة تتفاعل معها جماعة من الناس وتشتبك وتتحد ضمنها . ومتى تكونت الامة واصبحت تشعر بشخصيتها المكتسبة من اقليمها ومواد غذائها وعمرانها ومن حياتها الاجتماعية الخاصة وحصلت من جميع ذلك على مناعة القومية اصبحت قادرة على تكميل حدودها الطبيعية او تعديلها ، على نسبة حيويتها وسعة مواردها وممكناتها . وبقدر ما هي الحدود جوهرية لصيانة المجتمع من تمدد المجتمعات الاخرى القريبة منه كذلك هي ، الى درجة اعلى ، طبيعة البيئة ومواردها . فالامة تكون قوية او ضعيفة ، متقدمة او متأخرة ، على نسبة ممكنات بيئتها

1 نقله جوانيه ص 385

2 باركر ص 15

الاقتصادية ومقدرتها على الانتفاع بهذه المكنات . وان وجود موارد كافية لتأمين التبادل الداخلي ومعادلة التبادل الخارجي ، او زيادة المصادر على الوارد ، هو من شروط البيئة الصالحة لنشوء الامة . القطر والجماعة ، وان شئت فقل القطر الصالح والقوم المؤهلون ، هذان هما العنصران الاساسيان لنشوء الامة .

يعرف منتشيني العنصر الثاني بوحدة الاصل (العرق) للجماعة ، اما ايوانوف فيعرفه بوحدة السلالة . وفي هذين التعريفين ، على ما بهما من تشابه في المرمى ، اختلاف قد لا يكون يسيراً ، وهذا الاختلاف هو في اختيار ايوانوف لفظة السلالة التي قد لا تخلو من مغزى في استثارة نكرة معينة . يمكن ان تتفق هاتان اللفظتان : الاصل والسلالة ، اذا عني بالسلالة تعاقب اجيال شعب معين بصرف النظر عن الحقائق الانترولوجية - الحيوانية (زولوجية) . فان من المؤلفين في السلائل كمرنييه (Mortillet) من يميز بين السلالات التاريخية والسلالات الحيوانية الفيزيائية . وهذه نظرة تذهب الى ان اختلاط سلالات امة معينة وتمازج نسلها قد يولدان ، على التعاقب ، سلالة فرعية او ثنوية ، بحيث يصبح في الامكان التكلم عن السلالة السورية والسلالة الالمانية والسلالة الانكليزية . وقد ورد ذكر السلالة السورية على اقلام الكتاب كما جرت على اقلامهم السلالة الانقلاوسكسونية التي يسخر منها كثيراً ولز في مجتزأه التاريخي . والفرنسيون ، الذين ينتقدون الالمان كثيراً في مذهبهم السلافي في القومية المؤسس على نظرية قوبنو وتشمبرلين الارية ، يعتقدون هذا النوع الفرعي من السلالة فتقوم السلالة التاريخية لهم مقام السلالة الفيزيائية . ومع ان هذه السلالة قد تراوحت عندهم بين ان تكون فرنكية جرمانية او جلالقية فهي قد رست على السلالة الفرنسية التي تتخذ الجلالقة اسلافها ، محافظة على الارتباط التاريخي بين القوم والارض .

الحقيقة انه ليس لامة من الامم الحديثة اصل سلافي واحد ، حتى ولا اصل شعبي واحد ، اذا اردنا ان نعود الى الاصل الفيزيائي او التاريخي . فلست اخال منتشيني يعتقد ان الطليان من اصل سلافي واحد او من اصل شعبي

واحد . فإذا تتبعنا تاريخ تكون الامة الإيطالية كان الاصل الوحيد الثابت الذي نتمكن دائماً من تقريره هو الارض ايطاليا . اما الاصل الشعبي فهو مشترك في عدة اصول . فقد نشأت رومة من ثلاث قبائل وجدت نفسها محاطة بشعوب قوية مختلفة اللغات والثقافات كالأتروريين (الأترسكيين) الذين اخذ الرومان عنهم فنونهم واللّاتين الذين اخذوا عنهم لغتهم واللوكانيين والليقوريين والجلالقة امام الالب وغيرهم ، ثم جاء فيما بعد اللمبرديون . ومن اختلاط هذه الشعوب في ايطاليا نشأت الامة الإيطالية (لا الامة الرومانية) . وقد اشرنا الى سلالات ايطاليا الانترولوجية (راجع ص 38) وسواء أخذنا السلالات الإيطالية من الوجهة الانترولوجية ام من الوجهة التاريخية وجدناها غير موحدة الاصل .

ان الامة من الوجهة السلافية او من وجهة الاصل ، هي مركب اومزيج

معين كالمركبات الكيميائية التي يتميز كل مركب منها بعناصره وبنسبة بعضها الى

البعض الآخر . وهذه الامة السورية فاي اصل واحد لها ؟ اهو الاصل الكنعاني (الفينيقي) والكنعانيون جاؤوا طبقة فوق طبقة اهل العصر الحجري ، ام الاموري ام الحثي ام الارامي (الكلداني) ؟ اوليست سورية مزيجا او مركبا معينا من هذه الشعوب مضافا اليها العرب بعد الاسلام وغيرهم . واذا اخذنا الوجهة الانترولوجية من الاصل السوري وجدنا انه كذلك مزيج من مفلطحي الرؤوس ومعتدليها ومستطيلها كما اثبتت ذلك الابحاث الانترولوجية¹ وكما سنسهب ذلك في الكتاب الثاني . وقد رأينا ان فرنسا لا تختلف عن سورية وايطاليا بهذا الصدد . واذا وجهنا نظرنا الى انكلترا والجزر البريطانية عموما فاننا نجد الحالة نفسها من المزيج ففي انكلترا وحدها شعبا « الانكليز والسكسون » ثم ما جاءهم من رومان ورماني ، وهؤلاء الاخرون كان لهم التأثير في تغيير

1 انظر بهذا الصدد ابحاث كيرس ، وابحاث الدكتور شنكلن في الجامعة الاميركانية

لغة الانكليز حتى اصبحت لاتينية اكثر منها جرمانية ، حتى انشد تنسون « من
 نرمان وسكسون ودنمر كيين نحن » ولبس الاصل الانكليزي سوى ما جعل

شكسبير هنري الخامس يبحث به جنوده : Yeomen whose limbs were made :
 in England « الرجال الذين صنعت اعضاءهم في انجلترا » وماذا نقول في
 المانيا. البست هي خليط من نحو ثلاث سلالات انترولوجية وتختلف اشكالها
 السلافية في الشمال والجنوب والوسط ، مع كل ما يحكى هنالك عن نقاوة الدم
 الآري ؟ وهذه اميركا امامنا فاية وحدة سلافية ، تاريخية او انترولوجية لها ؟
 البست الولايات المتحدة خليطاً من انكليز والمان وارلنديين وطلين وسوريين
 وفرنسيين واسوجيين الخ . والبرازيل ايضاً هي خليط من برتغاليين وسوريين
 والمان وطلين وزنوج وهنود اصليين واسبان . وعلى هذا قس اية امة اميركية
 اخرى . اكرر ان الاصل الانساني الوحيد للامة هو وحدة الحياة على
 تعاقب الاجيال وهي الوحدة التي تتم دورتها ضمن القطر . المزيج المتجانس
 اصل كاف للامة وهذا المزيج هو ما يعبر عنه احياناً بلفظة السلالة .

يضع منتشيني بعد وحدة الاصل وحدة العادات واذا بحثنا عن مرادفها
 او مقابلها في تعريف ابوانوف وجدنا التقاليد ولعل منتشيني يجعل العادات
 تشمل التقاليد ولعل ابوانوف يجعل التقاليد تشمل العادات ، والفرق بين
 العادات والتقاليد ان الاولى لا يجب ان تكون موروثه من الاجيال الماضية
 والثانية وراثية في الاجيال . تتناول التقاليد ما هو بمعنى الطقوس او القانون
 غير المكتوب لما يكون لها من المساس بالحالات النفسية العميقة وشؤون الحياة
 الهامة كالزواج واحواله والمآتم وطريقة دفن الموتى ونظام العائلة ، وهي
 لذلك اثبت واصلب من العادات . فقد يجوز ، في العرف ، ان تترك عادة من
 العادات ولكن الخروج على التقليد يعتبر تمرداً وثورة . اما العادات فتتناول
 ما هو بمعنى الازياء والتصرف في حالات وظروف معينة كحالات الاكل
 والشراب واللباس والمعاشرة والاعیاد . فمن العادات عادة تقبيل الايدي ، مثلاً ،
 وشرب قدح من العرق قبل الاكل وعادة التقبيل عند الوداع او اللقاء وعادة
 السلام والتعارف والرقص . وبالاجمال العادة تتعلق ، على الاكثر ، بالذوق

وما هو مستحسن وما هو مكتسب في الحياة الجيدة اليومية ، والتقليد يختص بما هو جوهري في الحياة الاجتماعية وما يتعلق بالاعتقادات الخفية المتوارثة ومنها ما صار اعتقادات دينية او نصف دينية . ولا ينفي ما قلته بشأن وراثية التقاليد ان يكون هنالك عادات وراثية ايضا فان من الاشياء التي تصبح مستحبة ما يظل كذلك اجيالاً .

تنشأ التقاليد من اختبارات الحياة والاعتقادات بشأنها وتنشأ العادات من ظروف الحياة واستحسان بعض اساليبها ورموزها . وهذا يعني ان التقاليد والعادات تنشأ بعامل الاجتماع في المجتمع ، فهي شأن من شؤون المجتمع ونتيجة من نتائجها اي انها ليست سبباً من اسبابه ، كما يظن عادة بعض الدارسين سطحياً ، الذين يوهمون ان توافق بعض عادات عند عدد من الامم سبب يكفي لالغاء واقع هذه الامم والتعويض عنه باستنتاج امة واحدة موهومة من عادات او تقاليد معينة . فان من التقاليد والعادات ما هو مشترك بين عدة امم او بين عدد كبير من الامم ، خصوصاً الامم التي كانت قديماً قبائل او شعوباً متجاورة كالشعوب السامية . فان هذه الشعوب جميعها تشترك في تقاليد وعادات بعضها ديني وبعضها اجتماعي ولكن هذه التقاليد والعادات ليست كل تقاليدها وعاداتها موحدة ، بل اننا نجد لكل امة من هذه الامم تقاليد وعادات خاصة بها ناتجة عن اختباراتنا الخاصة الشخصية وعن نمو اذواقها بتفاعلها مع بيئتها وبتصالها بالعالم الخارجي . ووحدة هذه التقاليد والعادات الشخصية ، التي تظهر وجهاً من نفسية الامة في مجرى حياتها ، هي العنصر الهام من عناصر وجود الامة .

كل امة تنشأ بعامل ارتباط جماعة من الناس ، مهما كانت تقاليدها وعاداتها ومهما كان مصدرها ، ببقعة من الارض لا بد من ان تكون في مجرى حياتها تقاليد جديدة وعادات جديدة . فالتقاليد مع انها وراثية ، تنشأ وتندثر بعامل الحياة لتحل محلها تقاليد جديدة وكذلك العادات وهي اسرع تبديلاً من التقاليد . كل ارتقاء في امة يحدث تعديلاً في التقاليد والعادات . والامة التي تصحجر تقاليدها وعاداتها تكون هي نفسها في حالة تحجر . هكذا الصين ، مثلاً ، فان

صلابة تقاليدنا حرمتها التقدم بقدر ما فصلتها عن تقاليد العالم المتمدن . ان التقاليد تصبح في مثل هذه الحالة كالاغلال والقيود لا يمكن الامة ان تحيا حرة الا بتحطيمها . يجب ان تكون حياة الامة اقوى من تقاليدنا والا قتلنا التقاليد . التقاليد والعادات تكسب حياة الامة لوناً خاصاً تتميز به ولكنها لا تكون الامة .

كل تطور ثقافي في امة من الامم يولد تقاليد جديدة . وشرط التقاليد المميزة الامة ان تكون متولدة من حياة الامة . فهناك تقاليد مشتركة بين عدد من الامم ولكن ليست هذه التقاليد هي التي تميز الامة .

يشترك منتشيني وايدانوف في اعتبار وحدة اللغة عنصراً أساسياً في تكوين الامة . والحقيقة ان اللغة (اية لغة كانت) من حيث هي وسيلة للتخاطب والتفاهم البشري في المجتمع هي من ضرورات الاجتماع الانساني الداخل فيه العقل والنفس . وان وسيلة من وسائل التفاهم ضرورية ايضاً للتجمهر الحيواني الراقي كاصوات بعض الطيور وتنبهات بعض الحيوانات الصوتية كسباح الكلاب وهريرها او الصامنة كاشعارات العث او الذئب .

كل مجتمع يجب ان يكون له وسيلة او وسائل ، لغة او لغات ، لهجة او لهجات يتخاطب بها افراده ويتفاهمون ويتفاعل تفكيرهم وتزداد ثروتهم العلمية . وهكذا نرى ان اللغة وسيلة من وسائل قيام الاجتماع لا سبباً من اسبابه ، انها امر حادث بالاجتماع في الاصل لا ان الاجتماع امر حادث باللغة .

ثم ان اللغة متى صارت لغة جماعة او جماعات معينة اصبحت حاملة الميراث الادبي الثقافي لهذه الجماعة او هذه الجماعات . وفي هذه الحقيقة يكمن سر ان اللغة عنصر من عناصر الامة . فالامة من حيث هي متحد اجتماعي ذو نوع من الحياة خاص به في بيئته لا بد لها من لغة واحدة تسهل الحياة الواحدة وتؤمن انتشار روحية واحدة تجمع آدابها وفنونها وعواملها النفسية واهدافها ومثلها العليا .

ولاً فرق بين ان تكون اللغة الواحدة مختصة بالامة الواحدة او مشتركة بين عدد من الامم ، لان الهام للامة في اللغة هو ما تحمله من صور حياتها وحاجاتها النفسية والمادية وما هو من خصوصياتها ، لا اشكال الفاظها القاموسية . فليس الفرق عظيماً بين ان يكون اسم الباب « باباً » والحجر « حجراً » وان يكون اسم الباب door او Porte او Tuer واسم الحجر Stone او Pierre او Stein . وان يعرف الانسان او القوم لغة لا تعبر عن احتياجاته واشتياقاته كأن لا يعرفها . وبهذا المعنى فقط يجب ان يفهم قول بلنتشلي (Bluntschli) : « متى استبدل المرء لغة جديدة بلغته خسر قوميته » اي متى كانت اللغة الجديدة لغة راقية غنية بآدابها الخاص حاملة مجاري نفسية وفكرية قوية تجرف معها النفسيات الجديدة الداخلة فيها . اما حيث تكون النفسيات الداخلة في لغة جديدة قوية فانها تفعل في اللغة وتكسيها من نفسياتها وتوجهها في التعبير عن احتياجاتها ومثلها العليا شأن السوريين في اللغة العربية فانهم اخذوها من الفاتحين العرب ولكنهم نقلوا الى هذه اللغة علومهم وادبهم ومجاري فكرهم فاصبحت اللغة العربية لغتهم القومية تسيطر نفسياتهم ومواهبهم فيها في بيئتهم وتجاوزها . وان من الاسئلة التي تنبه الفكر الى هذه الحقيقة : ماذا كانت تكون الثقافة العربية لولا ما نقله السوريون من السريانية واليونانية الى اللغة العربية ؟ .

لا يصح قول بلنتشلي المشار اليه الا في الاقوام الغافلة عن نفسها ووحدة اجتماعها اما الاقوام المتنبهة الحية الوجدان القومي او الاجتماعي فيمكنها ان تقبل لغة جديدة ولا تفقد خصائصها القومية الاخرى . وهذه ايرلندا يعود اليها تنبها القومي وعصبيتها بعد قرون من سيطرة اللغة الانكليزية .

ان وحدة اللغة لا تقرر الامة ولكنها ضرورة لتماسك الامة . وحيث تتخذ اللغة اساساً للقومية يكون القصد من ذلك التعبير عن حاجة التوسع والامتداد ، كما هي الحال في المانيا التي يلجأ مفكروها احياناً الى وحدة السلالة

واحياناً الى وحدة اللغة ! لسد حاجتها الى التوسع ولضم اقلياتها الداخلة في امم اخرى تعمل على اذابتها .

وان من اكبر الاغلاط تحديد الامة باللغة . فليس عالم اللغة العربية امة واحدة وليس عالم اللغة الانكليزية او اللغة الاسبانية امة واحدة . وكل امة من امم هذين العالمين تنشيء ادبها الخاص الذي يعالج حاجاتها ويظهر تسميتها وذوقها بلغة هي مشترك بينها وبين غيرها . وبعض الجماعات لا تفتقر الى لغة واحدة لتكوين امة . فهذه سويسرا يطلق عليها كل ما يطلق على الامة الا وحدة اللغة ولكنها بدون لغة واحدة تظل ضعيفة الوحدة الروحية . قابلة للتفسخ بعامل التأثيرات الثقافية التي تمتد اليها بواسطة لغاتها المتعددة المتصلة وراء الحدود بامم عظيمة ذات مراكز ثقل ضخمة وجاذبيات قوية .

انه ضروري ان تتكلم الامة لغة واحدة وليس ضرورياً ان تنفرد بهذه اللغة . على ان اهم ما في اللغة للامة الادب الذي تنشئه هذه الامة ليعبر عن روحيتها ويحفظ روحيتها ومثلها العليا .

يزيد ايوانوف على عناصر منتشيني عناصر منها الدين فهو يرى الدين لازماً للشخصية القومية ومن صفاتها الاساسية وما يقصده من الدين هو الاعتقاد الديني الواحد العام في المتحد الاجتماعي .

1 مثال ذلك غناء موريس ارندت M. Arndt :

So weit die deutsche Zung klingt
Und Gott in Himmel Lieder singt,
Das soll es sein ! Das soll es sein !
Das ganze Deutschland soll es sein.

معناه : يجب ان تشمل المانيا الكاملة مدى مايرن اللسان الالماني وما يترنم افه في السماء !

مما لا شك فيه ان الدين ظاهرة نفسية عظيمة الخطورة من ظواهر الاجتماع البشري . انه ظاهرة قد نشأت وارتقت بعامل تطور الانسانية نحو سيطرة النفس وحاجاتها في شؤون الحياة . وهو قد تطور مع تطور البشرية ولن ينفك يتطور بتطورها . ولكن تطوره بطيء جداً وفي هذا البطء سر خطورته . اذا مثل الدين وحدة العقيدة في شعب كان من العوامل على تقوية التجانس الداخلي الروحي فيه . وكلما كان الشعب متأخراً في الارتقاء الفكري الفلسفي كلما كان الدين افعلى في السيطرة على العقلية .

الحقيقة ان الدين في اصله لا قومي ومناف للقومية وتكوين الامة ، لانه انساني ذو صبغة عالمية . ففي التعاليم الدينية المسيحية اخو المسيحي باعتبار المسيحيين جماعة واحدة ، والمسلم المحمدي اخو المسلم المحمدي باعتبار المسلمين المحمدين جماعة واحدة . ورابطة المسيحيين دم القادي وتعاليمه ورابطة المسلمين المحمدين القرآن المنزل وكل دين الهي في العالم يزعم انه للعالم كله لا فرق بين سوريه واغريقيه ويسمى لتوحيد العالم تحت ظله . ولكن الدين ، الهياً كان او غير الهى ، لم يشذ عن قواعد الشؤون الانسانية ولم يخرج على مقتضيات انواع الحياة البشرية وحاجاتها المتباينة او المتقاربة . فحينما تضاربت مصلحة المجتمع ، الدولة او الامة ، ومصلحة الدين كانت مصلحة المجتمع هي الفاصل في النزاع . هكذا اخذت السور القرآنية المدنية تتطور لتوافق حاجة الجماعة فصارت جهاداً وتشريعاً ، بينما كانت السور المكية فكراً متسامياً الى « الله » وروحاً متجردة من الاصنام والدينيويات . وهكذا صارت تعاليم لوتر المصلح وسيلة لتحرير المانيا من ربة رومة . والكنيسة الانقليكانية (الانكليزية) التي انشئت وازيلت ثم اعيدت لتفي بغرض المجتمع الانكليزي فظلت في طقوسها كأنها كاثوليكية او ارثوذكسية ولكنها استقلت عن هذين المذهبين .

ان الدين واحد ولكن الامم متعددة . وفي احتكاك الامم بالامم تتمسك كل واحدة بكل عقيدة او بآفة عقيدة ، سواء اكانت دينية او غير دينية ،

لتحافظ على استقلالها الروحي فلا تخضع لامة اخرى بواسطة السلطة الروحية الدينية ولذلك ظلت اسكتلندة كاثوليكية لكي تحتفظ بشخصيتها القومية فلا تذوب في انقلازها وما يقال في اسكتلندة يقال في ارلندة . وهكذا لجأ الفرس الى الشيعة ليحدثوا انقساماً يتخلصون فيه من سيطرة سورية الاموية وليستعيدوا استقلالهم وتقوؤهم الروحيين والماديين، لتصبح السيطرة فيهم ، وتمسكت سورية بالسنة لكي لا تخضع للفرس .

اما الدين من الوجهة العقلية فهو نوع من انواع الفلسفة في تعليل مظاهر الكون وتقدير نهايته ومصير النفس البشرية . ومع ان جميع الاديان الكبرى تجمع على فكرة اساسية واحدة، هي فكرة الله وخلود النفس والعقاب والثواب فهي تختلف في جزئيات تتعلق بالمناقب والاخلاق بالنسبة الى البيئة التي ينشأ فيها كل دين وحاجة الحياة لتلك البيئة . ثم تأتي المذاهب والشيعة لتعدل الدين من هذه الوجهة ليلائم حاجات ومصالح مجتمع خاص او مجتمعات خاصة ونحن نعتقد ان ابوانوف قصد المذهب حين قال الدين فجعل المذهب ديناً قائماً بذاته وهو من باب تسمية الجزء بالكل او الفرع بالاصل .

ان في المجتمعات الانسانية نزعة الى اكساب العقائد العامة صبغات والواناً واذواقاً من خصوصيات شخصياتها . فكل مجتمع يحب ان يرى نفسه وشؤونه الخصوصية في معتقداته ومذاهبه ، اي ان يطبع المذهب العام او المشترك بطابع شخصي . فالمجتمع الروسي ، مثلاً، قد ادخل في الارثوذكسية الشيء الكثير من شخصيته وخصوصياته الاجتماعية فالترانيم والاجواق الكنسية وتقبيل الاقارب والاحباب ثلاثاً والاعياد ومظاهرها القومية ، هذه الاشياء الثانوية بالنسبة الى الاعتقاد بالله والخلود والمسيح لها الشأن الاول في تسمية المجتمع وهي هذه الاشياء التي لها قيمة قومية في حياة المجتمع ، اشياء تقليدية صبغ المجتمع الدين بها فاصبحت تقاليد دينية قومية .

ارادت الجامعة الدينية ان تحول دون نشوء الامم ولكن الامم عدلت الدين ليوافق نزعاتها القومية . وبهذا المعنى صار الدين ويصير عنصراً من عناصر القومية . وفي الامم ، التي تتعدد فيها الاديان والمذاهب تكون القومية

الدين الجامع ويعود الدين الى صبغته العامة وعقائده الاساسية المتعلقة بما
وراء المادة .

ان شرط كون الدين عنصراً قومياً ان لا يتضارب مع وحدة الامة
ونشوء روحها القومية فاذا فقد هذا الشرط زالت عنه صبغته القومية وعادت
له طبيعته العامة .

ومن العناصر التي يعددها ايوانوف الوحدة السياسية والتاريخ والادب
وطريقة الحياة والمظاهر الثقافية العامة . اما الوحدة السياسية فهي التاج الذي
تنوج به الامة نفسها وتحصل به على اعتراف الامم الاخرى بحقها في الحياة
وكرامتها الشخصية . ولكن الوحدة السياسية ليست شرطاً للامة ولا عنصراً
من عناصرها ولكنها ضرورة من ضرورات الامة ليكون لكيانها الاجتماعي-
الاقتصادي قيمة حيوية عملية . كل امة تتجه بطبيعة وجودها الى انشاء دولة
تضمن لها سيادتها وحقوقها الانترنسيونية .

واما التاريخ فهو سجل مجرى حياة الامة وخطورته هي في القومية ، في روحية
الامة ووجدانها ، لا في الامة بعينها فان ذكريات ما قامت به الامة وما عانته
تقوي الوجدان القومي . ووحدة الامة هي التي تعين التاريخ القومي . فلولاً
ما حدث من وحدة الاغريق بعد الاسكندر لظل تاريخ الاغريق تواريخ
اثنينا واسبرطة وطيبة ومكدونيا او تواريخ الدورين واليونانيين والهلينيين الخ .
واما الادب فقد ذكرناه في باب اللغة ¹ .

واما طريقة الحياة فمن مميزات الامة الناشئة في بيئة معينة تقدم امكانيات
معينة من زراعة وصناعة وسلك بحار وتجارة وتفصيلها في باب العادات والتقاليد .
واما المظاهر الثقافية العمومية فتشمل جميع ما ذكر من لغة ودين وعادات
وتقاليد وتاريخ وادب وهي كلها من مظاهر المتحد الاجتماعي الاتم الذي
هو الامة .

ومع ان تفصيل المظاهر الثقافية قد مر معنا فيحسن بنا ان نعرض هنا
لشيء ادق من المظاهر الثقافية ولم يذكره ايوانوف ولا منتشيني ولكن الكتاب

1 راجع الصراع الفكري في الادب السوري ، للتؤلف .

الاجتماعيين يوردونه في ادلتهم على الامة وهو الثقافة او وحدة الثقافة .
والثقافة هنا بمعنى Culture وهي مجمل العلوم والفلسفات التي تتناول الحياة وما
له علاقة بها ، وما يحصل من ذلك من مستوى عقلي واتجاهات فكرية واعتقادات
مناقبية وادراك للشؤون النفسية والمادية .

الحقيقة ان طبيعة الثقافة عامة كطبيعة الدين . وانما قد مر على العالم
ادوار ثقافية سمي كل دور منها باسم الشعب الذي قام به او اللغة التي كانت
واسطته . فاذا تكلمنا عن الثقافة السورية عنينا بها الدور الذي قام به السوريون
في ترقية الثقافة العامة وهو دور الجمع بين الزرع والغرس وسلك البحار
والتجارة وانشاء الحروف الهجائية والدولة المدنية وخصوصا العناصر الاربعة
الاخيرة ، كما تقدم معنا آنفاً . واذا تكلمنا عن الثقافة الاغريقية عنينا بها
الفلسفة والفن اللذين انشأهما الاغريق واعطوهما للعالم . واذا تكلمنا عن
الثقافة العربية عنينا بها ترقية العلوم التي اشتركت فيها العناصر الداخلة في نطاق
اللغة العربية ، كالحساب والهندسة والطب والكيمياء . واذا تكلمنا عن الثقافة
العصرية عنينا بها الدور الاخير الذي تشترك فيه الامم المتقدمة واللغات الحية
كلها مع الاحتفاظ بالالوان او الصبغات القومية لبعض نواحي الثقافة .

اذن ، ليست الثقافة شيئاً خاصاً ، بل شيئاً عاماً يتفاوت في الدرجات
بين الاقوام . فالسوريون والانكليز والالمان والفرنسيون والمصريون وجميع
الاقوام المتقدمة يشتركون في ثقافة واحدة عامة دورها هو الدور العصري .
ولكن كل امة من هذه الامم تحتفظ لنفسها بأسلوبها الادبي او الفني الخاص
في ما تعطيه لهذه الثقافة . ويجوز ان يكون لكل امة بعض مظاهر ثقافية خاصة .
اذن لا تعين الثقافة الامة ولكن درجة الثقافة تكون فارقا بين امم وامم .
والسبب في هذا الفارق اقتصادي جغرافي قبل كل شيء ، حيثما وجدت المؤهلات
الروحانية .

بقي في تحديد منتشيني عبارة قوية هي كون الامة مجتمعاً طبيعياً من
ابرز صفاته خضوعه للاتحاد في الحياة والوجدان الاجتماعي .

هذه هي نقطة الابتداء الحقيقية الاساسية لوجود الامة ولتعريف الامة .
 شرط المجتمع ، ليكون مجتمعا طبيعيا ان يكون خاضعا للاتحاد في الحياة
 والوجدان الاجتماعي ، اي ان تجري فيه حياة واحدة ذات دورة اجتماعية
 اقتصادية واحدة تشمل المجموع كله وتنبه فيه الوجدان الاجتماعي ، اي
 الشعور بوحدة الحياة ووحدة المصير فتتكون من هذا الشعور الشخصية
 الاجتماعية بمصالحها وارادتها وحقوقها .

كل ميزة من ميزات الامة او صفة من صفاتها تابعة لمبدأ الاتحاد في الحياة
 الذي منه تنشأ التقاليد والعادات واللغة والادب والدين والتاريخ (انظر
 ص 145 و 147) .

الامة متحد اجتماعي او مجتمع طبيعي من الناس قبل كل شي آخر . وكل
 ما مر آنفاً من العناصر هي اوصاف للامة ناشئة من مجرى حياتها وتاريخها
 وهي قابلة للتطور والتكيف فقد تتعاقب الاديان ويحول الادب وتبديل
 العادات وتعدل التقاليد وترتقي الثقافة في امة من الامم من غير ان يشوب
 سنة نشوء الامم شائبة ومن غير ان ينتفي وجود الامة ، الى ان تزول الامم
 والقوميات من الوجود ويصبح العالم كله متحداً اجتماعيا واحداً لا تفصل
 بينه فواصل ارضية او اجتماعية او اقتصادية .

لقد عرفنا المتحد الاجتماعي في مكان آخر (ص 148 و 153) فراجعه
 هناك . ومما مر في بحثنا في تعريف الامة وعناصرها يمكننا ان نستخلص قاعدة
 عامة لتعريف الامة تعريفاً غير خاضع لتأثير واحد معين من تاريخ او ادب وهي:
الامة جماعة من البشر تحيا حياة موحدة المصالح ، موحدة المصير ، موحدة
العوامل النفسية - المادية في قطر معين يكسبها تفاعلها معه ، في مجرى التطور ،
خصائص ومزايا تميزها عن غيرها من الجماعات .

الوتم الكنعاني

مادما قد بلغنا حد الوجدان القومي الذي هو ابرز الظواهر الاجتماعية
 العامة العصرية فقد بلغنا هذا الدين الاجتماعي الخصوصي الذي اعطى الكنعانيون

فكرته الاساسية للعالم ونعت في بعض الظروف بالحدیعة الكنعانية¹ او الاثم الكنعاني .

ومن الهام جداً للعلم الاجتماعي ان نستقصي سبب نسبة الرابطة القومية المؤسسة على فكرة الوطن الى السوريين الكنعانيين ، لان هذا الاستقصاء يساعدنا على فهم هذه الرابطة الروحية المتينة . ولا بد لنا من الاعتراف باننا لم نقف في ما طالعهنا من كتب التاريخ والاجتماع على سوى هذه الاشارة السريعة الى اصل الوطنية الكنعاني ومع ذلك فلن يصعب علينا اكتشاف السبب بدرج احوال الكنعانيين الاجتماعية والسياسية .

ان الكنعانيين ، من بين جميع شعوب التاريخ القديم ، كانوا اول شعب تمشى على قاعدة محبة الوطن والارتباط الاجتماعي وفاقا للوجدان القومي ، للشعور بوحدة الحياة ووحدة المصير ، فارتحلت جماعة منهم من حوالي البحر الميت الى الشمال الغربي ونزلت على الساحل امام لبنان وعرفت في التاريخ باسم الفينيقيين² الذي اصبح اشهر من اسم كنعان ولكنها ظلت محافظة على نسبها الكنعاني فظل الفينيقيون يسمون انفسهم كنعانيين .

انشأ الفينيقيون (الكنعانيون) الدولة المدنية فكانت طرازاً جرى عليه الاغريق والرومان . ومع ما نشأ عندهم من الدول فانهم لم يتحاربوا وظلوا محافظين على صفة الشعب الواحد المتضامن في الحياة وكانت زعامة فينيقية تنتقل من مدينة الى مدينة ، من دولة الى دولة بعامل التقدم والكبر وازدياد المصالح والنفوذ كانتقال الزعامة من مدينة صيدا الى مدينة صور التي اسست

1 هر تس ، كتابه المذكور ص 162 نقلاً عن قوبنو . انظر ايضا افلاطون ، الجمهورية ، الفصل

الثالث .

2 ان حكاية عجي . الفينيقيين من خليج العجم او البحر الاحمر ليست موثوقة بصحتها وقد اصبحت ساقطة بعد الادلة الجديدة المثبتة ما ذكرناه آنفاً . ماير (ج 2 ف 356 الحاشية) يذكر نفي عجي . الفينيقيين من البحر الاحمر او جزائر البحرين وان كان كيتاني قبل القول بعجي . الفينيقيين من خليج العجم (سنابه ج 1 . ص 185) .

اول امبراطورية بحرية في التاريخ .

وباكرآ اسس الفينيقيون الملكية الانخابية وجعلوا الملك منتخباً لمدة الحياة فسبقوا كل الشعوب والدول التاريخية الى تأسيس الدولة الديمقراطية. وما الدولة الديمقراطية سوى دولة الشعب او دولة الامة . هي الدولة القومية المنبثقة من ارادة المجتمع الشاعر بوجوده وكيانه .

وان المحافظة على الرباط الوطني القومي عند الفينيقيين ظل ملازماً لهم في انتشارهم في طول البحر السوري وعرضه وفي المستعمرات والامبراطوريات التي انشأوها فظلت الحقوق المدنية في الزواج والاختلاط وجميع المظاهر الاجتماعية والثقافية واحدة لهم جميعاً ولم يكن هنالك استثناء الا في الحقوق السياسية .

ومع ان الفينيقيين (الكنعانيين) انشأوا الامبراطورية البحرية فان انتشارهم كان انتشاراً قومياً بانشاء جاليات استعمارية تظل مرتبطة بالارض الام وتتضامن معها في السراء والضراء . كان انتشارهم انتشار قوم اكثر منه

اتساع دولة . وان هذا الانتشار مع بقاء الاشتراك في الحياة بالروابط الوطنية والدموية والاجتماعية كان الظاهرة القومية الاولى في العالم التي اليها يعود الفضل في نشر المدنية في البحر السوري والتي خبت نارها قبل ان تكتمل بما هب عليها من حملات البرابرة الاغريق والرومان . ومن دلائل هذه الظاهرة التي امتاز بها الكنعانيون انهم لم يدخلوا الاقوام الغريبة التي اخضعوها بالفتح كالليبيين والاسبان القدماء (الايبيريين) في نظام حقوقهم المدنية والسياسية . ومع ان ذلك كان من مصادر ضعفهم تجاه تقدم رومة فانه كان دليلاً على روحهم القومية ومحافظةهم على وحدة مجتمعهم .

معرض
الشرق

القومية ، اذن ، هي يقظة الامة وتنبيهها لوحدة حياتها ولشخصيتها ومميزاتها ولوحدة مصيرها . انها عصبية الامة . وقد تلبس احياناً بالوطنية التي هي محبة الوطن ، لان الوطنية من القومية ولان الوطن اقوى عامل من عوامل نشوء الامة وام عنصر من عناصرها . انها الوجدان العميق الحي الفاعل الخبير العام ، المولد

محبة الوطن والتعاون الداخلي بالنظر لدفع الاخطار التي قد تهدد بالامنة
ولتوسيع مواردها ، الموجد الشعور بوحدة المصالح الحيوية والنفسية ، المرید
استمرار الحياة واستجادة الحياة بالتعصب لهذه الحياة الجامعة التي يعني فلاحها
فلاح المجموع وخذلانها خذلانه .

القومية هي الروحية الواحدة او الشعور الواحد المنبثق من الامة ، من
وحدة الحياة في مجرى الزمان . لبست القومية مجرد عصبية هوجاء او نكرة
متولدة من اعتقادات اولية او دينية . انها لبست نوعاً من الطوطمية ، او
نكرة دموية سلالية ، بل شعور خفي صادق وعواطف حية وحنو وثيق على
الحياة التي عهدها الانسان . انها عوامل نفسية منبثقة من روابط الحياة الاجتماعية
الموروثة والمعودة ، قد تغطي عليها ، في ضعف تنبها ، زعازع الدعاوات
والاعتقادات السياسية ، ولكنها لا تلبث ان تستيقظ في سكون الليل وساعات
التأمل والنجوى او في خطرات الانسان في برية وطنه او متى تذكر برية
وطنه .

وان الوطن وبريته ، حيث فتح المرء عينيه للنور وورث مزاج الطبيعة
وتعلقت حياته بأسبابها ، هما اقوى عناصر هذه الظاهرة النفسية الاجتماعية التي
هي القومية . ماذا تعني القومية للسويسري اذا ازلت جبال الالب وبجراتها ؟
وماذا تعني القومية للفرنسي اذا اختفت سهول فرنسا وتحولت انهرها عن مجاريها ؟
والسوري هل يخفق قلبه لجبال الالب او لصحاري بلاد العرب على ما
فيها من مشاهد جميلة ؟ البست سورية هي التي ترتاح اليها نفسه ويحن اليها
فؤاده اذا غاب عنها ؟ .

ان شاعراً سورياً مهاجراً ظن انه قد وجد قوميته في الدعوة السياسية -
الدينية الى الامبراطورية العربية او الوحدة العربية او اعادة مجد العرب .

ولكنه ، في ساعة سعيدة من ساعات يقظته النفسية ، تنبه شعوره الداخلي المجرد
عن العوامل السياسية فأدركه الحنين الى الوطن . على ان هذا الحنين لم يكن
الى وطن لا عهد له به ، الى الصحراء او مصر او المغرب ، بل الى سورية .

هو الشاعر الياس فرحات فانظر كيف تتدفق عواطفه الصادقة وشعوره
السليم القطري :

نازح اقعده وجد مقيم في الحشا بين خمود وانتقاد
كلما افترله البدر الوسيم عضه الحزن بانياب حداد
يذكر العهد القديم فينادي
اين جنات النعيم من بلادي

زائها المبدع بالفن الرفيع منصفاً بين الروابي والبطاح
ملقياً من نسج ابكاء الربيع فوق اكتاف الربى ابهى وشاح
حبذا راعي القطيع في المراح
ينشد اللحن البديع للصباح

موطني يمتد من بحر المياه ممعنا شرقاً الى بحر الرمال
بين طوروس وبين التيه تاه بهمال فائق حد الجمال
ذكره يغري فتاه بالمعالي
انا لا ابغي سواه فهو مالي

واي سوري لا يشعر بهزة نفسية حين يقرأ قصيدة « رب صن سورية »
لامين تقي الدين وبأن في هذا المقطع روعة الحقيقة :

يا بلادي نعشي غداً سبسير فتغطيه من رباك الزهور
ومتي حث بي لقبري المسير فلنعشي على الاكف صرير
كل معناه : رب صن سورية

وهناك شاعر سوري آخر كبير هو سليمان البستاني مترجم الياذة .
هذا الشاعر اغترب وساح كثيراً وادركته اوصاب الهرم فذهب يستشفى

في سويسرة الجميلة . ولكن سويسرة لا ترتبط بحياته فهو لا يرى فيها صور
نفسه ومزاجه وروابط حياته وروحيته . تأمل حنينه الى سورية ومقابلته
بين تلؤلؤ لبنان وجوه وجبال الالب وهواء سويسرة :

افق ولو حيننا قبيل الرحيل لم يبق من صحوك الا القليل
افق فذي شمسك رأد الاصيل
ان آذنت بالعبور عم الظلام
ونمت عاري الشعور بين النيام
وفاتك الحس وممع الكلام والمنطق العذب ومرأى الجميل

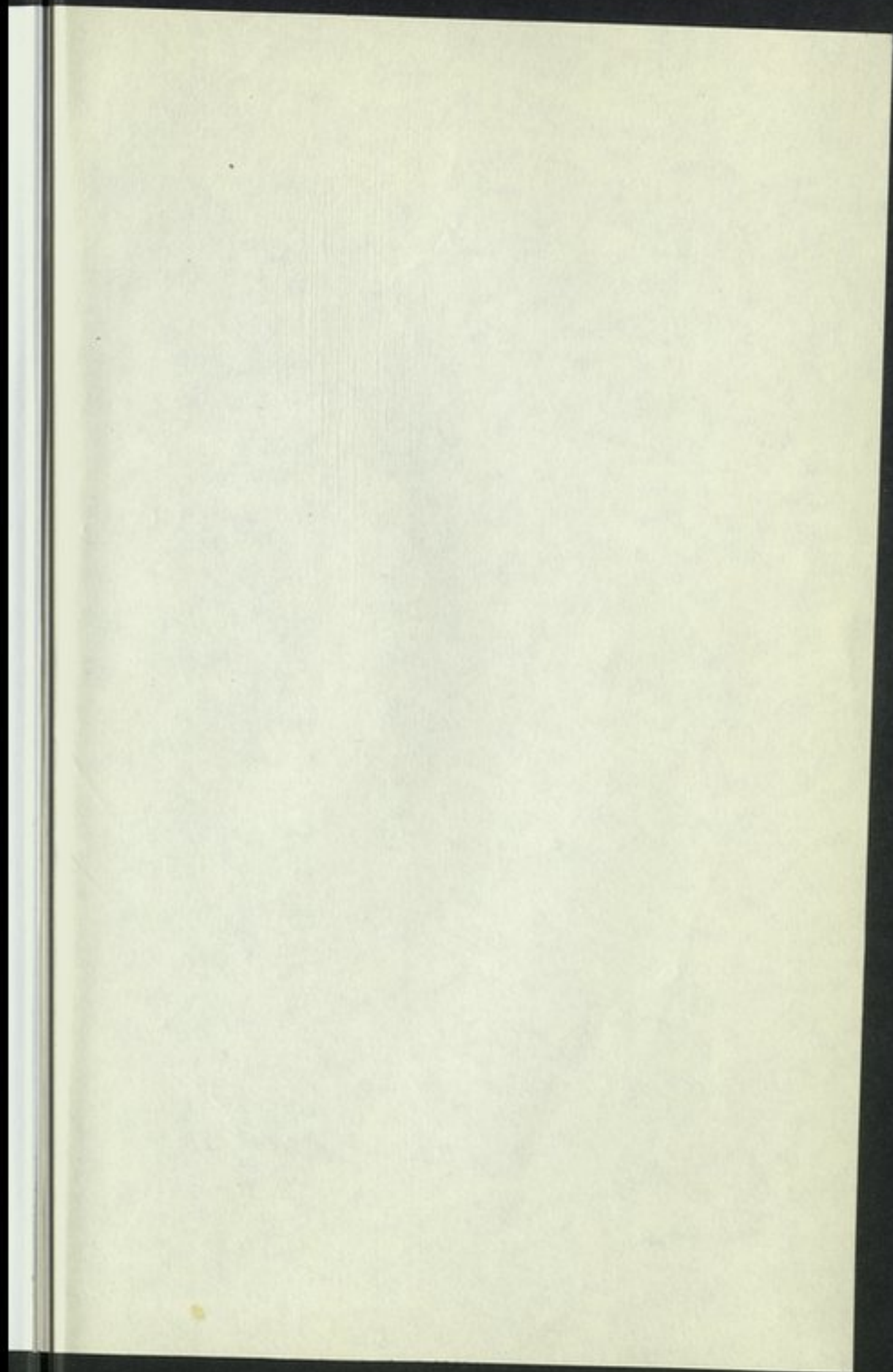
.....

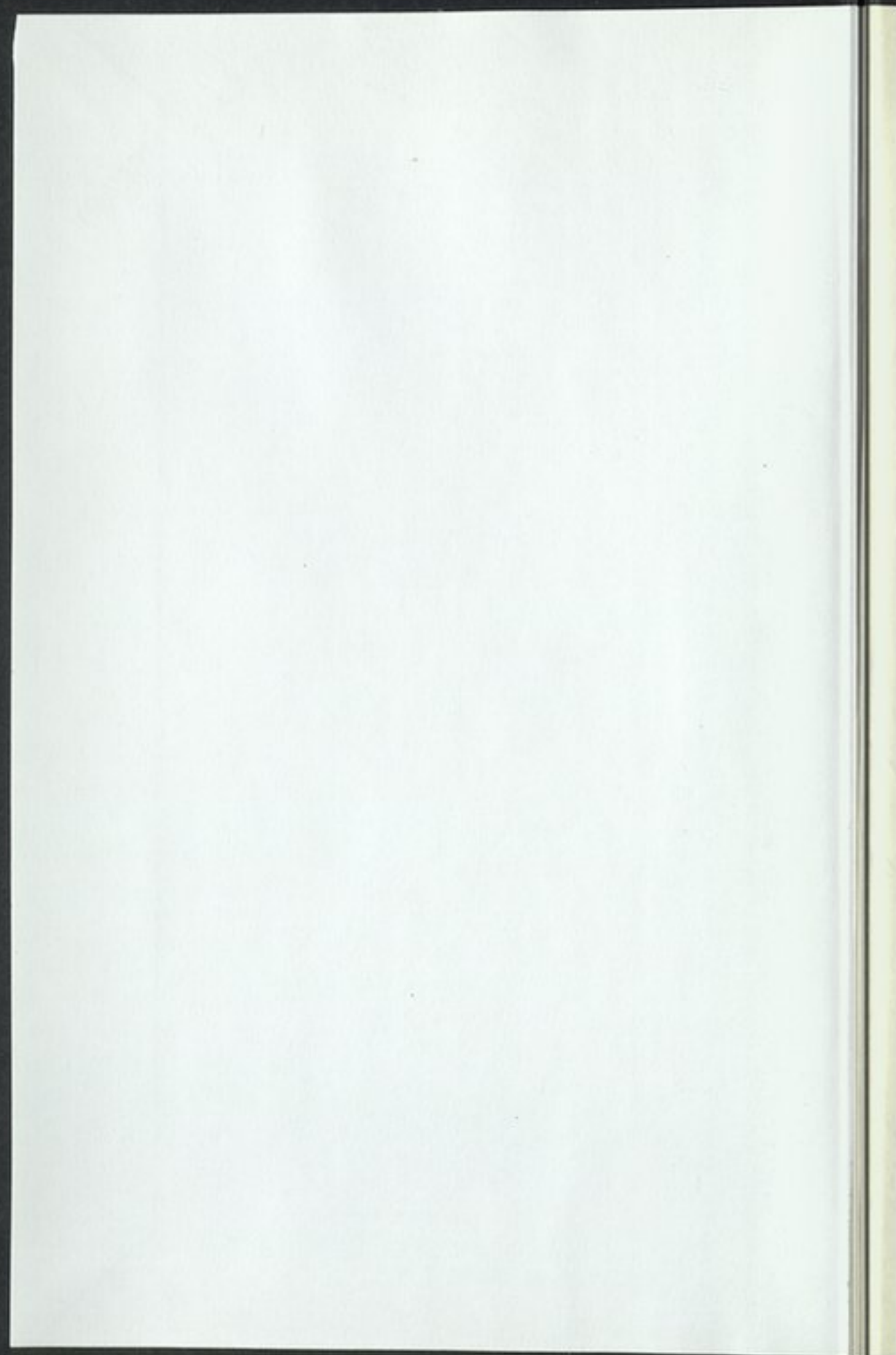
ذكرت لبنان وهاج الحنين فؤادي العاني لذاك العرين
قد عز مناه طوال السنين
فاين تلك الفصول بلا انحراف
واين تلك التلؤلؤ والجوصاف
واين ماء فيه محي وشاف واين ذياك النسيم العليل
فهل ترى يفسح آتي الاجل حتى به تغمض منك المقل
وارض سورية محط الامل
ولو زمانا يسير قبل القوات
الى حماها تسير تلقى الرفات

واهلها تلقى قبيل المات بمرتع الرغد وعيش خضيل

ان الانتم الكنعاني لا يزال فاعلا فينا وقد اصبح فاعلا في العالم كله .

هناك بعض الاغلاط المطبعية كزيادة نقطة على بعض احرف الكلمات
او نقصانها ، لا تخفى على القارىء المتبصر .





ELB. LIBRARY

RELIB. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00508489

